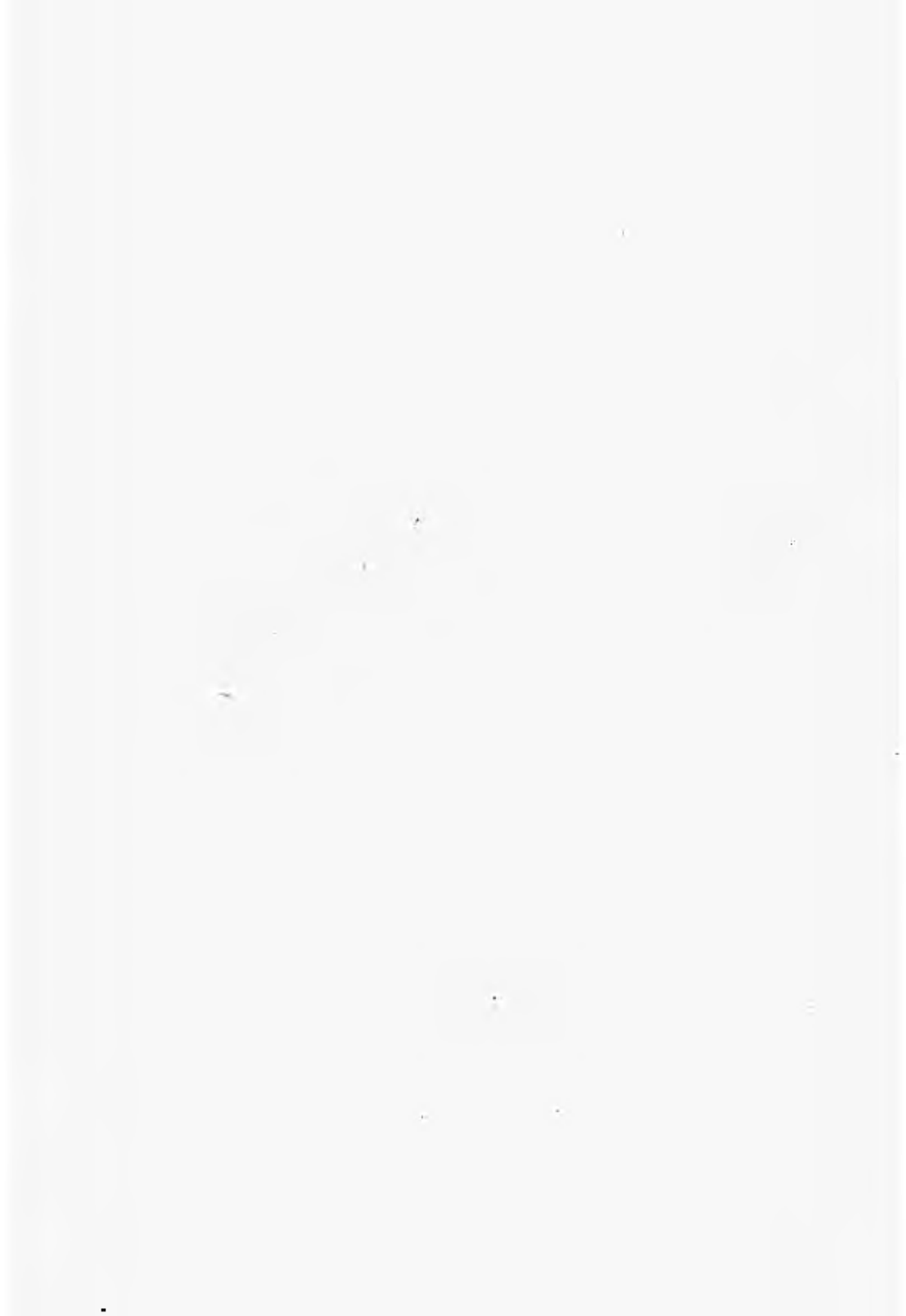


السيرة النبوية

محمد رسول الله
والذي بعثه

مولد الرسول

عبد الحميد هزوه السحار



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ الحق من ربك فلا تكونن من الممترين * ﴿ .

(قرآن كريم)

كانا بيتين متجاورين خلف الكعبة ، أحدهما بيت زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، قريش العظمى ، والآخر بيت أخيه قصي أول بنى كعب بن لؤى ، أصاب ملكا أطاع له به قومه فكانت إليه الحجابة والسدانة والرفادة والندوة واللواء ، فحاز شرف مكة كله ، وقطع مكة رباعا بين قومه فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي أصبحوا عليها ، ولما أرادت قريش البنيان قالوا لقصي :

— كيف نصنع في شجر الحرم ؟

فحذرهم قطعه وخوفهم العقوبة في ذلك ، فكان أحدهم يخوف بالبنيان حول الشجرة حتى تكون في منزله .

وجمع قصي قريشا حول الحرم فسمته مجمعا لما جمع من أمرها ، وتيمنت بأمره فما تنكح امرأة ولا يتزوج رجل من قريش وما يتشاورون في أمر نزل بهم ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا في داره يعقده لهم بعض ولده ، وما تدرع (تلبس الدرع) جارية إذا بلغت أن تدرع من قريش إلا في داره يشق عليها فيها درعا ثم تدرعه ثم ينطلق بها إلى أهلها ، فكان أمره في قومه كالدين المتبع لا يعمل بغيره .

وشرف بينا الشقيقين زهرة وقصي وظلت أواصر المحبة متينة بين أبناء العم ، وذهب زهرة وذهب قصي فإذا بدار زهرة تضيق بأبنائه وإذا بدار قصي تضيق بأولاد عبد مناف وعبد الدار وعبد العزى وعبد قصي وتخمر

وبرة ، فابتنى أولاد زهرة دورا حول دار أبيهم وابتنى أبناء قصى دورا حول دار أبيهم . وقامت دور بنى زهرة إلى جوار دور بنى قصى وكانت ألوية السلام ترفرف على الجميع .

ولد عبد مناف أربعة نفر : هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل ، وكان عبد مناف قد شرف في زمان وذهب كل مذهب ، وكان عبد العزى قد ذاع صيته ، وكان عبد قصى قد علا ذكره ، ولم يكن خاملا من أبناء قصى إلا عبد الدار يكره ، فلما كبر قصى أشفق على عبد الدار وأراد أن يلحقه بإخوته فقال له :

— أما والله يا بنى لألحقتك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك ؛ لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له ، ولا يعقد لقريش لواء الحربها إلا أنت بيدك ، ولا يشرب أحد بمكة إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما إلا طعامك ، ولا تقطع قريش أمرا من أمورها إلا في دارك . وأعطاه داره دار الندوة التي لا تقضى قريش أمرا من أمورها إلا فيها ، وأعطاه الحجابة والسقاية والرفادة ؛ وفتح قصى بتلك الوصية أبواب الشحاء بين أولاده .

ورأى بنو عبد مناف أنهم أولى من بنى عبد الدار بالحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، لشرفهم عليهم وفضلهم في قومهم ، فأجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدي بنى عبد الدار . فتفرقت عند ذلك قريش ، طائفة مع عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل يرون أنهم أحق بذلك الشرف من بنى عبد الدار وكان بنو زهرة منهم ، وطائفة مع عبد الدار يرون ألا ينزع منهم ما كان قصى جعل لهم .

وأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبا ووضعوها لأحلافهم عند

الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها ولم يتأخر أحد من بنى زهرة ، فتعاقدوا وتعاهدوا ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم ..

كان بنو زهرة وبنو عبد مناف من المطيبين ، وكان بنو زهرة قد تأهبوا لخوض غمار الحرب لمساندة عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل . وكانوا على استعداد لأن يجودوا بدمائهم من أجل بنى عبد مناف ، لولا أن الفريقين المتنازعين قد تداعوا إلى الصلح على أن يعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار كما كانت .

وكان عبد شمس رجلا سفارا قلما يعيش بمكة ، فولى هاشم بن عبد مناف الرفادة والسقاية ومن الرحلتين لقريش : رحلتى الشتاء والصيف . وقدم المدينة فتزوج سلمى بنت عمرو أحد بنى عدى بن النجار فربط الأسباب بين مكة والمدينة واليمن ، فقد كانت سلمى من الخزرج ، وكان الأوس والخزرج من اليمن .

وولد لهاشم شيبه وعرف بعبد المطلب ، فكان عبد المطلب جماع حضارة قريش وحضارة يثرب ومدينة سبأ .

ووقعت العداوة بين هاشم وبين أخيه أمية بن عبد شمس ، فقد كان هاشم يحمل ابن السبيل ويؤدى الحقوق ، يتلأأ وجهه بالنور ويضرب بجوده المثل . وأراد أمية أن يتشبه به فعجز عنه فشمت به ناس كثير من قريش ، فكانت المنافرة بين هاشم وأميه ، وقد حكم الحكم الذى احتكما إليه أن يخرج أميه من مكة عشر سنين وأن تذبح إبله ويطعمها الناس فكانت أول عداوة بين هاشم وأميه . وقد ورث بنو هاشم فيما ورثوا عدوانهم لبنى أميه ، وقد وقف بنو زهرة إلى جوار هاشم وسخروا فيمن سخر بأمية ابن أخيه .

وذاع صيت هاشم حتى طغى على صيت قصي فعرفت داره بدار هاشم

وعرف الحى الذى أقام فيه بنوه من بعده بحى هاشم . وظل اسم زهرة علما على قومه ولم يطغ عليه صيت أحد من بنيه وإن أنجب أشرافا كما أنجب قصى أشرافا ، وقد صار هاشم وزهرة أفضل حين فى العرب .

كانت دور بنى هاشم إلى جوار دور بنى زهرة ، وقد صار عبد المطلب سيد بنى هاشم وزعيم قريش ، وانتهى أمر بنى زهرة إلى وهب ووهيب . وقد تزوج وهب برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى ، وعلى الرغم من زواجه حفيدة عبد الدار فقد كان قلبه مع عبد المطلب حفيد عبد مناف . وقد كان الود متصلا بين وهب ووهيب وعبد المطلب سيد قريش فما كان ينقضى يوم دون أن يجتمعوا فى دار الندوة أو فى ظل الكعبة أو فى دار من دورهم يتشاورون فى أمور دينهم ودنياهم .

وفتحت دار عبد المطلب وخرج منها زعيم قريش يحف به أبنائه الحارث والزبير وحجل والمقدم وضرار وعبد العزى — وقد عرف بأبى لُب لإشراق وجهه — وعبد مناف الذى عرف بأبى طالب . فقد رأى عبد المطلب يوم كان يقوم بحفر زمزم وحده أن ابنه الوحيد الحارث أعجز من أن يصد عنه قومه الذين أتوا يمنعه من أن يحفر بين صنيهما إساف ونائلة ، فوطن النفس على أن يتزوج فى بيوتات قريش لتكون له عصية منهم يؤيدونه ويناصرونه ، فتزوج فى بنى نزار وتزوج فى بنى مخزوم وتزوج فى بنى مرة بن كعب بن لؤى وتزوج فى بنى قصى بن كلاب ، فجمع بيوت قريش على قلب رجل واحد .

وكان عبد المطلب قد نذر حين لقي من قريش ما لقي عند حفر زمزم : لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعه لينحرن أحدهم لله عند الكعبة . إنه ليذكر ذلك النذر ولا ينساه . وقد توافى بنوه عشرة بعد أن وضعت له فاطمة بنت عمر بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى بن

غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابنه عبد الله ، بيد أن عبد الله لم يبلغ العلم بعد فعاش عبد المطلب ينتظر أن يبلغ عبد الله مبلغ الرجال ليفي بندره .
وانطلق عبد المطلب إلى الكعبة وكان مديد القامة أبيض مشربا بحمرة حسن الوجه يتألق بالنور وعز الملك ، يطيف به من حضر من بنيه كأنهم أسد غاب ، ويسير خلفهم عبيدهم من فرس وروم وأحباش فقد كانت تجارة أسرى الحرب أروج تجارة ، وكان الإقبال على شراء الرقيق الأبيض من الجنسين شديدا ، فالرجال آلة جيدة من آلات التجارة والصناعة فهم أهل حضارة وعلم ، والنساء بارعات الحسن يشعلن نار الصبابة في قلوب رجال الصحراء .

وبلغ عبد المطلب وبنيه الحرم فراحوا يطوفون بالكعبة . حتى إذا ما أتموا الطواف انطلق عبد المطلب إلى فراش معد له في ظل البيت العتيق وجلس عليه ، وجلس أبنائه حوله بعيدا عن ذلك الفراش فما كان يجلس عليه أحد غيره احتراماً له وإجلالا لقدره .

وجاء أمية بن عبد شمس وابنه حرب ، وكان أمية قصير القامة نحيف الجسم وكان في رفقته ابنه حرب ، وكان حرب نديم عبد المطلب قلما يفترقان وإن كانت الغيرة من عبد المطلب تنهش قلب أمية ، فقد ذهب أبوه هاشم بالشرف يوم أن حكم له الكاهن الذي ذهبا إليه ليحكم بينهما أيهما أعز نفرا وأكثر فضلا . وها هو ذا عبد المطلب يذهب بالشرف كما ذهب به أبوه من قبل ، فلقد دعاه الناس « شيبة الحمد » لكثرة حمد الناس له ، ودعوه بالفياض لجوده ، ومطعم طير السماء لأنه كان يرفع من مائدته للطير والوحوش في رعوس الجبال ، وقد أسلس قومه له القيادة يفزعون إليه في النوائب ويلجئون إليه في الأمور .

كان أمية يؤمن في قرارة نفسه أنه أحق بزعامة قريش من هاشم عمه ، وإنه
لعل يقين من أن ابنه حرب أحق بزعامة قريش من عبد المطلب بن هاشم . فإن
كان عبد المطلب يطعم الناس فإن نيرانه ونيران ابنه حرب تظل مشمسة طوال
الليل تدعو الضيف إلى حيث الكرم والجود ، وإن كان عبد المطلب يبعث
بقوافل قريش إلى بلاد فارس وبلاد الروم واليمن فإن ابنه حرب ينطلق بالتجارة
إلى العراق ، وقد توطدت الصداقة بينه وبين أشرف الحيرة حتى إنه تعلم
الكتابة منهم .

ازدهرت التجارة في مكة وخرجت القوافل تجوب الآفاق تحمل الأقمشة
والمعادن والجلود والعمود والأصباغ والجواهر والأصواف والحلى ، وقد حل
المكيون محل التجار اليمنيين بعد أن استولى أبرهة على اليمن وشل تجارتها .
وأصبح تجار مكة يحملون حرير فارس إلى بلاد الروم بعد أن وقعت البغضاء
بين كسرى أنو شروان إمبراطور إيران ويوسطيانوس إمبراطور الروم
وقطعت سبل الاتصال بين إمبراطورية الشرق وإمبراطورية الغرب . فإن
كانت الأموال قد تدفقت على مكة فإن الظروف السياسية في المنطقة قد
خدمت عبد المطلب ، وإن ابن أخيه حرب قد بذل جهدا ضخما في ثراء
مكة .

كان أمية بن عبد شمس يحس كأن عبد المطلب قذى في عينيه ولكن ابنه
حرب كان يحب عبد المطلب . ولم يكن قد مرضت نفسه من ابن هاشم بعد .
فلما رأى عبد المطلب الحفل إلى مجلسه بينا ذهب أبوه أمية إلى الملتزم ، إلى
حيث كان الكتاب يرمون العقود ويكتبون المواثيق .

وراح عبد المطلب وحرب بن أمية يتناجيان ، حتى إذا ما جاء وهب
وهيب وبعض رجال زهرة من التجار الذين كانوا يجوبون أسواق مصر

وبصرى والشام دار الحديث حول أخبار تلك البلاد ، فقال الذى كان يأتى
بالأثواب المنسوجة فى تانيس والمصوغات المجلوبة من منف :

— إن أهل مصر فى ضيق فقد وضع فيصر عليهم ضرائب باهظة ، وهم
يقاسون ذل الاضطهاد فإذا كانوا على دين النصارى مثلهم مثل الروم
فالاختلاف بينهم فى الدين شديد .

وراح الرجل يتحدث عن أوجه الخلاف فى الدين بين أقباط مصر وبين
نصارى الروم ، فالأقباط على المذهب القائل بوحدة طبيعة المسيح بينا الرومان
يؤمنون بلاهوت المسيح وناسوته وبالتثليث . وكان العرب على علم بدين
الروم . فقد كان للرومان بيوت تجارية فى مكة وكانت تلك البيوت تقوم
بالتجارة وبالتجسس على أحوال العرب ، فقد كان أبرهة الأشرم يتطلع إلى
غزو الحجاز لينصل نصارى الحيشة واليمن بنصارى الشام والروم ، فيتحقق
بذلك حلم الرومان الذى أحقق فى تحقيقه أو ليوس غاليلوس يوم أن انهم صالح
وزير ملك النبط بالخيانة وتضليل جيش الرومان فى الصحراء .

وراح حرب بن أمية يتحدث عن عرب دومة الجندل وعن صديقه بشر بن
عبد الملك أخى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل وعن انتشار الكتابة
هناك ، وأصغى عبد المطلب وبنوه ومن عنده من الرجال إلى حديث القلم
العربى فى الحيرة والأنبار وفى دومة الجندل فى عجب وإعجاب ، ولا غرو فقد
طمر الزمن حقيقة نشأة القلم العربى فما دار بخلد أحد من السمار أنه على بعد
خطوات منهم منذ ألفين ومائتين من السنين قد نشأ القلم العربى عند بحر
زمزم ، فى تلك الأيام التى كانت هاجر المصرية تعلم ابنها إسماعيل مبادئ
الكتابة والقراءة ، وإن إسماعيل قد كتب الجمل موصولة ، وأن ابنه قيذار قد
فصل بينها ، وأن أبناء إسماعيل حملوا معهم ذلك القلم يوم أن خرجوا من مكة

ليتفسحوا في الأرض إلى دومة الجندل وإلى صحراء سبأ وإلى أرض البط .
وقد ازدهر ذلك القلم في البتراء وانتشر فيما حولها من البلاد ثم عاد مرة أخرى
إلى مكة بعد أن تهدد ليصبح قلم قريش وينتظر السأ العظيم .

ودار الحديث حول الفرس وكسرى أنو شروان وعدله وكرمه ، وراح
الحاضرون يقصون بعض برادر كرمه فقال فائل منهم :

— قعد كسرى أنو شروان ذات يوم في المهرجان ووضعت الموائد .
ودخل وحوه الناس الإيوان على طبقاتهم ومراتبهم ، وقام الموكلون بالموائد
على رعوس الناس وكان كسرى بحيث يراهم .

فلما فرغ الناس من الطعام جاءوا بالشراب في آنيته الفضية وجامات
الذهب ، فشرب الأساورة وأهل الطبقة العالية في آنية الذهب . فلما انصرف
الناس ورفعت الموائد أخذ بعض القوم جاما ذهباً فأخفاه في خسائه وأنو شروان
ينحظه ، فصرف وجهه عنه . واتفق صاحب الشراب اجام فصاح :

لا يخرجن أحد من الدار حتى يفتش .

فقال كسرى : « لا تتعرض لأحد » . وأذن للناس فانصرفوا ، فقال
صاحب الشراب : « أيها الملك إنا فقدنا بعض آنية الذهب » . فقال الملك :

« قد أخذها من لا يردها عليك ، وقد رآه من لا يتم عليه »

وجاء رجل يهودي يسعى حتى إذا بلغ مجلس عبد المطلب ألقى التحية ثم
جلس ، فقد كان في حوار عبد المطلب وفي حمايته ، وقد كانت مكة تفيض
باليهود وبصارى الروم والأحباش الذين يشرفون على تجارتهم في المدينة
المقدسة التي يجح إليها العرب ويأتون إليها من كل فج عميق ، وكانوا يمارسون
ديانتهم في حرية فقد كانت كل العبادات تمارس في مكة .

شب عبد المطلب في يثرب في كنف أمه سلمى بت عمرو الخزرجية ،

وكان في صبه يدور على حوايت اليهود في السوق في النهار ويمضي بعض
الأمسيات يصفى إلى حديث الدين ، فاعتق بعض آراء اليهود دون أن
يدري ، مما بدأ عبد المطلب يتحدث أسمر عن أثر اليهود في معتقداته قال :
— لن يخرج من الدنيا ظنوم حتى يتقم منه وتصفه عقوبه .

فقال اليهودى في فرح :

— صدقت .

كانت اليهودية قد فسدت بعد أن حمل مختصر اليهود أسرى إلى بابل ، فقد
سوا الآخرة والبعث بعد الموت وما دعاهم إليه إبراهيم وإسحاق ويعقوب
ويوسف وموسى ، واعتنقوا معتقدات البابليين وقالوا عما كان يقول البابليون
من أن المرء يثاب على عمله في الدنيا إن حيرا فحير وإن شرا مشر . وأنكروا
البعث والقيامة والحساب في الدار الآخرة .

وراح أحد الحاصرين يؤيد رأى عبد المطلب فقال :

— إن هي إلا حياتنا الدنيا .

وأخذ اليهودى طرف الحديث وراح يحدث أخبار سى إسرائيل فصار
قطب الرحى في مجلس أشراف قريش وساداتها ، وصايق ذلك حرب بن أمية
مهر اليهودى وأعطاه مرمى عبد المطلب حرب بن أمية بطرة قاسية مهشها
حرب ، فقد كانت تقول في فصاحة قد يعحرعها اللسان « إنه في حوارى
وإني لا أسمع لك أن تهزه في محسى » . فهض حرب بن أمية وقد لاح في
وجهه الغضب ، ثم انصرف لا يلوى على شيء

كانت العداوة مستعرة الأوار بن عرب الفرس وعرب الروم . فإن كان عمرو بن هند ملك خيرة قد أصبح في العايرين وإن كان الحارث بن جبلة ملك العساسنة قد لحق بآبائه ، فإن قابوس أcha عمرو بن هند كان أول ما فكر فيه بعد أن صار ملك الخيرة أن يعرو الشام وأن يأسر المنذر بن الحارث بن جبلة ملك العساسنة وحيث الروم .

تولى قابوس الحكم وهو رجل مسن حركته التجارب وعركته الأيام ، ولكنه لم يفكر في أن يجمع شمل العرب بأن يعقد صلحا بينه وبين عرب الشام ويوحد صفوف الخيرة وعسان ليصبح للعرب قوة تنهاها فارس وتحشاها الروم ، بل عمل على مركة العرب وإشغال نار البعضاء في القوس فجمع جيوشه وخرج من الخيرة قاصدا عرب الشام وقد كان على علم بالطريق فيه قد حمل حملة انتقامية على العساسنة في أيام أخيه .

وأغار الشيخ قابوس على الشام وعمل القتل في الرحال وسبى ما وقع في يده من النساء وأسرى الشباب ليسلمهم في أسواق الخيرة وفارس ويثرب ومكة ، وعمم غائما كثيرة ثم قفل عائدا وهو يحتم برضا كسرى أبو شروان إمبراطور الفرس العظيم .

وأفاق المنذر بن الحارث بن جبلة من هول المفاجأة فجمع جيوشه وخرج في أثر عدوه يطير على جناح الكراهية حتى لحق به ، فالتحم عرب الخيرة بعرب الشام ودارت معركة رهية سالت فيها دماء العرب على الأرض إرضاء

لكسرى وقبصر ، ولم يتمكن قابوس من الثبات فانهم هزيمة منكرة وفر هو ومن سار معه من الناجين في اتجاه نهر الفرات ، تاركا عددا من الأمراء اللخميين أسرى في أيدي المنذر .

واقضى جيش الشم أثر جيش الحيرة فقد كان المنذر يطمح في أن يقضى على غريمه في المعركة ، ولكن قابوس كان قد نجح في اسحا به في أن يدخل مملكته . فلما رأى المنذر أنه أصبح على ثلاث مراحل من الحيرة وأنه قد أحد من قابوس أموالا كثيرة وعددا من الجمال كبيرا آثر أن يعود متصرا ليرصى بنصره يوسطابوس قبصر الروم .

كان قابوس يعي من حروبه وجه كسرى ، وكان المنذر بن الحارث يبنى وجه قبصر ، وكانت دماء العرب تسيل أمارا إرضاء لكسرى وقبصر . وكان كل من كسرى أنو شروان ويوسطابوس راضيا عن تلك الحروب كل الرضا فقد كانت توهم العرب وتمتع كلاب الحراسة من أن يتحولوا إلى أسد عاب يقضون على قلب الفرس وقلب الروم .

وجلس قابوس في قصره الخورنق يفكر في أمره . إنه هرم من المنذر بن الحارث هزيمة تجرح النفس وتدمي القلب ولن يلوق الراحة قبل أن يثار هريمته ويعيد لنجيرة كرامتها . وطار فكره إلى المدائن عاصمة فارس فقد كانت فلة ملوك الحيرة ، كما كانت القسطنطينية قبة ملوك الشام .

أه لو كان عدى بن زيد العبادي في الحيرة لا يطلق معه إلى المدائن ولتمتحت هما أبواب قصر كسرى ، فما كان كسرى أبو شروان يرد لعدى ظنيا . ولكن عدى في جفير في البحرين ينعم برياضها ومائتها ومارعها ، وإه ليشنو في الحيرة ويأق المدائن في خلال ذلك فيحدم كسرى .

وشرد قابوس يفكر في عدى ، فإذا بالنسرين تطوى في دهن الملك الشيع

وإذ بالأحداث تترادف على رأسه فتفتح الرؤيد لعين الخيال ، وإذا بتاريخ قد طونه السون يبعث في نفس الملك المتهالك على أعتاب فارس .

وكان مرسل أيوب بن محرووف بن عامر عم عُقَيْة بن امرئ القيس بن زيد بن تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار ، جد عدى في اليمامة ، فأصاب دما في قومه فهرب فألحق بأوس بن قلام أحد بني الحارث بن كعب بالحيرة . وكان بين أيوب بن محرووف وبين أوس بن قلام هذا نسب من فل النساء . فلما تقدم عليه أيوب أكرمه وأمر له في داره فمكث معه ما شاء الله أن يمكث ، ثم إن أوسا قال له :

— يا بن خال ، أتريد المقام عندي وفي داري ؟

— نعم . عسيت أني إن أتيت قومي وقد أصبت فيهم دما لم أسلم ، ومالي دار إلا دارك آخر الدهر .

— إني قد كبرت وأنا حائف أن أموت فلا يعرف ولدي لك من الحق مثل ما أعرف ، وأحشى أن يقع بينك وبينهم أمر يقطعون فيه الرحم ، فاطبر أحب مكان في الحيرة إليك فأعلمني به لأقطعك أو أبتاعه لك .

فابتاع له موقع داره بثلاثمائة أوقية من ذهب وأبقى عندها مائتي أوقية ذهبا ، وأعطاه مائتين من الإبل برعائها وعرسا وعينه فمكث في منزل أوس حتى هلك ثم تحول إلى داره التي في شرق الحيرة . واتصل أيوب بالملوك الذين كانوا بالحيرة وعرفوا حقه وحق ابنه يريد ، وثبت أيوب فلم يكن منهم ملك يملك إلا ولود أيوب منه جوائز وحُمَلاَن .

وتزوج ريد بن أيوب امرأة من آل قلام فولدت حمادا . فخرج زيد بن أيوب ذات يوم يريد الصيد في ناس من أهل الحيرة فاصرد في الصيد وتباعد من أصحابه ، فلقه رجل من بني امرئ القيس الذين كان هم انثار قبل أبيه فعرف

فيه شبه أيوب ، فقال له :

— من الرجل ؟

— من بى تميم .

— من أيهم ؟

— مرئى (نسبة إلى امرئ القيس) .

— وأين منزلك ؟

— الخيرة .

— أمن بنى أيوب أنت ؟

— نعم ، ومن أين تعرف بى أيوب ؟

واستوحش من الأعرابى وذكر الثأر لدى هرب أبوه منه ، فقال الأعرابى

فى حث :

— سمعت بهم .

ولم يعلمه أنه عرفه ، فقال له ريد بن أيوب .

— فمن أى العرب أنت ؟

— أنا امرؤ من طيئ .

فأمنه ريد وسكت عنه .

ثم إن الأعرابى اعتقل ريد بن أيوب فرماه بسهم فوصعه بين كتفيه ففنى

قلبه ، فلم يرح حافر دابته حتى مات .

ومكث حماد فى أحواله حتى أيقع فحرح دات يوم يلعب مع علمان بى

لحيان ، فلطم اللحيانى عين حماد فشججه حماد ، فحرح أبو اللحيانى فصر

حمادا فصرعت من دنت أم حماد وحولته إلى دار ريد بن أيوب وعلمته الكتابة

فى دار أبيه ، فكان حماد أول من كتب من بى أيوب فحرح من أكتب الناس .

وطلب حتى صدر كاتب العمان الأكبر ، فلبث كتابا له حتى ولد له ابن من امرأة تروحها من طيء فسماه ريذا باسم أبيه ، وكان لحماذ صديق من الدهاقين (النحار) اعظماء يقال له فروح ماهان ، وكان محسبا إلى حماد ، فلما حصرت حماد الوفاة أوصى بابه إلى ريد الدهقان وكان من المراربة ، فأحده الدهقان إليه فكان عنده مع ولده .

كان ريد قد حذق الكتابة العربية قبل أن يأحده الدهقان ، فعينه لأحده الفارسية وكان ليا ، فأشار الدهقان على كسرى أن يجعله على الريد في حوائجه ، ولم يكن كسرى يفعل ذلك إلا بأولاد المراربة ، فكثرت بتوى ذلك لكسرى زمانا ثم إن العمان انصرى النحى هنك فاحتلف أهل الخيرة فيمن يمدكونه إلى أن يعقد كسرى الأمر لرجل ينصه ، فأشار عليهم المرربان بريد بن حماد فكان على الخيرة إلى أن ملك كسرى المنذر بن ماء السماء .

وتروح ريد بن حماد نعمة بنت ثعنة العدوى فولدت له عدنيا ، ومثك انسر وكان لا يعصيه في شيء وولد للمرربان ابن فسماه « شاهان مرد » فلما تحرك عدى بن ريد وأيقع طرحه أبوه في الكتاب ، حتى إذا حذق أرسنه المرربان مع ابنه « شاهان مرد » إلى كتاب الفارسية ، فكان يختلف مع ابنه ويتعلم الكتابة والكلام بالفارسية ، حتى حرح من أفهم الناس بها وأفصحهم بالعربية .

وقال اشعر وتعلم الرمي بالشباب فحرح من الأساورة الرماة ، وتعلم لعب العجم على الخيل بالصوالحة وغيرها . ثم إن المرربان وفد على كسرى ومعه ابنه « شاهان مرد » فبينما هما واقفان بين يديه إذ سقط طائر على السور فتطاعما كما يتطاعم لذكر والأشئ ، فجعل كل واحد مقاره في مفار لآخر (موبد الرسون)

فقال كسرى للمرزبان وابنه :

— ليرم كل واحد منكما واحدا من هذين الطائرين فإن قتلها أدرجتكما بيت المال وملأت أفواهكما بالجوهر ، ومن أخطأ منكما نأقبتة .

فاعتمد كل واحد منهما طائرا متهما ورميا فقتلها جميعا ، فمتهما إلى بيت المال فملئت أفواههما جوهرا . وأثنت « شاهان مرد » وسائر أولاد المرزبان في صحابته ، فقال فروح ماهان عبد ذلك للملك .

— إن عدى علاما من العرب حنمه أبوه عدى فريته ، فهو أفصح الناس وأكثهم بالعربية والفارسية ، والمملك محتاج إلى مثله ، فإن رأى أن يُثبته في ولدى فعل .

— ادعه .

فأرسل إلى غدئ بن ريد وكان حميل الوجه فائق الحس وكانت العرس تترك بالحميل الوجه ، فلما كتبه الملك وجده طرف الناس وأحضرهم جوابا ، فرغب فيه وأثبت مع ولد المرزبان . فكان عدى — حميد عديان — أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى . فرغب أهل بحيرة إلى عدى ورهبوه ، فلم يزل بالمندائش في ديوان كسرى يؤذن له عنيه في الخاصة وهو معجب به قريب منه ، وأبوه ريد بن حماد يومئذ حى ، إن أن ارفع ذكر عدى وحمل ذكر أبيه ، فكان عدى إذا دخل على المنذر قام جميع من عنده حتى يقعد عدى ، فعلا له بذلك صيت عظيم ، فكان إذا أراد المقام بالبحيرة في مرله ومع أبيه وأهله استأذن كسرى فأقام فيهم الشهر والشهرين وأكثر وأقل . وأرسل كسرى عدى بن ريد إلى ملث الروم هدية من طرف ما عنده ، فلما أتته عدى بها أكرمته وحمله إلى عماله على اليريد ليريه سعة أرضه وعظيم ملكه ، فمن ثم وقف عدى بدمشق وقال فيها الشعر .

وفسد أمر الحيرة وعدى بدمشق حتى أصلح أبوه يسهم ، لأن أهل الحيرة كان عبيهم المندر أرادوا قتله لأنه كان لا يعدل فيهم وكان يأخذ من أموالهم ما يعجبه ، فلما تيقن أن أهل الحيرة قد أجمعوا على قتله بعث إلى زيد بن حماد وكان قبله على الحيرة فقال له :

— يا زيد أنت خليفة أبى وقد بلغنى ما أجمع عليه أهل الحيرة فلا حاجة لى فى ملككم دوكموه ملكوه من شعث .
فقال له زيد :

— إن الأمر ليس لى ، ولكى أسير لك هذا الأمر ولا آلوك بصحا .

فلما أصبح عدا إليه الناس فحيوه تحية الملك وقالوا له :

— ألا تبعث لى عدك الظالم فترج منه رعتك .

وفهم زيد أنهم يعصون المنذر فقال لهم :

— أولا حير من ذلك ؟

— أشر علينا .

— تدعونه على حاله فإنه من أهل بيتك ، وأنا آتيه فأخبره أن أهل الحيرة

قد اختاروا رجلا يكون أمر الحيرة إليه ، إلا أن يكون عزو أو قتال ملك اسم

الملك وليس إليك سوى ذلك من الأمور .

— رأيك أفضل .

فأتى المنذر فأخبره بما قلوا ، فقبل ذلك ومرح وقال :

— إن لك يا زيد على نعمة لا أكفرها ما عرفت من حق سيد .

وكان سيد صبا لأهل الحيرة ، فولى أهل الحيرة ريذا على كل شىء سوى

اسم الملك فإنهم أتروه للسدر .

ثم هلك زيد وابنه عدى يومئذ بالشام ، وكانت تريد ألف ناقة كان أهل

الخيرة أعطوه إياها حين ونوه ما ونوه ، فلما هتك أزدوا أحدها فلع ذلك المنذر فقال :

— لا واللات والعزى لا يؤخذ مما كان في يد ريد شيء ، وأنا أسمع الصوت

ثم إن عديا قدم المذائن على كسرى هدية قيصر ، فصادف أباه والمررباب الذى رباه قد هككا جميعا ، فاستأذن كسرى فى الإنعام بالخيرة فأذن له فتوجه إليها . وبلغ المنذر حره فخرج فتلقاء الناس ورجع معه وعدى أسل أهل الخيرة فى أنفسهم ولو أراد أن يملكوه للمكوه ، ولكنه كان يؤثر الصيد واللهو واللعب على الملك فمكث سبعين ييدو فى فصل السنة ، فيقيم فى جعفر ويشتو بالخيرة ويأتى المذائن فى حلال ذلك فيخدم قيصر .

وكان المنذر لما ملك جعل ابنه النعمان بن المنذر فى حجر عدى بن ريد فهم الذين أرصعوه وربيوه ، وكان للمنذر ابن آخر يقال له « الأسود » أمه مارية بنت الحارث بن جلهم من نائم الرباب ، فأرصعه ورباه قوم من أهل الخيرة يقال لهم مريب يسيبون إلى اللحم وكانوا أشراها

وكان للمنذر سوى هذين من الولد عشرة ، وكان ولده يقال هم « الأشاهب » من حمامهم . وكان النعمان من بينهم أحمر أبرش قصيرا ، وأمه سلمى ست وائل بن عطية الصدئع من أهل فدك على بعد يومين من المدينة . ومرت الأيام وقدم عدى هدية كسرى إلى المنذر والنعمان يومئذ حتى شاب ، وبعد أن قدم عدى هدية كسرى إلى المنذر دخل البيعة ليصلى لله فى الوقت الذى دخلت فيه هند بنت النعمان .

كانت هند من أجمل نساء أهل زمانها وكانت مديدة القامة عبلة الخسم ولها حيشة إحدى عشرة سنة ، فرآها عدى وهى عاهرة فلم تنتبه له حتى تأملها ،

وقد كان حواريبا رأين عديا وهو مقبل فلم يقل لها كي يراها عدى .
ورأت هدى عديا يطير إليها فشق ذلك عليها وسست حواريبا وبالت بعضهن
بصرب ، فوقعت هدى في نفس عدى فلبث حولا لا يحجر بذلك أحد .
وحاعت جارية من حواريبا إليها وراحت تزين لها بيعة توما وتصف لها من
فيها من الرواهب ومن يأتيها من حوارى الخيرة وحسن بائها وسرحها ، ثم
قالت لها .

— سلى أمك الإذن لك في إتيانها .

فسألتها ذلك فأدنتها ، وبادرت الحارية إلى عدى فأخبرته الخبر فادر
فليس قاء كان « فرحاشاه مرد » قد كساه إياه وكان مدهما لم ير مثله حسا ،
وكان عدى حسن الوجه مديد القامة حلو العيين حسن المسم بقي الثعر ،
وأخذ معه جماعة من فتيان الخيرة فدخل سبعة ، فلما رأته الحارية قالت هدى
— انطرى إلى الفتى ! فهو والله أحسن من كل ما تريد من اسرح
وعيرها !

— ومن هو ؟

— عدى بن زيد .

— أتحابين أن يعرفنى إن دنوت منه لأراه من قريب ؟

— ومن أين يعرفك وما رأيك قط من حيث يعرفك !

فدنت منه وهو يمارح الفتيان الدين معه وقد برع عليهم بحماله وحسن
كلامه وفصاحته وما عليه من الثياب ، فدهبت لما رأته وهبت تنظر إليه ،
وعرفت الحارية ما بها وتيسته في وجهها فقالت لها :

— كلميه

فكلمته وانصرف وقد تبعته نفسها وهويته وانصرف وقد شعف بها

حما . فلما كان العبد تعرض له الجارية فلما رآها هش لها وكان قل ذلك لا يكلمها ، وقال لها :

— ما غدا بك ؟

فعاذته على أن تحتال له في همد ، ثم تركته فأنت هذا فقالت :

— أما تشتهين أن ترى عبدنا ؟

— وكيف لي به ؟

— أعدده في ظهر القصر وتشرفين عليه .

— افعللى .

فواعدته إلى ذلك المكان فأثاه ، وأشرقت همد عليه فكادت تموت وقالت :

— إن لم تدخليه إليّ هلك .

فادرت الأمة إلى العمان فأخبرته خبرها وصدقته ، وذكرت أنها قد شغمت به وأنه إن لم يزوجها به افتضحت في أمره أو ماتت ، فقال لها :

— ويلك ! وكيف أبدؤه بذلك !

— هو أرعب في ذلك من أن تبدأ أنت ، وأنا أحتال في ذلك من حيث لا يعلم أنك عرفت أمره .

وأنت عبدنا فأخبرته الخبر وقالت :

— ادعه ، فإذا أخذ الشراب منك فاحطب إليه فإنه غير رادك .

— أحشى أن يعصه هذا فيكون سبب العداوة بيسا .

— ما قلت لك هذا حتى فرغت منه معه .

فصنع عدى طعاما واحتصل فيه . ثم أتى العمان فسأله أن يتعدى عنده هو وأصحابه ففعل ، فلما أخذ منه الشراب خطبها إلى النعمان فأجابته وزوجه

وضمها إليه بعد ثلاثة أيام .

طاعت كل هذه الأحداث برأس الملك قابوس وهو جالس في مكانه ثم غمغم : « ذلك عدى بن ريد وقد تزوج فيها ، وهذه مكاته في بلاط كسرى . إنه سيعاوننى ولا ريب وسيلتمس من كسرى أن يجهز لقتال المنذر بن الحارث بن جبلة حبيب الروم » .

وتأهب الشيخ قابوس لسفر إلى المدائن وهو يحلم باستقبال رائع كذلك الاستقبال الذى قوبل به الحارث بن جبلة في القسطنطينية ، ترى أيجرح كسرى أبو شروان لاستقباله كما حرج يوسطانيوس لاستقبال الحارث ؟ ووصل قابوس إلى عاصمة فارس فإذا بضابط عظيم في استقباله ، وبعد أن حياه في إجلال قاده إلى قاعة العرش ليقابل « الإنسان الأول » . فما كان أحد ليحرو أن يادى الملك باسمه أو لقبه ، فملوك الساسانيين من الكائنات الإلهية .

وفتح باب قاعة العرش وبادى الحارس الواقف بالباب بصوت جهورى .
— الملك المبجل قابوس منك الحيرة .

ودخل قابوس يحف به رجال القصر فإذا بكسرى أبو شروان على عرشه وعلى رأسه التاج من الذهب محلى بالخواهر والياقوت الذى رصع به يشع عظيمة ، وقد أحيط بصف من اللآلئ كانت تنمع فوق التاج وقد انعكس نورها المتموح على ألوان الزمرد الزاهية ، فلما وقعت عينا قابوس على ذلك التائق وقعتا على عجب محير .

وكان كسرى يلبس سروالا مرقفا بالذهب مسوجا باليد على لون السماء ، وكان العرش محمولا على الخيول ذات الأحصنة ، وعلى بعد عشرة أذرع جلس الأساورة وأبناء الملوك وكان عدى بن ريد فيهم . وعلى بعد عشرة

أذرع من هذه الطبقة حلت بطانة الملك وندماؤه ومحدثوه من أهل الشرف والعلم .

وتقدم قابوس من العرش حتى إذا ما أصبح على بعد خطوات من كسرى جذب من كفه ششتقة بيضاء نقية غطى بها فمه يجمع أنفاسه من تلويث الأشياء المقدسة ووقاية لجلال الملكية ، ثم بدأ حديثه بالتحية ، وتمنى أن يحقق الله رغبات قدسية الملك الطاهر والإسكان الأول .

وأجلس كسرى أنو شروان الملك قابوس ملك الحيرة إلى جواره ثم راح يسأله عن رحلته وعن حالة بلاده وجيشه ، فأخذ قابوس يصف ما لقي من كرم رجال الملك الطيب أيما رل ، وراح يصف حال بلاده وحال جيشه الذى يريد أن يقويه ليعزو أهل الشام بكافة قيصر ، وكان يقول بين كل حملة وحملة « حمدك الله » أو « حقق الله رغبات قدسيتمكم » ليستميل كسرى أنو شروان ويبال رضاه وعظمه .

وانتقل كسرى وقابوس إلى مائدة الملك ، وكان عن يمين كرسى الملك كرسى من الذهب وكرسيان آخرون من الذهب عن يساره وورائه ، فأخذ هذه الكراسى الثلاثة كان حاصبا لملك الصين ، والثانى لملك الروم ، والثالث لملك الحزر ، بحيث إهم إذا أنوا إلى بلاط كسرى جلسوا على هذه الكراسى . وهذه الكراسى الثلاثة نوصع طول السنة ، فلم تكن ترفع ولا يجرؤ أحد على اجنوس عليها ، ولكن كسرى أحلس قابوس عن يمينه إكراما له وتعظيما . وكان أمام العرش كرسى من ذهب جلس عليه الملك هرمدار — ومن تحته كراسى ححرت لسمراة والعظماء ، وكان لكل كرسى خاص حسب مكانته .

وأمر كسرى بالنهيب لمحرواح للصيد إكراما لقابوس ، فراح الأساورة

والموبدان موبد وخاصة الملك يعرصون دوابهم على صاحب دواب الملك ، لأنه لا ينبغي أن يكون حصان أحدهم وليداً أو كثير النور أو العثار أو احماح ، فيكون على الملك من ذلك بعض ما يكره

ولما كان ينبغي على الحصان ألا يروث أو يبول أو يتحصن أو يتشعب في حضرة الملك فقد امتنع الأساورة عن أن يطعموا دوابهم ، ففى العد سيخرجون مع الملك وصيفه إلى رحلة صيد ، وكانت مصاحبة الملك في رحلة واجماً ثقيلاً وشرفاً غير مساع عند عطاء مملكته !

وخرج كسرى وقابوس وعدى بن ريد لصيد ، وقد كانت فرصة طيبة لقابوس فاهتبلها وحدث الملك الطيب عن رعيته في تقوية جيشه ليعزو المدر ابن الحارث بن جبلة حليف قيصر ، وقد شد عدى بن ريد أزر قابوس حتى إن كسرى وعد معاونة ملك الخيرة وتجهيزه لقتال عرب الشام

وعاد قابوس إلى عاصمة ملكه وقد تدفقت الدماء حارة في عروق الشيخ وراح قلبه يحقق بالكرامية لعرب الروم ، وما كاد يستقر في قصر الخورنق حتى أصدر أوامره بتحجير الحيوش لدخول القتال العساسة .

وراح العرب يتأهبون لسفك دماء العرب . أما من رحل رشيد من العرب يوحد صفوفهم لوجه الله لا لوجه كسرى ولا لوجه قيصر ١٩

خرجت آمة بت وهب ، وابنة عمها هالة بت وهيب ، وبعض بنات
 بنى زهرة وصياهم ، وبعض بنات بنى هاشم وصيائهم ، من دورهم ليلعبوا
 على روائى مكة وفى وديانها ، وانطلقوا فى طرقات مكة الصيقة يضحكون فى
 براية الملايكة . وإن هى إلا خطوات حتى أشرعوا على الكعبة ، فقد كانت
 الدور تحيط بالحرم تقترب منه أو تتعد عنه لما لكل أسرة من مكة ومقام ،
 فكان بنو زهرة وبنو هاشم أقرب أهل مكة إلى البيت المقدس فقد كانا أشرف
 حين من العرب .

كانت الشمس قد أشرقت فغمرت أشعتها الدور التى انتشرت على سفوح
 الجبل المحيطة بأول بيت وصع للناس ، وبدأت الحياة تدب فى الوادى المقدس
 فاحذر الناس ليظوفو بالبيت العتيق قبل أن يصرفوا إلى أعمالهم . واستقل
 علام من بنى زهرة فرص الشمس وقد أخذ بين سباته وإبهامه سباله قد
 سقطت ، ثم قذف بها وهو يقول :

— يا شمس ، أبدلى بس أحسن منها ، ولتحر فى ظلمتها آياتك .

وصحكت آمة وعلمان بنى زهرة وبنى هاشم ثم انطلقوا كعراشات
 طليقة إلى الصفا ووقفوا فوقه يظفرون إلى الكعبة وإلى بئر زمزم وإلى قوافل
 الحجاج التى بدأت تعد على مكة ، فقد دنا موسم الحج . ولح أحدهم قافلة
 قادمة من ناحية الطائف فصاح فى فرح :

— قافلة عبد المطيب ، جاءت بالتمر والزبيب .

كان عبد المطلب يأبى بالتمر والزبيب من حر ماله ويضعها في ماء زمزم يسقى الحجاج تقرباً إلى الله ، وقد كان غلمان قريش يهلون في اموسم من أحواض الماء القرية من الحرم التي وضع فيها التمر والزبيب ، كانوا يحدون سعادة في مراحة الحجاج على الماء فقد كانوا يحسون إحساس من بدأ كمحاح الحياة لأول مرة .

وانحدرت آمنه من فوق الصفا ، وانحدر معها لداتها ، وراحت تهول بين الصفا والمروة كما يفعل الحجاج ، تشبها بها حر لما كانت تهول بينهما بحثا عن الماء لتتقد وحيدها إسماعيل من الموت عطشا قبل أن يصجر الله له رمرم . وكانت آمة سعيدة في سعيها ، رقيقة كسليم الصبا ، متفتحة كرهرة الربيع ، تستشعر على الرغم من حداثة سنها أنها من أشرف بيت من بيوت قريش . إلا أنها لم تكن تحس في أعماقها أنها أشرف من وطئت قدمها الرماح التي وطأها قدما هاجر أم العرب ، فإن كان هاجر فضل تكوير اجتماع المكى حول رمرم . فمنها سيسعث النور الذي سيخرج من مكة ليحمر وجه الأرض كلها .

وانحدت آمة وبات بى زهرة وبى هاشم وعمامهم طريقهم إلى الكعبة ، وقد نصب الخمس قباهم الحرم بين الصفا وباب الحرم ، وكانت القباب من الأدم ، فالخمس في الأشهر الحرم لا يغزلون صوفاً ولا وبراً ولا يدخلون بيتا من الشعر والمدر . (نهم أبناء الحرم المترمتون في ديبهم لا يعظمون شيئا من الأرض التي وراء الحرم ، وقد تركوا الوقوف على عرفة لأنه خارج عن الحرم واكتفوا بالوقوف بالمزدلفة .

وكان الخمس يقولون : لا تطوف في الثياب التي قارفا فيها الدنوب ، ولا عبد الله في ثياب أديسا فيها ، ولا تطوف في ثياب عصيا الله فيها ، فكانوا

يعبرون الناس ثيابا جديدة أو يبيعونها بقادريين . وكان المقراء يطوفون بابيت
عرايا ، أما من يطوف بثيابه فقد كان عليه أن يطرحها بعد الطواف حتى تبي
من وصاة الأقدام ولفح الشمس ورمحة الرياح
ودخلت آسة ولداتها الحرام . كان أمهم مقام إبراهيم وباب الكعبة وعن
شمالهم نثر زمرم ، فاضلقوا إلى البشر ليطعموا عطشهم ثم ذهبوا ليطوفوا بالبيت
مع الطائفين .

وكانت الأصنام مصوبة في الكعبة ومن حولها ، وكان الناس يعبدونها
لتقرهم إلى الله رلفي ، وكانت آمة تنظر في الأصنام في ربه فجدتها بو كبشة
قد كفر بالأصنام جميعا وعبد كوكب « الشعري العور » وهو من نجوم
الخوراء ، وقد سحر من عبادة الأصنام التي لا تملك نفسها نفعا ولا ضرا .
وقد سمعت آمة ولاريب من رحاب الأسرة وسائها بدعوة أبي كبشة وما سه
للغرب من عبادة الكواكب وتسفيه أحلام قومه .

كانت مكة قد انتقلت من مرحلة النورع إلى مرحلة الحرافة فراح أهلها
يسبحون حول كل طواهر الطبيعة أسطورة . فقام ابن الشعري العور كانت
و « شعري العيصاء » و « سهيل » مجتمعة ، لذلك يقال للشعريات أحنا
« سهيل » ، فحذر سهيل فصدر ثيابا . واتبعته العور فعبرت « الهرة » ،
وأقامت العيصاء فبكت لعقد سهيل حتى عمصت ، وذلك هو سبب أن
الشعري العور أشد صياء من الشعري العيصاء التي أصعب البكاء نور
عيها .

كانت آمة تحس راحة كلما لادت بالحرم وانشرحا يملا وجدتها ونور
يتشر في جوانب نفسها ، وأن قلبها الصغير قد اتسع ليحتوي الكون كله .
فهي تستشعر ناسفا مع الوجود وتعاطفا مع كل ما تقع عباها عليه .

وحات من آمة النعانة فرأت مجلس عبد المطلب وقد جلس حوله أبناؤه العشرة كأنهم أسد عاب ، وقد كان عبد الله فيهم فطافت بدهبها حقيقة م تفصّل إليها من قبل ؛ إن الدنيا لا تثبت على حال ، فعبد الله مد عهد قريب كان بين غلمان بني هاشم يععب معهم في الخجون ويجرى بين الصفا والمروة ويطلق معهم إلى السوق ، وها هو ذا اليوم قد تبع مبع الرجال وجلس بين سادات قريش شريفا من أشرف بيت ، ترى ماذا يسمع عبد الله من حديث وماذا يقول في مثل ذلك المجلس الحميل ؟!

وصم عبد المطلب ابنه عبد الله إلى صدره في حب ، فقد كان عبد الله أصغر بنيه وأحبهم إلى قلبه ، وتوحت شفّتي عبد الله ابتسامة رقيقة فدا لآمة أن وجه الدنيا كلها قد أشرق بالابتسام ، وأحسّت آمة أنها ليست وحدها التي ترسل نهر إلى عبد الله فقد لمحت رقيقة بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى من قصي أحت ورقة بن نوفل ، واقفة عند حجر إسماعيل تحتلّس النظر إلى عبد الله . كان ورقة بن نوفل قد تمصر بعد أن كفر بأوثان هومه وطلب الدين في الآفاق ، فكان يعكف على التوراة والإنجيل وديانات الأقدمين ، حتى إذا ما دخلت عليه أخته رقيقة راح يحدثها عن الدين ويقول لها فيما يقول :

— إنه كائن في هذه الأمة نبي .

فكانت رقيقة تحلم بأن تكون أم ذلك النبي المتطر ، وكانت نفل بصرها في وجوه شباب قريش كأنما كانت تبحث عن وجه وأند ذلك النبي ، وقد كانت رقيقة ذات فرسة فاستراحت إلى وجه عبد الله . وأقبل وهب سيد بني رهرة وهيب أخوه على مجلس عبد المطلب وجلسا ، وراح وهب يحدث عبد المطلب وقد أخذ يدقه ملاصفا ، ورأته آمة فقالت لهالة :

— قد جاء أبى وأبوك .

والفتفت هالة فوقعت عيناها على أبيها وهيب وقد رح محادث أمية بن حرب بن عبد شمس بديم عبد المطلب زعيم قريش ، فلاح في وجهها خوف فابتعدت وقد اتخذت طريقها ناحية الباب الذي يفضى إلى سوق مكة ، وقتيات بى زهرة وبى هاشم وغلمانهم في أثره .

وخرجت آمنة وهالة والدين معهما إلى سوق مكة وكان سقيفة قد حجبت أشعة الشمس الحامية ، وقد انتشرت على جانبي السوق حوايت التجار التي عصت بالأقمشة لمصنوعة في تاييس والحلى المحلوبة من منف والحريز الوارد من فارس والطرف السورية .

وراحت ذرية رهرة وهاشم يتفرسون في وجوه الناس الذين كانت السوق تموج بهم ، كانوا عربا ونصارى ويهودا وسوريين ومصريين وأحباشا ورومانين قد عرفوا الراحة والاستقرار في مكة ، بعد أن ذاقوا مرارة الاضطهاد في بلادهم .

كانت السوق قد اردحت بكل أحاس الأرض ، تترد في جنباتها لعات متباية ، فكان أهل مكة يلتقطون كلمة من هنا وكلمة من هناك فتثرى بذلك لعتهم ، ويقتبسون ما يروق لهم من حضارة الشعوب التي جاء أبائوها إليها مختارين يلتمسون الأمان ، أو جاءوا إليها كارهين في ركاب تجار الرقيق الذين كانوا يبيعون أسرى الحروب في أسواق العرب ، هازدهرت حضارة مكة ، وانتشر الترف في بيوت أغنيائها .

ووقفت آمنة وابنة عمها ومن معهما أمام صائغ ينظرون إلى ما يصنع من حلل في إعجاب ، كان الصائغ يهودي وكان الذهب في مناجم بني سليم استخرجه العرب وجلبوه إلى مكة ليصنع منه الحلل أو ليصرب سبائك ذهبية للذين

يكتزون الذهب والفضة .

وظلوا يجوسون خلال السوق حتى أحسوا التعب يمشى في أوصالهم ، فقفلوا عائدين إلى دورهم يقصون على أهدهم في مرح ما فعلوا في يومهم وما صادفوا من أحداث جذبت انتباههم ، وقد حسوا أن الأيام كلها لعب وهو زينة .

ومرت الأيام والأشهر والسنوات وأمنة تعيش بين أهلها ومع لداتها حياتها السعيدة الرتيبة ، وفي ذات يوم رأت أبوها يتاجيان بعيدا عنها ، ثم رأت أمها تقبل عليها وتقول لها :

— سيأحدك أبوك يا آمنة إلى دار الندوة .

دار الندوة ١٩ إنها لحظة حاسمة في حياتها ، إنها الفاصل بين طفولتها الحرة الطليقة وبين شبابها المحجوب في خدرها ، لقد انتهت أيام انطلاقها كفراشة إلى روائى مكة وربوعها كما انتهت من قبل أيام لعب عبد الله معهم . لقد أصبحت شابة وحلمت طفولتها البريئة دبر أذنها كما أصبح عبد الله حتى من فتیان فريش يتطلع إلى مستقبله .

وتأهبت آمنة للانطلاق إلى دار الندوة مع أبيها فراحت تتحرك في تودة ، فقد أحست فجأة نضجا في جسمها وفي عقلها وإن كانت رهبة عامصة قد انتشرت في جوفها . وجاء أبوها وأخذها وانطلق بها إلى الكعبة .

والتقى وهب وآمنة ووهيب في الحرم وراحوا يطوفون بالكعبة سبعة أشواط ، ثم ذهبوا إلى دار الندوة وقد كانت لى عبد الدار بن قصي ، فكانوا يقومون بمراسم الزواج والختان والفصل بين الناس في قضاياهم ، وإن كان عبد المطلب زعيم فريش وصاحب السقاية والرفادة .

وتقدمت آمنة من المكلف بمراسم حجج فتيات مكة فشق قميصها ثم

حجب به وجهها ، فكان ذلك إيذانا بأن آمنة قد حجبت ولن تقع عينيها بعد اليوم إلا عيون المحارم من أمهها .

وتقدمت هانة وشق قميصها وحجبت ، ثم عادت آمنة وهالة إلى دورسى رهرة وقد صرب عنيهما الحجاب وحيل بينهما وبين شباب الأسرة وبين شباب الأسر لقرشية التي كانت تتبادل الريارات مع بى زهرة وحاءت سودة عمه وه إلى داره فحلف إليها نساء بنى زهرة وفتياتها يرحبن بها وإن كانت ررقاء فييحة الصورة ، فقد كانت كاهنة قريش ، وكانت تحبرهم بما ستأقئ به الأيام .

كانت سودة تطرئ الحوم وكانت تكثر من انصيام حتى تشف روحها وتسلمح نفسها من البشرية إلى الروحانية ، وكانت تحتهد في الاتصال بالملأ الأعلى لتأقئ بحر السماء ، وقد صدق بعض ما تنبأت فقالت قريش : « إنها تنظر بنور الله » .

وحلست سودة وحلس نساء بى زهرة حوها وبعثت بها العيوب وأرهفت الآذان ، فراححت سودة تنفرس في وجوه الخالسات عدها ثم قالت :

— إن فيكم يا بى زهرة بديرة أو تنه بديرا ، فأعرضوا عني بآنكم .

وحفقت القلوب في الصدور وراعت الأنصار ، وساد السكون برهة وإن تحركت في النفوس الأميات ، فقد كانت كل أم في بى زهرة تنمى أن تكون ابنتها هي البديرة أو التي ستلد ذلك البدير .

وقدمت أم هالة ابنتها إلى سودة وقد أرهفت حواسها وتعبت كل آملها بكاهنة قريش الررقاء القميئة ، فراححت سودة تنفرس في هالة وتحدثت في طلاقة كأنما كانت تقرأ في كتاب مفتوح . إنها تحدثها عن رواجها بسيد من سادات قريش قد شرف في قومه حتى انقادت له الرعامة ، وعن ولدها

الشهيد ، وعن أشياء رائعة كثيرة ، وبكها لم تقل لها إنها البديرة أو من ستند
ذلك النذير .

وعرّضت أمهات بى زهرة بانهن على سودة فراحت كاهنة قريش تنبأ
مستقبل كل فتاة وقد ساد المكان ترقب وقلق ولهمة ، مما من فتاة من اللاتي
عرضن عليها كانت لنديرة أو التى ستلد النذير .

وقد مدت برة بت عد انعى ابتها آمة إلى سودة ، فراحت الكاهنة
تتفرس في آمة وتنظر في محارها وتقلب الطر فيها ، وسيطر على المكان
سكون رهيب ، ولاح في وجه الكاهنة الاهتمام الشديد وكنمت أنعامها
برهة ، ثم راحت تشهق وترفر في صوت مسموع وقطبت جبينها ، وسرعان
ما انبسطت أساريرها وظهر عليها طمأنينة عجية لكأنما قد ألقى الحجر في
روعها وأضاء ظلام نفسها ، وتحركت شفتاها وإذا بالسورة كدهر آدان واعية
قالت :

— هذه هي التى ستلد النذير .

وسرى صوت سودة عذبا رقيقا لكأنما كان صوت القدر ، وصويت
العيون إلى آمنة فأطرقت حياء وإن كانت أهاريج الفرح تدوى في جيباتها .

مات يوسطينيانوس إمبراطور الروم وحنعه على العرش يوسطينوس الثاني الذى كان متروحا من صوفيا ابنة أخت تيودورا ممثلة الأوبرا الكوميديّة التي صارت إمبراطورة الدولة الرومانيّة ، والتي قامت بأهم دور في البلاط الروماني قبل أن تجود بأنفاسها .

ومحددت الحروب بين الكتلتين المتسارعتين على سيادة العالم : الكتلة الفارسيّة بقيادة كسرى أنو شروان والكتلة الرومانيّة بقيادة الإمبراطور يوسطينوس الثاني . وامتشق عرب الحيرة الحسام لقتال عرب الشام ، وسار قابوس على رأس جيشه لغزو المنذر بن الحارث بن جبلة ، ودارت رحى الحرب وانتصر المنذر بن الحارث ملك الغساسنة على قابوس ملك الحيرة فعاد قابوس يلحق جراحه ويتأهب لإعادة الكرة واستئناف القتال .

واشتعلت نار العداوة بين الشرق والعرب ، وانقسم العالم إلى معسكرين : دول تؤيد فارس ودول تؤيد الرومان . وقد كانت الحبشة وأبرهة الأشرم في اليمن ممن يؤيدون الروم فقد كانوا جميعا على دين واحد وإن اختلفوا في المذاهب بين قائلين بوحدة طبيعة المسيح وقائلين بالتثليث ولاهوت المسيح وناسوته .

ونزلت الكوارث على الرومان فقد انتصر الفرس على الروم نصرا مؤررا وانقضت قبيلة جديدة من البرابرة الأفار على الإمبراطوريّة الرومانيّة من الشمال وعرت قبيلة اللومبارد في الغرب من إيطاليا ، هذا أن الإمبراطوريّة الرومانيّة تترخ تحت ضربات أعدائها .

ورأى يوسطينوس أن يلحاً إلى حليفه أبرهة ليحارب الفرس ليخفف الضغط عنه ، فبعث إليه يتشمس مه أن يتحرك لمباواة فارس ليشعلها من تسديد الصربات انقائنة إلى الدولة الرومانية حامية الدين المسيحي ، ففكر أبرهة في تلك الدعوة فوجد أنه إن لم يتحرك فستفرغ فارس من حرب القسطنطينية ثم توجه جيوشها إلى اليمن لتقويض ملكة ، فرأى أن من الحكمة أن يتحرك وأن يؤيد يوسطينوس وأن يسير إليه حتى تتصل جيوش أبرهة النصرانية بجيوش نصارى الشام ونصارى القسطنطينية ، ومن ثم تنحى جميعا إلى المدائن لتطمئن قلب المحوس طمعة لا تقوم لفارس بعدها قائمة .

وراح أبرهة يدبر تنفيذ خطته : إنه سيرحف بحيشه على الحجاز ولن تستطيع قوة من قوى القبائل المتناثرة بأرض العرب أن تقف في وجهه سيستولى على مكة ثم يطلق منها إلى يثرب ثم يرحف إلى الشام لئلتقى جيوشه بجيوش المدر بن الحارث بن جبلة ، وفي أرض الشام تتجمع جيوش أبرهة وجيوش اندر وجيوش يوسطينوس ومها نحرخ جيوش الصارى حاملة الصليب لغزو فارس في عقر دارها .

واستراح أبرهة إلى تدبيره فسيحقق محمد الدنيا وعز الآخرة ، سيدفع عن مملكته شر الفرس وسيقوض كعبة العرب ويشرد دين الصارى في مكة كما نشره في اليمن .

كان أبرهة قد اتخذ صنعاء عاصمة للملكة في اليمن وبني فيها كيسة ضخمة رائعة ، وقد استذل أهل اليمن في بنائها وجعل يقل إليها في قصر بلقيس رحاما وأحجارا وأمتعة عظيمة ، وركب فيها صبيانا من ذهب وفضة ، وجعل فيها منابر من عاج وآيوس ، وجعل ارتفاعها عظيما جدا واتساعها باهرا . وقد كان أبرهة يحلم بأن تكون تلك الكيسة بوابة لدولة مسيحية كبرى في اليمن

تنداح حتى تغطي وحه الجزيرة العربية كلها .

وكان التفاؤل يملأ جوارح أبرهة فكتب إلى محاشي الحبشة : « إلى قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها لذلك كان قللك ، ولست تمته حتى أصرف إليها حج العرب » .

وكان أبرهة يطمع في أن تافس كنيسة كعبة العرب ، طمأنه يستطيع بالترهيب والترعيب أن يوجه حجاج العرب إلى صنعاء لتجني اليمن ما تحببه مكة من حجاج بيت الله . ولكن العرب أعرصوا عن كنيسه وانطلقوا إلى احرم من كل فبح عميق تهتز بتلييتهم جبال مكة .

وحقق أبرهة على عبدة الأوثان الدين أبوا أن يدخلوا في دينه ، ولجوا في العناد فأولوا كنيسه طهورهم وقوصوا حرمه الجميل الذي كان يصور له أنه يستطيع أن يحقق أغراضه السياسية عن طريق دخول العرب في المسيحية أواجبا . فلو أنهم قسوا البصرية لمد سيطرته على اأحجار دون قتال ، أما وإهم قد أبوا أن يعتنقوا دينه وظلوا على وثيتهم فلم يعد أمامه إلا أن يعلن الحرب على مكة مركز إشعاعهم الديني ، وأن يهدم الكعبة إرضاء لعروره وتحقيقا هدفه السياسي .

وجاء إلى صنعاء جواسيس أبرهة من أحباش وروم والتفوا بأبرهة وراحوا يقصون عليه أساء مكة ، فألقى إليهم سمعه وراح يفكر قليلا فيما سمع فأشرق وجهه بانتماسه عريضة ، فمكة ليس بها تحصينات وأنها لا قبل لهم به . إن هي إلا وثبة واحدة وتكون كعبتها أنقاضا تدروها الرياح .

كان أبرهة يدبر لتدمير مكة وكانت مكة آمنة ، الناس من كل بلاد العرب يطوفون بيتها العتيق والسلام يرفرف عليها ، فرعيمها عبد المطلب ينهر من استخدام القوة ويحرص على أن يحل جميع مشاكل مجتمعها بالطرق السلمية .

فإذا ما حدث بينه وبين أحد خصام التجأ إلى طريق التحكيم ، طريق السلام ، فهو رعيم قبيلة تجارية مصصحتها في إقرار السلام صماما لأمن قوافلها التي تجوب الآفاق شمالا وجنوبا وشرقا وغربا .

كانت كل أسرة من الأسر المكية في جوهرها حكومة قائمة بنفسها ، ولكنها وضعت مصالح مكة أولا وقبل كل شيء ، فتجمعت حول الحرم لأغراض اجتماعية واقتصادية ودينية وأسست قيادتها لسادات أسرها العريقة . وراحت جميع الأسر تعمل على أن تحمي حيرت الأرض إلى الوادي المقدس ، وعلى أن يسود الأمن الحرم ، فكان ذلك التجمع هو وحدة التنظيم السياسي الطبيعية للمجتمع المكي ، « أو لم يمكنهم حرما أما يحى إليه ثمرات كل شيء ررقا من لدنا ، ولكن أكثرهم لا يعلمون »

وكانت نيران الحرب مشتعلة في فارس وفي الحيرة وفي الشام وفي الدولة الرومانية . وكان أبرهة يجمع وقودها بينما كانت النيران على قمم حنا مكة لترشد قوافل التجارة إلى سبلها . وقد أرسل عبد المطلب قوافل قريش إلى فارس وإلى أبطاكية وإلى عرة وإلى مصر وإلى الحشة ، فقد كانت علاقته طيبة بكل ممالك الشرق الأوسط وجوب الحريرة العربية على الرغم من العداوات الناشئة بين تلك الدول .

كانت قوافل قريش إذا ما أهل رجب ترتحل إلى عدن والشحر فقيم في عدن أيام رمضان فتشتري التحارث وأنواع الطيب ، ومنها يرتحلون إلى سوق صنعاء وكانت تقوم في النصف من رمضان إلى آخره . وكان عبد المطلب يؤثر الخروج في هذه الرحلة فقد كان له أصدقاء من سادات اليمن .

وراحت قريش تتأهب لرحلة الشتاء فأناخ الرجال ألين من العير حارح الحرم ، واطبق العيد من أحباش وروم وفرش يقلون على أصواء المشاعل

السلع من مخازن ساداتهم إلى ظهور الإبل ، وقد غص المكان بشباب قریش وشيوخها ونسائها مما من رجل أو امرأة موسرة إلا وله نصيب في القافلة . وانتشر في المكان الصيافة يقرضون المحتاجين بالربا ، وجلس الكتّاب يعقدون العقود ويبرمون الموائيق ، وعلى مرمى حجر من قطار الإبل ضربت البغايا خيامهم وجاء طلاب اللذة بالخمير . وسال عرق الفقراء يروى الصحراء بيد كان أشراف قریش في أحضان الغانيات المتطلعات إلى ما في جيوبهم من ذهب وفضة .

وجلجلت ضحكات المجنون تشق المضاء ، ومزقت أنات المكذوبين سكون البیداء ، وامتزجت آهات اللذة بآهات التعب برعاء الإبل بضوضاء الصيافة والمضاربين وصياح النسوة اللاتي تترقق الحياة في وجوههن في الأسواق ويطل الخشع من أعينهن كلما رأين الأثرياء ، حتى مال النصب من الجميع فارتعوا على الأرض وأماسهم مبهورة يترققون طنوع الصباح .

وأشرقت الشمس واستأنف الرجال تجهيز القافلة ، بينما انسحب سمار الليل وندماء البغايا وحلفاء الكأس إلى دورهم ليستريحوا بالنهار حتى يستطيعوا أن يستنفوا إطفاء شهوة الحسد متسربلين بالظلام .

وتم تجهيز القافلة ، وجاء عبد المطلب يحيط به أبناءه العشرة رجالا أشداء كتائبيل الذهب ، ثم راح يودعهم حتى إذا ما أقبل عبد الله ضمه إلى صدره في حنان وقبه قبله أو دعها كل حبه ، ثم أذن بالرحيل ففصلت العير وانطلقت في قطار طويل لم تشهد مكة له مثيلا ، فقد بلغ عدد الإبل المئين وعدد الرجال ثلاثمائة .

وبلغت القافلة الشحر فتزلت بسوقها ، كانت الأشجار وارفة الظلال والأرض قد أخذت رخرعها وازيست ، فالخضرة تمتد إلى الآفاق والجداول

تدفع من الجبال كأنها شرايين الحياة وروعة الطبيعة تسر القلب ، فقد كانت الأمطار تغسل كل شيء وتبعث الحياة في الأرض الميتة ، ثم تحرى في أودية اليمن إلى مأرب وتفرش شواطئها بالرهور والثمار .

ونعم رجال قريش يطيب المقام ، كاسوا يشتغون بالبحار بالتحارة ويتسامرون بالليل مع رجال قضاة ، فقد كان ثلاثة أبطن من قضاة مُحْتَوِرِينَ بين الشجر وحصر موت ، بنو ناعب وبنو داهن ، وبنو رثام ، أقلهم عددا وأشجعهم لقاء .

وسقط الليل وجلس الرجال إلى الرجال ، ودار الحديث حول الكهان فقد كانت الكهانة والعرافة تستولى على ألباب الناس ، وقد كان الرجال يهرعون إلى الكهان أيما كانوا وعلى أي دين كانوا ، فقد كان هم شوق إلى الاطلاع على الغيب ، وكانوا يثقون في الكهان ثقة لا حد لها حتى إنهم كانوا يهرعون إليهم لفصل حصوماتهم ومناعاتهم ، أو إذا حرمهم أمر .

وراح سيد من سادات قضاة يتحدث فقال في رهو :

— كانت لبي رثام عحور تسمى خويلة ، وكانت لها أمة من مولدات العرب تسمى ربراء ، وكان يدخل على خويلة أربعون رجلا كلهم لها مُحْرَم : بنو إخوة وبنو أخوات ، وكانت خويلة عقيما وكانت بنو ناعب وبنو داهن متظاهرين على بنى رثام ، فاجتمع بنو رثام ذات يوم في عُرس لهم وهم سبعون رجلا كلهم شجاع بئيس ، فطعموا وأقبلوا على شرايهم ، وكانت زبراء كاهنة فقالت لخويلة :

— انطلقى بنا إلى قومك أنذرهم .

فأقبلت خويلة تتوكأ على زبراء ، فلما أبصرها القوم قاموا إجلالا لها

فقالت :

— يا ثمر الأكباد ، وأباد الأولاد ، وشجا الحساد هذه زبراء تخبركم عن
أبناء ، قبل محसार الطلام ، بالمؤبد (الداهية) الشعاء ، فاستمعوا ما
تقول !

قالوا :

— ما تقولين يا زبراء ؟

ف قالت :

— والليل الغاسق ، والنوح (الهواء بين اسماء والأرض) الخافق ،
والصباح الشارق ، والنجم الطارف ، والمزن الوادق ، إن شجر الوادى ليأدو
تحتلا (خداعا) ويحرق أنيابها عصلا ، وإن صحر الطود ليندر ثكلا ، لا
تجدون عنه معلا (مسجيا) .

موافقت قوما سكارى فقالوا :

— ربح حجوج (سريعة المِر) ، بعيد ما بين المروج ، أتت زبراء بالأبلق
النتوج (ما لا يمكن) .

ف قالت زبراء :

— مهلا يا بى الأعرة ! والله إني لأشم ذفر الرجال تحت الحديد !

فقال لها فتى منهم :

— يا حذاق ، والله لا تشمين إلا ذفر (تن) إبطيث !

فانصرفت عنهم فارتاب قوم من دوى أساهم ، فانصرف منهم أربعون
وبقى ثلاثون فرقدوا في مشرهم ، وطرقتهم بو داهن ، وبنو ناعب فقتلوهم
أجمعين .

كان عبد المطلب يصفى إلى حديث الرجال في انتباه ثم سرعان ما عفل عنه
وراح يفكر في نفسه . إنه في شوق إلى الذهاب إلى كاهن من الكهان أو حبر

من الأحبار ، فهو يحس إحساسا غامضا أنه مقبل على أمر دى شأن ، فراح يسأل من حوله من سادات القوم عن كاهن شهير ، فدلوه على حبر في أرض اليمن .

وانتقلت قافلة قريش إلى عدن على ساحل بحر الهند جنوبى باب المندب بميله إلى الشرق ، وهو مورد حط وقلاع مراكز الهند ومصر ، فكانت سوقا رائجة لبضائع الهندية والأقمشة المصرية وألقوا أسماعهم إلى أحاديث الأنوام الدين عصت بهم السوق ، حتى إذا ما أقبل رمضان شدوا الرحال إلى صنعاء وهم يحملون بالخضرة والماء ، فقد كانت عدن جرداء يجب إليها الماء على ظهور الإبل من آفاق بعيدة .

كانت صنعاء من أحسن البلاد مساكن وأطيبها وأصحبها هواء ، فانطلق رجال قريش يشاهدون ظفار قصر لملك أبرهة وقصر غمدان وهو قصر عجيب من عشرين طبقة بعشرين سقفا بين كل سقفين عشرين دراعا ، فيه مائة مسكن ، وأعلى غرفه ممرد بقوارير ، وقد زين بتهاويل وزخارف وقف أمامها أهل مكة فاغرى الأقواء من الدهشة ، أما عبد المطلب فقد انطلق إلى الحبر الذى دل عليه ليخبره بأنباء الغيب ، ويرى من ذلك التشوف الذى استبد به .

ودخل عبد المطلب على الحبر وكان يقرأ فى التوراة ، فالتقى عليه التحية ثم جس فقال له الحبر :

— ممن الرجل ؟

— من قريش .

— من أبيهم ؟

— من بى هاشم .

— أتأذن لى أن أنظر فى بعضك ؟

— نعم ، ما لم يكن عورة .

ففتح الخبر إحدى منحرى عبد المطلب فنظر فيها ثم نظر فى الأخرى ، فقال :

— أنا أشهد أن فى إحدى يديك ملكا ، وفى الأخرى نبوة .

وصمت الرجل برهة ثم قال :

— إنما نجد ذلك فى بى رهرة ، فكيف ذلك ؟

فقال عبد المطلب وهو شارد :

— لا أدرى .

وحرج عبد المطلب من عبد الخبر وهو يفكر فيما سمع ، أن فى إحدى يديه ملك وفى الأخرى نبوة ، إن ذلك فى بى رهرة . ويذكر عبد المطلب ما شاع فى مكة عن سودة كاهنة قریش ، إنها قالت لبنى رهرة ذات يوم : فيكم نذيرة أو تلد نذيرا فاعرصوا على بناتكم ، فعرصت الأمهات عليها بناتهن فقالت فى كل واحدة منهن قولا ، حتى عرضت عليها آمة بنت وهب فقالت : هذه النذيرة أو تلد نذيرا له شأن وبرهان .

ووقع فى ضمير عبد المطلب أنها آمة ، وفى تلك اللحظة ملأت صورة عبد الله أقطار نفسه فهاصت جوارحه حنانا ، وأحس أمنا غامرا ، وسرى فى جوفه همس حبيب يقول : إنهما آمنة وعبد الله .

وأشرقت حباته بالنور ، ورفقت على شفثيه بسمة رقيقة حاملة .

قفلت قافلة قريش بالرجوع إلى مكة وقد أسرى بهم الحادى وأمعن في السير ، وحاصم الكرى العيون ، يطوون الغلاء من الشوق للماء الأحبة على جاح المحبة ، فأهذه الركب تهوى إلى البيت العتيق ، وإلى فلذات الأكباد ، وإلى الأهل والحلان ، وإلى الأرض الطيبة والوطن الحبيب .

وكان عبد المطلب مشغول القلب مشغول البال ، فقد ترك مؤاده هناك حيث الأحبة والصحاب ، وملأ رأسه حديث الخبر وبوعته ففى إحدى يديه ملث وفي الأخرى سوة ، وإن ذلك في بى رهرة . ترى أيجتمع الملك والنبوه في رجل واحد ، أم أن الملك في رجل والسوة في آخر ؟

واستمر عبد المطلب يجرى وراء أفكاره يقلب الأمر ويبدى ويعيد ، ويتذكر كل ما تنبأ به المتنبون ، فسودة عمة وهب كاهنة قريش قد تنبأت بأن آمة نذيرة أو تند نذيرا ، فإن زوج عبد الله بآمة فقد تتحقق بشارة حبر اليمن وتقى النبوة وهو يعرف السوة حق المعرفة ، فيا طالما أصعنى إلى قصص الأنبياء يرويه اليهود أيام كان علما في يثرب في كنف أمه سلمى بنت عمرو الخزرجية ، أما الملك فإنه لا يدرى كيف يقوم في مكة ، وما عرف المجتمع الذى تكون حول زمزم الملكية يوما ، فسادات مكة وشيوخها هم مصدر السلطات فيها ، إلا أنه قد عزم على أن يروح ابه عبد الله في بنى رهرة ، أن يزوجه آمنة بنت وهب وأن يتزوج هو نفسه فيهم ، فمن يدرى فقد تتحقق نبوة حبر اليمن ويأتى الملك والنبوة .

وترادفت الأشواق واصططرم الحشا بالحسين والقافلة تسرى في الكون
العريض ، وتتابع السل والنهار حتى بدت مكة للعيون فإذا بثراها كأنه النهر ،
وإذا بالأرواح تستنشق أطيب عير ، ويد بدموع الرقة تليل العوس ، وراح
كل راكب بحث راحلته على لإسراع ولو طأوع نفسه ليرل عن راحته ،
وانطلق يعدو وهو ينثم كل الوجود .

وبدا البيت العتيق وركناه مخفقت اقنوب وفاصت الأشواق حنى سالت
الدموع من عمام الحنون ، وأناحت القافلة حارح الحرم فهرع أهل مكة
يستفلون العائدين بالأحضان والقبلات والعبرات ووجيب الأفتدة المتبهمة
إلى البقاء والعاق ، لإطفاء نار الشوق التي تنلظى في الحوايح والمهيج
والنفوس .

وخف أبناء عبد المطلب العشرة كأهم طماء تتوالت إلى أبيهم الحليل ،
فراح يصممهم إلى صدره وهو دافع العين يكاد يدوب رقة ، حتى إذا ما تقدم
عبد الله وارتمى بين دراعى أبيه احتواه عبد المطلب وهو يستشعر بمس المشاعر
انفياصة الرقيقة الباعمة التي استشعرها يعقوب يوم أن ضم إلى قلبه بعد طول
غياب يوسف الحبيب .

ولم ينس عبد المطلب في عمره البقاء وفورة العواطف إليه العباس ، فقد
تركه في حجر أمه يوم أن شد الرحال إلى اليمن وكان قد أشرف على الثانية من
عمره . إنه ليدكر تلك اللحظة التي حمله فيها ليقبّه قبل الرحيل ، وإنه ليمكر
كيف تعبق بعنقه وأنى أن يعود إلى أمه وظل متشبهاً به إلى أن انتزعته من أحضانه
وهو يبكي ، ولم يكف عن العويل إلا بعد أن أحد يداعبه ويلثمه ها وهناك
ويعدّه بالتمر والزبيب .

وراح رجال القافلة يطوفون بالكعبة طواف القدوم . كانت الشمس

ترسل أشعتها الحامية فيتمصّد العرق من الوجوه ، ولكن الطائمين كانوا يحسّون كأهم بالجنان يطوفون ، فقد كانت نفوسهم مطمئنة لا هم ولا قلق ولا خوف ولا صياح في الكرن العريض ، بل كانوا في حرم الله آمين . ولولا تلك الأصنام التي تكدست في جوف الكعبة وصبيت حولها لتمتحت عليهم بركات من السماء ولمشت جوانحهم بالبور .

وانطلق رجال القافلة إلى دورهم يحمل كل منهم ما جاء به لأهله من هدايا ، وانطلق عبد المطلب إلى داره وحوله أبأؤه وعبيده ورجاله يحملون من الخيرات الشيء الكثير ، عرف بعضها طريقها إلى محزون عبد المطلب حتى تحصل إلى أصحابها ، واتخذ بعضها طريقه إلى دار زعيم قريش لتقسم بين سائه وأولاده وإمائه وعبيده ، ولتصدق بعضها على المحتاحين من المكين .

وملاً الحبور دور قريش فقد كانت رحلة الشتاء موفقة ، وجاء النبي فاساب الشباب إلى مجالس اللهو والسمر والمخوض ، ودخل عبد المطلب ليستريح ولكنه لم تعمض له عين فقد راح يمكر في نبوة الخبر اليهودي ، واستوت النبوة عليه فدم يطف به النوم . فوطن النفس على أن يطلق في الصباح إلى دور بني زهرة . وأن يحطب آمة بنت وهب لابنه عبد الله وهالة بنت وهيب لنفسه .

وتفسّ الصبح ومد فراش عبد المطلب في ظل الكعبة ، وجاء بعض من كانت لهم تجارة في القافلة ليسألوه عن أموالهم ولكنهم لم يجدوه ، فطلبوا واقعين لا يجلس أحد منهم على فراشه احتراماً له وإجلالاً لقدرة . ثم جاء عبد المطلب ومن حوله أبأؤه العشرة كأهم أسد عاب فحياه الجميع في توقير .

وجلس عبد المطلب على فراشه وحده وجنس أبأؤه على مقربة منه ، وجاء أصحاب الحاجات يسألونه حاجاتهم فرد عن كل منهم ماله ، حتى إذا ما

انصرفوا جميعا حاثت منه التفاتة إلى بئر زمزم فتذكر حلمه الذى أقض مصححه
في أمسه بعد أن مشى الوسن إلى عييه ، فقد أمر في اليوم بالوفاء بديره ، قين
له : « قرب أحد أولادك الذى نذرت » .

وراح يتفرس في وجوه مولده حتى إذا ما التقت عيائه بعيسى عبد الله حقق
قلبه حانا ، إنه كان يفكر بالأمس في ترويجه بآمنة بست وهب ، المدير ، أو
التي ستلد النذير .

وها هو ذا اليوم لا يدري ماذا يحىء القدر لآبائه الحبيب ، ولم يشأ أن
يسترسل في عواطفه فقال :

— يا بني ، كس بدرت بدرا علمتموه قبل اليوم ، فما تقولون ؟

وساد القلق برهة ثم قالوا :

— الأمر لك وإليك ونحن بين يديك .

وأطرق عبد المطب برهة فقالوا له :

— كيف نصنع ؟

— ليأخذ كل رجل منكم قدحا ثم يكتب فيه اسمه ، ثم امشوا .

فاطلق أولاده إلى هبل وكان في جوف الكمية ، ورح كل واحد منهم
يكتب اسمه على سهم ثم عادوا إليه وأتوه بالقداح ، فأحدها وهب وذهب إلى
هبل وأولاده من حوله .

ودعا بالأمين الذى يضرب بالقداح فدفع إليه قداحهم وقال .

— حرك ولا تعجل

ووضعت السهام في كيس ومد الأمين يده ليخرج سهم ، فحسبت
الأنفاس وحمقت القلوب وزاعت الأبصار . وراح عبد الله وأبو طالب
والرير يشادلون الطرات فقد كانوا أشقاء ، وكانت أمهم فاطمة بست عمرو

ابن عائد بن عبد بن عمران بن محزوم بن يقظة بن مرة بن كعب .
 وخرج سهم عبد الله فأحسن أبو طالب رأسه يدور ، إنه يحب عبد الله من
 كل قلبه ولا يطيق أن يرى الشاب الوسيم يذبح أمام عينيه ، ومادت الأرض
 تحت قدميه إلا أنه راح يجمع شتات نفسه حتى لا يهار .

وأخذ عبد المطلب الشفرة ثم أقبل بعبد الله إلى إساف ونائلة ليذبحه وهو
 وانه حزين ، فقد كان عبد الله أحب ولده إليه ، وكان عبد المطلب يرى أن
 السهم لو كان قد أخطأه فقد أبقى .

وانتشر الخبر في أرجاء مكة انتشار الريح ، فقامت قريش من نديتها تهرول
 إلى حيث انطلق عبد المطلب وعبد الله ، وجاء بنو محزوم أخوال عبد الله وقد
 ارتسم القزع في وجوههم فقد كان عبد الله حبيبا إلى قلوبهم جميعا .

وأقى بعبد الله وأضجعه ووضع الشفرة على عنقه ليذبحه وعبد الله مستسلم
 كما استسلم إسماعيل لأمر الله من قبل . وهم يذبحه فوثب إليه أبو طالب
 وأمسك يد عبد المطلب عن أخيه وقال رجال من قريش :

— ماذا تريد يا عبد المطلب ؟

— أذبحه .

فقالت له قريش وبوه :

— والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه . لكن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي

بابه حتى يذبحه ، فما بقاء اناس على هذا !

ووثب بنو محزوم إلى عبد المطلب فقالوا :

— يا أبا الحارث إنا لا نسلم ابن أختنا للذبح ، فادبح من شئت من وندك

غيره .

— إني نذرت نذرا وقد خرج القدح ولا بد من دبحه .

فقال بنو محزوم .

— كلاً لا يكون ذلك أبداً وفينا دور روح .

وقال المعيرة بن عبد الله بن عمرو بن محزوم :

— والله لا تدبجه أبداً حتى تدبر فيه ، فإن كان هذاؤه بأموال فديناه

— إنا لمعديه بجميع أموالنا من طارف وتالد .

— والله ما أحسنت عشرة أمه .

— يا أبا الحارث إن هذا الذي عزمت عليه لعظيم ، وإنك إن دبحت ابنتك

لم تنهت بالعيش من بعده . ولكن لا عيبك ، أنت على رأس أمرك تثبت حتى

نصير معك إلى كاهنة بني سعد إن أمرتك بدبجه دبخته ، وإن أمرتك بأمر لك

فيه فرح قبته .

وتعلقت العيون بشفتي عبد المطلب فلما قال « لكم ذلك » رمر الجميع

في راحة ، فقد كان دون ما يبيع عبد المطلب خطوط تصطرب .

و ينتشر الخبر في مكة فأطالت النسوة يطرن إلى الفتى الذي بدر أبوه دبجه

في عطف وإشفاق ، إنه عبد الله ابن رعيم قريش وما أكثر ما وقعت عيونهن

عليه من قبل ، ولكنه بدا في تلك اللحظة مسربلاً بجلال وجمال ، بحلال

اللحظة الرهيبة التي يعيشها وجمال الصبر على ما رل به من خطوط ، فوقع

في قلب بعض النسوة ما وقع في قلوب النسوة اللاتي دعتن امرأة العرير لما

سمعت بمكرهن وقلن :

— حاش لله ما هذا بشر إن هذا إلا ملك كريم .

و طالت رقيقة يستوفى النظر إلى وجه الفتى الجميل ، إنها لترى في وجهه

شيئاً لا ترى مثله في وجه شباب قريش . إنه جميل وما أكثر الجمال في قريش ،

ولكن جماله نادر يشف عن جمال الروح . إن كل جارحة من حوارجها تهفو

إليه ، وإنها لتتمنى من كل قلبها أن يكون لها روحا هي تحس في أعماقها أن سيكون لذلك الفتى شأن ثى شأن .

وشردت رقيقة ورن في جوفها صوت أحياها ورقة بن نوفل يقول : « إن لهذه الأمة نبيا وقد دنا يوم مولده » فإن كان ما يرعم ورقة حقا فليس يكون أبوه غير ذلك الفتى الذى يتأهب أهله للانطلاق به إلى خير لترى كاهنتها رأيها فيه ، فريقة صاحبة فراسة وما حانتها فراستها من قبل .

وتأهب عبد المطلب وبنوه وبنو محزوم أخوال عبد الله للانطلاق إلى المدينة ، فقد كانوا يرون الكهانة حقا ، ثم شدوا الرحال إلى كاهنة بى سعد وحلفوا وراءهم قنوبا واجمة ، وقد كانت أكثر القنوب اضطرابا قلب أمه فاطمة وقلب آمنة بنت وهب فقد كان عبد الله صديق الصبا قبل أن يبلغ مبلغ الرحال وقبل أن يصرب على آمنة الحجاب ، وقب رقيقة بنت نوفل التى كانت تحلم بالفتى الهاشمى فى يقظتها وفى ميامها .

وبلع الركب المدينة ، وسأل عبد المطلب عن كاهنة بى سعد فقبل له إنها بخير ، فركبوا حتى جاءوها ، فراح عبد المطلب يقص عليها نسرته وما أراد يابه فقالت لهم :

— ارجعوا عسى اليوم حتى يأتى تابعى فأسأله .

فرجعوا من عندها ، فلما خرجوا عنها لم يذهب عبد المطلب إلى أحواله بنى النجار ، ولم ينطلق إلى مراتع صباه ، ولم يذهب إلى أسواق المدينة كما اعتاد أن يذهب أيام أن كان فى حضن أمه سسمى بنت عمرو ، فقد كان مشغول الدال محصر ابه الحبيب ، فقام يدعو الله ويبتل إليه أن يوفقه إلى ما يرضاه . رأى إبراهيم عليه السلام فى منامه أن يدبح ابه الوحيد فامتلأ إلى أمر الله ، فأبراهيم خليل الرحمن ، وقد برهن بذلك الامثال على أن حبه لله أشد من حبه (مولد الرسول)

لوحيدته وفلده كبده ، فقد الله الابن الحبيب بديح عظيم . ونذر عبد المطلب ندرا أن يديح واحدا من ولده إذا بلغ سوه عشرة ، وقد أراد عبد المطلب أن يوق بندره فسمعه أحوال عبد الله وسوه ، وأشاروا عليه أن يستشير كاهنة من كواهم . ترى لو كان إيمان عبد المطلب كإيمان أبيه إبراهيم أما كانت السماء تقضى ابنه بديح عظيم ؟ إن إبراهيم كان أمة قاتلا لله حيفا ولم يث من المشركين . وجاء الصالح فعدا عبد المطلب وأبناؤه وأحوال عبد الله من بسى محزوم إلى كاهنة بنى سعد فقالت لهم :

— قد جاءنى الخبر ؟ كم الدية فيكم ؟

قالوا :

— عشر من الإبل .

قالت :

— فارحموا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشرا من الإبل ، ثم اضربوا عليها وعيه بالقداح ، فإذا خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرصى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فاحمروها عنه فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم .

فخرجوا حتى جاءوا مكة ، فلما أجمعوا على ذلك من الأمر قام عبد المطلب عبد هبل يدعو الله ، ثم قربوا عبد الله وعشرا من الإبل ، ثم ضربوا فحرح القدح على عبد الله ، فرادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل عشرين ، وقام عبد المطلب يدعو الله أحر دعاء ، ثم ضربوا فحرج القدح على عبد الله ، فرادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل ثلاثين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ثم ضربوا فحرج القدح على عبد الله ، فرادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل أربعين .

وقام عبد المطلب يدعو الله وراح أبو طالب يرنو إلى أخيه في قلق وحب ، وساد المكان سكوت رهيب ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فسرت مهمة فزادوا عشرا من الإبل فبلعت الإبل خمسين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشرا من الإبل فبلعت الإبل ستين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشرا من الإبل فبلعت الإبل ثمانين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشرا من الإبل فبلعت الإبل تسعين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله .

وراغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، ولاح الملح في وجه أبي طالب والتفت ناحية أخيه الربيع فألماه شاحبا لكأما كان يعاني سكرات الموت ، واتجهت الأبصار إلى عبد الله فإذا به صابر وإن عانت صمحة وجهه الجميل بسحابة من الحزن ، فقد أغمه أن ربه لم يرض عن فدائه .

وزادوا عشرا من الإبل فبلغت مائة ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل فارتجت جibat الكعبة بصيحات الفرح ، قالت قريش ومن حضر :

— قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب .

وبلغ التهليل مسامع الواقفين خارج الكعبة ، وكانت بينهم رقيقة بست بومل فد جاءت لترى مصير عبد الله الذي شتمها حبا ، فقالت في لهفة للواقفين عند باب الكعبة :

— ماذا جرى ؟

— محاب عبد الله ورضا الإله .

وأحسنت راحة وإن ظل قلبها يحرق كجراح حماسة في صدرها ، وأشرأت بعينها لترى متى قریش الذي أصبح حديث مكة وقلة الأضفار ليستريح أعزاد الواحف الوطن ، إلا أن حروح عبد الله قد تأخر فعادت تقول في قلق :

— ماذا هناك ؟

قال عبد المطيب

— لا والله حتى أضرب عينا ثلاث مرات .

وعاد الخوف مرة أخرى ليستبد بها ، ولفها فق ، وعجت لذلك الشيخ الذي يصير على أن يضرب القدح على ابنه ثلاثا بعد أن أعلن الإله رصاه ، ليتة يخرج الساعة ويدبح لإبل امائة ويرجج لقلوب المصطرية ولا يمد في العذاب مدا .

وصرب لكاهن على عبد الله والإبل وقام عبد المطيب يدعو الله . وذهب أبو طالب إلى أخيه وقد لف ذراعه حوله كأنما سمع عه عادات القدر ، وحسب الأنفاس ، وأخرج الكاهن السهم ، وما إن وقعت عليه العيون حتى انطلقت أصوات الفرح من الحاجر :

— خرج القدح على الإبل .

ثم عاد الكاهن يضرب الثانية على الإبل وعبد الله ، وعبد المطيب قائم يدعو الله ويأشده وقد عمرت الدموع روحه ، فالذبيح أحب أبائه إليه وإنه ليستل إلى الله أن يكون رصاه بالدية حقا ، فقد كان حبه لإنه كحبه لأبائه أو أشد . وحرحت يد الكاهن بالقدح وارتجت حسات الكعبة بأصوات المرح :

— خرج القدح على الإبل .

وطمرت الدموع في مآقي القوم فقد بلغ الأفعال شدة ، إنها الثالثة عـب
رصى الإله نحا عند الله ، وحررت السمة في الدية عمائة من الإبل ، وتاهب
الكاهن ليصرب بالقدح فاسهرت الأنفاس وراعت الأبصار وبلغت القلوب
أخباره ، وطل عبد المطلب قائما يدعو الله ويبتهل إليه ويباشده في حرارة حتى
إن أفتدة الناس كادت تمطر أسى على الشيخ الحليل الذي يكاد يدوب في
حرارة دعواته .

ووقفت رقيقة بست نوفل وقد أسدت قلبها بيدها لكأما تمنعه من أن يمر من
بين حسانتها ، وقد حققتها عبراتها وعامت مقلتها بعمام الحفوف ، فرأت
مشاهد مكة تتراقص أمام عيبيها ، وحيل إليها أن نور الوجود يوشك أن
يطمئئ

وراحب العيون كلها تنع يد الكاهن وهو يمدها في الكيس ويخرج
السهم ، وإذا بأصوات الشرى تدوى في حوف الكعبة .

— حرح القدح على الإبل . حرح القدح على الإبل .
وصم أبو طالب أحياه عند الله إلى صدره ودموعه تحرى على حديه ، وقلبه
يدوى بين حبيبه ، ومشاعره العوارة تنتشر بين الصنوع ولا تحبها متبسا إلا
في قبلات الفرح التي كانت تغمر وجهه الدنيح بلا حساب .

وأقبل الربير وأبو لهب والجارث يصمون عبد الله إلى قنوسهم ، وهرع عبد
المطلب إلى ولده الحبيب ودموعه تملل لحينه واحتواه بين حبيه لكأما يحوى
أنفس كمر في الوحد . ثم قال في صوت متهدح يقطر رقة وبشرا وابعالا
— اليوم ولدت لي .

وراحت رقيقة بست نوفل تراحم الناس وهي داهلة عن كل ما حولها إلا
مشاعرها التي كانت تدفعها لرؤية الحبيب الذي أصبح أسطورة قرين .

لعل نفسها المتشوق لعبد الله يهدأ ، ولعل نفسها تستقر وتعرف السلام ،
ولكنها عحرت عن أن تشق لها طريقا في الجموع التي كانت تتدافع بالمناكب
تصل إلى حيث كان بنو هاشم وبو محزوم والديبع .

ومرت لحظات وعبد الله قائم بين الجموع وقد صار مستودعا لأحاسيس
هواره عاية الفورة ، فراحته كنوز قلبه تمده بمشاعر الفرح والشوة والنصر
حتى فاصت جوائحه بعواطفه الرقيقة فحرت من عيبه الدموع ، ثم أحس
اساس جميعا أن الشكر قد وحب لله فحروا سحدا وبكيا .

انفرج باب الكعبة عن عبد المطلب وعبد الله وإخوته وسادات بني هاشم وبني محزوم ، فصوبت العيون إلى عبد الله أحسن قتي يرى في قريش وأجملهم وقد زاده الفداء سحرا على سحره .

كان عبد الله في الثامنة عشرة من عمره ، وقد خرج من باب الكعبة يتألق في محبه فراحت فتيات قريش من بني محزوم وعبد شمس وعبد مناف يأكلنه بأعينهن ، وقد استولت عليهن جميعا أمنية واحدة : أن يصبح عبد الله زرحا هن ، وأن يأتي ذلك اليوم السعيد الذي يعلق فيه عليه وعليهن الأبواب . وراحت رقيقة بنت نوفل تخوض في الجموع التي تكدست في الحرم فقد عرمت على أن تصل إلى عبد الله مهما فاست من مشقة ، فقؤاده يهوى إليه ، وكل جارية من جوارحها تشتهي ، وهي لا تستطيع قمعا لعواطفها المشوبة التي تستبد بها ، فراحت تتقدم صوب من حلق بحبه العواد ، وقد استحالت كل حواسها إلى عيون ترصد الفتى الهاشمي وقلوب تضطرب بالهوى والصبابة والهام .

وجيء عمائة من أطيب إبل عبد المطلب ، وجاء صبيان مكة وفقراؤها في أثرها . فماج الناس في الحرم موجا شديدا ، واشتد الزحام حتى إن رقيقة بنت نوفل جرفت بعيدا عن عبد الله بعد أن صارت مه قاب حطوتين أو أدنى ، ولم يدب اليأس في قلبها بل راحت تجاهد تدنو منه مرة أخرى فقد وقر في نفسها أنها تسعى لخير الدني وعز الآخرة .

وراحت الإبل تمحر بين إساف ونائلة ، وزراح فقراء مكة ينقصون عليها
انقباض الصقور وقد رقت على شفتي عبد المطلب ابتسامة رضا ، وسرعان
ما تذكر وهو في قمة بشوته ببوءة الحر اليئس وبوءة سودة عمه وهب ، فرأى
أن يتوح أفراده بترويح عبد الله آمنة يست وهب ، واستولت عليه الفكرة فراح
يتلفت يبحث بعينه عن سيد بني رهرة فإذا به قريب منه ، فذهب إليه وراح
يباحيه فأشرق وجه سيد قريش وسيد بني زهرة بالسرور والبهجة .

ومجحت رقيقة في أن تصل إلى حيث وقف عبد الله فتبلى وجهها بالفرح
وإن كانت أنفاسها مهورة وقفها يدوى دويًا بين صبوها ، ومالت برأسها
نحو اغتبي المنتصب بين قومه كشمال الذهب وقالت في صوت مصطرب :
— أين تذهب يا عبد الله ؟

— مع أبي .

فجمعت نفسها التي ذهبت شعاعًا وقالت في وجد :

— لك مثل الإبل التي محرت علك وتعال معي .

فقال عبد الله وقد أشاح بوجهه عنها :

— أنا مع أبي لا أستطيع فراقه .

كانت رقيقة من أجمل النساء وكانت تطمع في عبد الله ، فقالت من شعمت
به حيا في حرم الكعبة دور أن تغلق الأبواب : هبت لك ، فأعرض عنها لأن
الكریم يحمي عرضه ، ولو كان مؤمنا لقال لها ما قال يوسف لامرأة العير :
« معاد الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يلدح الظالمون »

وأفاقت رقيقة على طعنة لإعراس التي سدها حبيب الروح إلى قلبها
الوهن فأحست كبرياءها تدمي ، وحققت على نفسها لذلك الضعف الذي
استبد بها وجعلها تعرض نفسها رحيصة على قتي قريش .

رحيصة ١٩ إنها عرضت عليه مائة من الإبل ، ليتة تقبل ، فإن فيه شيئا عامصا مثيرا يشدها إليه ، إن فيه سحرا تتفتح له الروح قل أن يحس إليه الحسد ، إن فيه إشراقا لم تر مثله في شباب قريش ، إن فيه سرا لا تعرف حقيقة كنهه وإن كانت تحس خطره كأنما قد ألهمته .

وجاء رسول وهب إلى دور بني رهرة بالبشرى وقال إن رعيم قريش عبد المطلب بن هاشم قادم هو وابنه الدايح ليروج عبد الله آمة بت وهب ، وانتشر السأ بين نساء بني رهرة ففاضت القلوب بالفرح ، وحمت برة بنت عبد العري إلى حيث كانت ابنتها آمة وقالت ها وقد تهلت بالسرور وفؤادها يرقص طربا بين جنبيها :

— إن عبد المطلب قادم ليروجك عبد الله .

وأطرقت آمة حياء وإد أشرقت أساريرها ، وإد حق قلبها أعذب خفقات في الوجود ، حفقات تحقيق أعظم حلم راود فتاة ، فقد كان عبد الله أملها مد كان يلهمو مع العلماء في ربوع مكة وعلى روايبها ، وكانت ترقب في همة ذلك اليوم السعيد الذي يقل فيه عبد الله الكوكب المير بين إخوانه ليصحبها لنفسه زوجة .

كانت أعر أميات حياتها أن يأتي البشر بأروع نأ يهجو إليه فؤادها ، وها هي دى أمها الحبيبة تحمل إليها البشرى متهلة الأسارير ، تستشعر آمة أن الوجود كنه يحقق بالفرح ، وأن جبال مكة ووديانها تترجم بأهاريج البهجة ، وأن إشراقة ساحرة قد أشرقت على الكون فعمرت بهور لطيف يملأ النفوس أم ، إنها رقت حتى أحسست كأنما تسبح في فضاء هواؤه الشوة والخور ، ولكها راحت تجاهد لتداری حقيقة مشاعرها غير أنها عجزت عن ذلك ، فقد كان وجهها مرآة صادقة للمشاعر الباعمة المارة بين الصلوع

جاءت جدتها قيلة بسبب أبنى كيشة أم وهب تسعى وقد هرما البأ ، مما كانت تحب في قريش فتي كمشة لفتاة ببي رهرة مثل عبد الله ، فراحته تقول في صوت متهدج خفته عبرات الفرح :

— مبارك . مبارك يا أمنة .

وارتمت الفتاة في أحضان جدتها فاحتضنتها رقلها يتدفق بالحنان ، وعابا عن الوجود خطة مرعة بأبل ما في البشرية من عواطف . وراحت برة تروى إلى تعاقب العزيزتين فظمرت الدموع من مآقيا وقد هرمتا شدة اضعافها هرا .

كان سادات قريش يتشاورون قبل عقد رواح فتي من قتيانهم في دار البدوة ، فقد كانت المصاهرة أمرا يهم القبيلة كلها ، فالفتى القرشي الشريف سيربط قبيلته بقيلة أخرى ، فلا بد أن يكون هناك تكافؤ بين الزوجين وبين الأسرتين وبين انقبيلتين . وقد كانت أمة بسبب وهب أفضل فتاة في قريش نسا وموصعا ، وكان عبد الله فتي قريش الذي ينسب سادات قريش وأشرافها أن يزوجه فتيانهم ، فلم يكن هالك من سبب يدعو إلى تشاور أهل الرأي في دار البدوة في أمر ذلك الرواح الذي بدا كأنما كل ملابسات الحياة قد مهدت له ، ولكأنه كان أمرا مقضيا .

ودخل وهب على ابنته وقد تألفت عيانه بالمرح وقال لها :

— إن شيخ بنى هاشم قد جاء يطلبك زوجة لفتاة عبد الله .

وأست أمة خفيها على عيبيها فقد حملت من أن يقرأ أبوها سيد بنى رهرة المرحطة الطاغية التي ملأت حواشيها ، وم يكن وهب يتصر بها ردا فموجات الفرح على الوجوه وفي العيون وعلى الشفاه وفي حركات أمة وروحته وابنته وسكناتهن أبلغ تعبير عن الترحيب بهذه المصاهرة .

واطلق وهب حفيها لا تكاد قدماه تلمسان الأرض من مرحته إلى حيث

جس الرجال ، وحاءت بنات عبد المطلب ونسوة بنى هاشم وقد أشرقت وجوههن بالسرور ، بعد أن كس قياما هناك عبد الكعبة يلزمهن الدموع على عبد الله الذى كان كاهن هبل يضرب عليه بالقداح ينتظرن أمر الله فيه .

سعادة عامرة وفرحة مجحة وسرور وحبور لف دار وهب وعمر من فيها من شيوخ وعجائز ورجال ونسوة وفتيان وفتيات ، وفاض حتى ملأ دور مكة وسكاتها . ولم يحس بالحسرة والألم إلا الفتيات اللاتي كن يطمنن في رواج عبد الله ، فقد كانت العيرة تنهش أفئدتهم بعد أن تحطمت أحلامهن .

واجتمع رجال بنى هاشم وسادات بنى مخزوم أخوال عبد الله وشيوخ بنى رهرة ، وجلس عبد الله متسريلا بالحمال والحلال بين أخويه الربير وأبى طالب ومن حوله باقى إخوته . وقد كان عبد الله على الرغم من حداثة سنة يحس خطره فقد هداه الله بمائة من الإبل كما فدى جده إسماعيل بذبح عظيم ، وقد أعرض عنن قالت له هيت لك كما أعرض يوسف عن امرأة العرير .

كان كل سادات قريش ومكة في دار وهب سيد بنى زهرة يحتفلون بذلك الرباط المقدس الذى سيربط بين أفضل حيين في العرب بنى هاشم وزهرة ، ولو كان هناك فسحة من الوقت لبعث عبد المطلب يدعو أحواله من بنى النجار من يثرب ليشتروا معه في أفراحه ، فقد كانت صلة المودة وثيقة بين بنى هاشم وبنى النجار إذ كان عبد المطلب زعيم قريش وسيد هاتمة مصاهرة مكة ليثرب .

وقام عبد المطلب يعدد مناقب قريش وبنى هاشم ، ثم طلب من وهب أن يروح عبد الله آمنة بنت وهب . وفي نفس الوقت طلب من أخيه وهيب أن يروجه ابنته هالة ، فقام وهب وعدد مناقب بنى زهرة ، ثم رحب بزواج عبد الله وابنته آمنة ، وقام بعده أخوه وهيب وأعلن موافقته على تزويج ابنته هالة

لعبد المطلب شيخ بنى هاشم ورعيم مكة .

وقام أبو طالب والربير إلى عبد الله بقلابه مهينين ، ثم راح باقي إخوانه يصمرونه إلى صدورهم وهم يتمنون لأحبيهم التوفيق . وأقل رجال قريش على عبد مطلب وعبد الله ووهب ووهب وراحوا يصفوا وجوههم قائلين بالرفاء واليسين .

ومرعت سودة بنى هاشم وبني رهرة بن أمية وهالة ورحس يقلبهما ويتمين لهما أطيب التمنيات ، ووقفت سودة عمة وهب كاهمة مكة بعيدا تنهرس في وجه أمية ، إنها تنبأت ما دلت يوم بأنها ستلد بديرا وإياها ترى في وجهها تلك اللحظة شيئا عامضا مثيرا يمز وحنها وإن عجزت كهاتبة عن أن تميظ الشام عن كفه ، فهو شيء رائع لم ترى في وجوه فتيات العرب منه ، شيء تنفخ إليه الأرواح ويستعصى على هراسة الكهان وانعرافين

كان رجال قريش وسائرها ورجال بني رهرة وسائرها فرحين مستشربين برواح عبد الله وأمّية ، فتى قريش ورهرة بنى رهرة . وكانوا يرحون الخير الكثير لهذه المصاهرة ، وعلى الرغم من أن أمّية وأم عبد الله وأبويهما قد حلفوا كثيرا في ديار الأمانى ، فما من أحد من مكة ، قدر حظورة تلك الليلة حق قدرها ، فقد كانت ليلة مباركة لم يعد الزمن من قبل عثتها ، ليلة قدر لها أن تكون مبدأ من سيجعله الله رحمه للعالمين ، إن الله ندو فصل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون .

وكان من عادة العرب أن يبيت الروح ثلاثة أيام في بيت أهل روحه ، وقد كان لوهب بيت في ملى عند الحمرة الصعري ، فذهب عبد الله وأمّية إلى هناك ، بينما بات عبد المطلب وهالة في بيت بنى رهرة بعد أن انسحب المهنون .

وسار عبد الله وآمة متسربين بالليل في مى ، في نفس الطريق الذى سار فيه إبراهيم خبيث الرحم وإسماعيل صادق الوعد الأمين وهما حر المؤمنة التى لو ورن إيمانها بإيمان أهل الأرض لرجحتهم ، يوم أن ذهب إبراهيم بانه الوحيد ليدينه تصديقا للرؤيا التى رآها في منامه .

كان السيم يهب رخاء والقمر يرسل أشعته القصية فيكسو أرجاء مى بالسحر ، وجبل ثير يطل على الودى كحارس أمين ، ولولا ذلك الصنم الذى نصب في المكان الذى هم إبراهيم فيه يذبح ابنه الحبيب لدا كأ أن الرحمة قد نجلت على الكود .

ودخل عبد الله وآمة بيت وهب في مى وأعبقا الباب وراءهما ، فإذا بعير طيب بملأ أرجاء الدار ، وإذا بوز القمر بتسلل من الوافد فيمت في النفوس راحة وأما ولكن عبد الله وآمة كانا في قمة استعادة معنلا عن كل شيء إلا نفسيهما ، فقد كانت هذه أول ليلة يحلو فيها كل منهما بصاحبه ، وحملت آمة بنور الهدى وابن الديحيتين .

ومرت الأيام الثلاثة وعبد الله وآمة يستشفان أريج الماصى التليد ويحسان حق قس الوحود ، فقد كانت حال مى وودياها تبصر بالذكريات . بعد احمر الصعري ظهر الشيطان لإسماعيل وقال له : أتدرى إلى أين يذهب لك أبوك ؟ إنه يرعم أن الله قد أمره بدحك ، فحصى إسماعيل وفي ذلك المكان من ذلك العهد رمى العرب الشيطان بالحمرات إحياء لتلك الذكري .

وأمام البيت الذى بى به عبد الله بآمة ، كانت الحمره الوسطى حيث ظهر الشيطان لها وقال لها : أتدرين أين يذهب الشيخ بابك ، إنه داهب ليدينه ، فحصىته هاجر المؤمنة المستسلمة لأمر الله . وعلى مرمى البصر الحمره الكبرى حيث ظهر الشيطان لخليل الرحم . وجبل ثير ومجر الكش .

إيها أماكن هرع إليها الناس مد أقام إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ،
ومد أذن إبراهيم في الناس بالحج ، ومد قال : « يا بني ، أرى في المنام أني
أدخلك فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من
الصابرين . فمما أسلما وتله للحمين وبادينا أن يا إبراهيم . قد صدقت
الرؤيا ، إنا كذلك نحزي المحسنين . إن هذا هو البلاء المبين . وهدياه بدبح
عظيم »

أماكن مباركة مد مرض الله على الناس الحج بعد أن أقام إبراهيم القواعد من
أول بيت وصع للناس ، وباطما ترددت في حبات ذلك الوادى تبييه المؤمنين
على مر العصور : ليكن اللهم ليكن ! ليكن لا شريك لك ليكن ! إن الحمد
والنعم لك والملك لا شريك لك . ولما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم
وأشركوا بهم ظلت مراسم الحج كما كانت على عهد إبراهيم الخليل ، إلا أن
الوثنيين المشركين أضفوا إلى التلبية ما يتسق مع شركهم فقالوا :
— ليكن اللهم ليكن ! ليكن لا شريك لك ليكن ! إلا شريك هو لك ،
تحمكه وما ملك .

أقصت الأيام الثلاثة السعيدة المباركة التي أمضاها عبد الله وآمة في بيت
وهب عسى عبد الجمرة الوسطى ، فأخذ عبد الله آمنة وانطلقا إلى داره بمكة ،
وما كانت آمة تدري أنها حمت « بدعوة إبراهيم » . « وإد يرفع إبراهيم
القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك السميع اعليم . ربنا واجعنا
مسلمين لك ومن دريتنا آمة مسمة لك وأرنا مناسكا وتب علينا إنك التواب
الرحيم ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب
والحكمة ويذكهم إنك أنت العزيز الحكيم » .
وبلعا دار عبد الله ، إيها دار من دور بني هاشم لم تكن مرتفعة السيان ،

ولكنها كابت دارا حميلة لعروسين ، فقاد عبد الله آمة إلى الدرح الحجرى وراحا يرقيان فيه هونا حتى بلعا بابا يفتح من الشمال ، فدلها إلى ماء واسع وساراهيه كطيفين كريمين حتى وصلا إلى الجدار الأيمن قاصدين الباب الذى فتح فيه .

ودخل عبد الله وآمة فإذا بقعة فى وسطها مقصورة من الخشب أعدت لتكون مخدع العروس ، والتفت عبد الله إلى آمة فإذا وجهها قد عمل بالمرح ، وإذا بانتسامة رصا قد رقت على شفثتها ، فأقبل عبد الله عليها وقد غمره السرور .

وخرج عبد الله ليطوف بالكعبة فم يطف بها مذ حرج منها بعد أن حرت مائة من الإبل فدية له لا يصد عنها إسان ، واطلق حتى إذا ما بلغ البيت العتيق رأى رقيقة بنت نوفل واقفة عند الكعبة فذهب إليها والتقت عيناه بعينيها ، وسرعان ما أشاحت بوجهها عنه .

وعحب عبد الله ، إنها قد عرضت عليه نفسها ومائة من الإبل منذ ثلاثة أيام فما لها تزور عنه اليوم ؟

وأراد عبد الله أن يعرف سر ذلك التحول فقال لها :

— مالك لا تعرضين علىّ اليوم ما كنت عرضت علىّ بالأمس ؟

فقد عبد الله سحره بعد أن تزوج آمة بنت وهب وزهدت فيه رقيقة ، فقالت وهى تحول بصرها عنه إلى الكعبة :

— فارقك النور الذى كان معك بالأمس ، فليس لك اليوم حاجة !

جلس عبد المطلب على فراشه في ظل الكعبة بعد أن غادر بيت وهيب وحمل روجه هالة بنت وهيب إلى داره ، وكان عبد المطلب متمتع بالنس متهلل الأسارير فقد تروح هو وانه عبد الله في ليلة واحدة ، وقد توطدت بدنت الأواصر بين بني رهرة وبني هاشم ، وامتألت صدور بني محروم أخوال عبد الله بالسرور بعد أن فدى شيخ بني هاشم ابنه بمائة من الإبل ، وروجه أمة بنت وهب فتاة بني رهرة التي كانت تنيه بجمالها وشرافها ومقامها على بنات أشراف مكة وسادتها .

رجاء إلى مجلس عبد المطلب ندبه حرب بن عبد شمس وعبد الله بن جدعان بعد أن أعرض عن الدهو وأعقب بيته وبين الشر أبوايا . فقد كان عبد الله بن جدعان شريفاً لا يعاشر إلا رفاق السوء ، سريع الغضب كثير الجنايات حتى أبغضه قومه وعشيرته وأهله وقبيلته ، وحتى امتلأ قلب أبيه ببغضه فقد كان عار الأسرة والقبيلة .

أوعل عبد الله بن جدعان في الشرور ثم فكر ودير ، فرأى أن ارتكاب السوء يقود إلى اضلاله والصياع في تيه الوجود . كانت نفس عبد الله طيبة وإن تبدت خامدة مكوتة ران عليها ميل إلى الشر والعدوان والعجور ، فقد طمر الجواهر الطيب في أعماق شعوره ، فلما بدأ الصراع في جوفه بين الخير والشر ، بين المعلق والمفتوح انتصرت المصويبات على المادييات ، فهجر العدوان والسلب والهيب إلى المسالمة والأمانة فانتشل نفسه من انهيار سريع

بعد أن خان ذاته بفعل قوى مهلكة حدادة كامنة انطلقت تحت ضغط حجة أخلاقية إلى طريق الآثام والشروع .

حكم عبد الله بن جدعان على نفسه بعدوانه على أهله وعشيرته وقيلته بمكابدة انهار معنوى ، فلما نشب في جوفه صراع وروحى انزاحت العشاة عن جوهر طيب فاختار طريق الخير ، وقد قاده ذلك السبيل إلى العسى واشرف والسلطان . ولكن الناس لا يستطيعون أن يصدقوا أن النفس قادرة على النهوض من كموتها من تلقاء نفسها ، وأنها قادرة على أن تقود صاحبها إلى الغنى دون أسطورة ودون وصف صراع البطل الطافر مع جبار أسطورى في سبيل الاستحواذ على كنز ، فقالوا إن عبد الله بن جدعان لما فر من وجه أبيه وقومه لحاً إلى الحبال ، ويسا هو محتبى هاك إذ رأى ثعباناً على باب مغارة ، وهم بأن يفر من ذلك الثعبان ولكنه مضى إلى أنه من ذهب وعيائه من جوهر ، فاستولى على الثعبان ودخل المغارة وإذا به يعثر على كنوز مضاى بن عمرو الجرهمي .

إنها نفس الأسطورة التى رددتها الأساطير اليونانية وأساطير الشعوب كلما انتصرت نفس على ضعفها وانطلقت في طريق الخير لتجمع ثروة ، وقد أصبح عبد الله بن جدعان من أعياء مكة وأجودها ، وصار مجلسه مع عبد المطلب زعيم قريش بعد أن كان مع مجاز مكة وأشرارها .

وجاء عبد الله بن عبد المطلب متهلل الأسارير وألقى على الموجودين تحية الصباح ، ثم جلس إلى حوار أبيه ومد بصره إلى الكعبة وراح يراقب حمام الحمى وهو يطوف حولها ، والناس وقد ازدحموا عند رمزم ، فامتلاً قلبه بإشراق من المحبة ، وأحس تعاطفاً مع كل ما حوله وتناسقاً مع الوجود ، فقد كانت نفسه راضية وآماله ممتحة بعد أن ذاق السعادة الحقة منذ انطلق مع (مولد الرسون)

روحة آمنة بنت وهب إلى بيت أبيها عسى ، وبعد أن عاد بها إلى داره انقائمة بين دور بنى هاشم خلف الكعبة .

إبه مذ بنى بآمنة يستشعر في أعماقه أن شيئاً عظيماً مثيراً قد حدث ، فقد كانت الليلة الأولى التي أعلق فيها عليه وعلى آمنة الدار ليلة لم ير أروع منها طوال حياته ، كان القمر يرسل أشعته إلى جبال مى ووديانها ، وقد انسكب ضوءه من الباذنة فغمر الحجرة بنور لطيف . إبه طالما سرى في الليل ، وطالما أحس سحر القمر ، ولكن القمر في تلك الليلة كان شيئاً آخر ، كان أكثر تألقاً مما كان ، وكانت أشعته كأنها عواطف حانية راحرة بالحبّة تحتوى الوجود كله بين جوانحها ، وقد هب النسيم رخاء كأنما يحمل بشرى ورحمة للناس كافة . إن أريج تلك الليلة لا يزال طيباً في نفسه ، وإبه في دهشة من أمره الأفاح الطيب من أرجاء الدنيا حقاً أم ابعث من روحه ، فقد أحس رائحة المسك في أنفه مذ قالت له رقيقة بنت نوفل : هَبْتِ لَكَ ، وأعرض عنها وذهب إلى بيت آمنة ، إبه ليشم رائحة المسك الأدفأ أينما سار منذ تلك الليلة المباركة ، ويرى الدنيا تتلألأ بالبهجة والإشراق .

كان عبد الله أصغر الموجودين سناً فقد كان في الثامنة عشرة ، إلا أنه أحس في أعماقه على الرغم من حداثة سنه أنه أصبح شيئاً حليلاً بعد أن تزوج آمنة . ولم يكن ما أحسّه كبيراً فقد سمع أهله في خطبهم يعددون مناقب قريش : نحن آل إبراهيم ودرية إسماعيل وبو النصر بن كنانة وبنو قصي بن كلاب وأرباب مكة وسكان الحرم ، لنا ذروة الحسب ومعدن المجد ، فلم يملأه ذلك التفاخر رهوا ، ولكن الليلة حيل له فيها أن الأرض كانت تتلقى وحى السماء قد رفعت من شأنه في عين ذاته ، حتى إن إحساساً غامضاً قد غمره بأنه أصبح أجمل شأننا من كل سادات قريش وأشرافها .

وأفاق عبد الله من أحلام يقظته على صوت فيه غنة يقول .

— أنعم صباحا يا فياض ، يا مطعم طير السماء .

فرفع عبد الله رأسه فرأى ذلك اليهودى الذى كان فى جوار أبيه يحيى عبد المطلب ويجلس ، ولمح التغير الذى اعترى وجه حرب بن أمية فقد كان حرب يضيق بذلك اليهودى ولا يستريح لحديثه .

والتمت عبد المطلب إلى ولده وراح يأمرهم بترك العى والظلم ويحثهم على مكارم الأخلاق ويهاهم عن سقاسف الأمور ، وفيما هو منطلق فى حديثه قال قائل من الحالسرين عنده :

— إنك تقول لنا فى وصاياك لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه وتصيبه عقوبة .

فقال اليهودى :

— إن المرء يثاب فى الدنيا على أعماله ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر .
كان ذلك هو اعتقاد اليهود بعد أن حملوا أسرى من أورشليم إلى بابل ، وأعادوا كتابة التوراة هناك متأثرين بعقائد البابليين التى كانت تقول إن المرء بعد معادرة الحياة يذهب إلى الأرض التى لا رجعة منها وأنه يثاب فى دنياه عن أعماله . وقد تأثر عبد المطلب بيهود يثرب لما كان فى كتف أمه سلمى بست عمرو قبل أن يعود به المطلب إلى قومه ، واعتق ذلك رأى وراح يدعو إليه فى مجالسه ، وقد كان ذلك اليهودى ينرى لتأييد رأى عبد المطلب فقد كان فى تأييده تأييد لدينه . وكان حرب بن أمية يحرق الأرم غيظا من ذلك المتطعل على مجلسهم فقال فى غلظة :

— الزم الصمت .

ونظر عبد المطلب إلى نديمه فى عتاب وقد ضايقت نظرات عبد المطلب

حرب بن أمية ، ولو طارح وسوسات بعنه لقام وشهر سيفه وأطاح برأس ذلك اليهودى الذى يعكر الصغوب بين السديين .

وراح قائل يعارض رأى عبد المطلب ويقول إن ظلوما من أهل الشام قد هلك بعد أن ملأ الأرض ظلما ولم تصبه عقوبة ، فأطرق عبد المطلب يفكر ثم قال :

— والله إن وراء هذه الدار دارا يجزى فيها المحسن بإحسانه ، ويعاقب فيها المسيء بإساءته .

و لم يكن ما قاله عبد المطلب من قبيل الإلهام فقد كان نصارى الروم والشام والحيرة والحيرة يغدون ويروحون فى مكة ، وقد سمع عبد المطلب منهم لا ريب عن الدار الآخرة ، فلما أفحمه الرأى القائل بأن الظلوم قد يخرج من الدنيا دون أن تصيبه العقوبة كفر بمعتقدات اليهود الذين شت بينهم فى المدينة ، واعتق ما يقول به النصارى من أن وراء هذه الدار دارا يجزى فيها المحسن بإحسانه ويعاقب المسيء بإساءته . ولورفعت أسحاف الماضى البعيد عن بئر رمم لرأى عبد المطلب هاجر جالسة عند البئر تقرب إليها إسماعيل دين أبيه إبراهيم وتحدثه عن اليوم الآخر « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون » ولكن طال على الناس الأمد وقست قلوبهم فأشركوا بربهم ونسوا يوم الدين .

وعاد الصحاب يتحاورون ، وسرعان ما راح عبد الله يحكى وراء أحلامه فقد وعده أبوه بأن يبعثه إلى الشام مع قوافل قريش ، وقد قال له إنه سيرل ييثرب وسيرحب به أحواله هو النجار ، فراح يرى نفسه يعين خياله فى قافلة قريش وهى تسرى فى أرض ذات محل وعلى حاسبيها الحقول كشططان من سندس أحضر ، ورأى سوق الصباغة وهو يشتري لآمة حيا فاحرة من يهود

بى قريظة ، ثم رأى نفسه يعود وقد كسب مالا ممدودا فأشرق وجهه بالابتسام . ولكن سرعان ما قطب جبينه فما كانت أحلامه تعبر عن المشاعر الفياصة التى تموج بين صلوعه ، فما من مكى حرج إلى الشام إلا وقد عاد إلى أهله بالحلى والهدايا والكسب الوفير ، وإن ما يحسه فى أغوار داته شئء أروع من المال والتجارة ، شئء غامض ساحر لديد ، يملأ الروح بسور على نور ، ويمد الفؤاد بكور من السعادة تررى بكور الأرض من ذهب وفضة .

ومالت الشمس لتعيب فى الأفق انغرى حلف جبال مكة مهض عبد المطلب وقام بنوه ومن كانوا عنده وراحوا يطوفون بالكعبة قبل أن يعودوا إلى دورهم ، ثم انطلق عبد المطلب وبوه إلى دور بى هاشم من باب إبراهيم ، وخرج الآخرون من أبواب متفرقة .

ودخل عبد الله على آمنة فألقاها تتألق بالبشر وتقبل عليه مرحبة به كأما قد آت من سفر طويل ، وراح العروسان يتناحيان فيحس كل منهما أن رباطا قويا قد شد كلا منهما إلى الآخر وإن لم يمض على زواجهما أكثر من أربعة أيام ، رباطا روحيا وثيقا يحطم كل الحواجز والسدود التى تقوم عادة بين نساء وإن عاشا تحت سقف واحد عشرات السنين .

كانت آمنة سعيدة كل السعادة راضية كل الرضا تستشعر كأنما قد احتوت الوجود كله بين جوارحها ، وأن بركة عظيمة قد غمرتها بالشوة وراحت تسك فى فؤادها رحيق الحب لكل ما تقع عليه عيناها ، وأن فيضا روحيا ينشق بالرحمة من أغوار نفسها فإذا بها تحس أنها تعيش فى دنيا جديدة تنص رفة وأمنا وسلاما .

ويدت الدار الصغيرة للعروسين كأنها روضة من رياض الجنة ، فراحا يهيمنان فيها كمرشتين حائتين يخفق قلماهما بسعادة غامرة وتتفجر أعماقهما

بحب ليس له من نفاق ، حتى إذا ما دثر الليل الكون بعباءته السوداء ذهب عبد
الله وآمنة إلى مخدعهما وأسلما جسيهما للرقاد .

وطافت بمكة أحلام قطبت جباه ورففت على الشفاه بسمات ، وقد كانت
البسمة التي توجت شفتي آمنة أعذب بسمة رسمت على شفتي في تلك
الليلة ، فقد كان حلمها رائعا غاية الروعة لكأنما كان حقيقة واقعة ساحرة
أخاذة تبهذه النفس ولعقل والوجدان ، وتملأ المشاعر بخدر لديد .

وانبعث من أعماقها نور وهاج أضواء أرجاء الدنيا ، إنها ترى قصور بُصرى
من أرض الشام ، وإن هاتفا يهتف بها :
— إنك قد حملت بسيد هذه الأمة .

كان العرب يتعشقون الحرية ، وقد مارسوا تلك الحرية وتحلوا من القيود حتى صارت الحرية إباحية ، وقد فقد الدين سلطانه على النفوس وأصبح علاقة بين العبد والرب تحكم الوجدان ولا تحكم واقع الحياة ، وصار الدين أداة لحلب مافع دنيوية وسعادة أرضية ، فقد قر في أدها العرب الوثنيين أن المرء يثاب في دنياه على أفعاله ، وأن ليست هناك دار أخرى .

ولم تعد الأخلاق قيمة حقيقية من قيم الدين ، وتغاضى المجتمع عن الجرائم الخلقية وصار الناس يوزنون بما يمكنون من ذهب وفضة ، فراحت شهوة المال المجنونة تعربد في النفوس وتتحكم في تصرفات الناس ، فأصبح التعامل مع الطبيعة لا مع ما وراء الطبيعة ، مع المادة لا مع الله .

وأصبح الدين في مكة في عرلة عن المجتمع المكي وإن كان المكيون جميعا يطوفون بالبيت العتيق كل صباح قبل أن يستفتحوا يومهم وكل مساء قبل أن يستشبروا إلهمهم ويعصروا بالقداح عده ، وما كانوا يفعلون ذلك عن إيمان عميق بمدينهم بل تسكيننا للخوف من المجهول الذي كان يستبد بهم ، واستجابة لوسوسات الكهان والعرايين الذين عملوا على نشر الأساطير والخرافات والجهل لتحقيق مغايم دنيوية مستغلين ما يتمتعون به من وميض الفراسة الذي بسط سلطانهم على المكين جميعا .

وكان أهل الكتاب الدين يعيشون في مكة يعانون ازدواج الشخصية ، فاليهودي كان يمارس شعائر ديه في تزمت شديد وفي نفس الوقت يرتكب كل

المحرمات مع المسيحيين أو الوثنيين من العرب ، فقد كان اليهودى يعتقد أنه هو الناس وأما عدا اليهود فهم أمم « كلاب البشرية » ، وأن الله لن يحسب اليهود على ما يرتكبون من آثام في حق الأميين : « ليس علينا في الأميين من سبيل » . وكان المسيحيون يمارسون شعائهم الدينية ويقولون للعرب في استعلاء ما لقنهم بولس من عقائد فاسدة : « نسا أولاد حارية » . وكان المسيحي إذا احتاج إلى مال يقتصره من اليهودى برها فاحش سبت عنه المسيحية ، وكان يأبى إلا أن يقر مقرصه فلا يسلم عليه بيده ولا يلمسه إنما يأمره أن يقف بعيدا ويصرخ فيه : « صاع المال واعرب عن وجهى يا حريير » ، وسى الناس جميعا أنهم لآدم وآدم من تراب ، وأن رب الناس وإله الناس وملك الناس واحد لا شريك له .

تحرر المجتمع المكى من قيود الأخلاق ، فبعد أن كان الرجل يطلب إلى الرجل وليته أو ابنته ويعين صداقتها ثم يعقد عليها أصبح ذلك في فئة قليلة من الذين حافظوا على التقاليد القديمة ، أما الذين تحرروا من عقائد لقوم والأفكار الموروثة فقد صاروا يدخلون دون العشرة على امرأة ما ثم يصيها كلهم عن رضا منهم وتواطؤ بينهم وبينها ، فإذا حملت ووضعت ومرت ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم ، فلم يستطيع رجل منهم أن يتمتع حتى يجتمعوا عدها فتقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم وقد ولدت بهو ابنت يا فلان . تسمى من أحبت باسمه فيتحق به ولدها لا يستطيع أن يتمتع به الرجل .

وانتشرت الغايا في مكة وكن ينصن على أبوابهن رايات تكون علما فمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها من دخلها ودعوا القافة ، فيتفرس القائف في الولد ثم الرجال فيعرف شبه الولد بالواند بوميص العراسة والآثار الخفية ، فيلحق ولد ابعى بالذى يرى القائف أن

يستحلهم به فيدعى إليه لا يجتمع عن ذلك .

وقد اشتهرت بعايا كثيرات في مكة من سريفة جارية رمعة بن الأسود ، وفرسة جارية هشام بن ربيعة ، وأم عليط جارية صفوان بن أمية ، وحة القبطية جارية العاصر بن وائل . وكان بعض الإماء بمقتضى البعاء فكن يكرهن عليه : « ولا تكرهو فتياتكم على البعاء إن أردن تحصن لتبتعوا عرض الحياة الدنيا » .

ولم يعد للرباط المقدس الذى يربط الرجل بزوجه أى ورث ، فإذا أراد الرجل أن يحب كريماً أو شجاعاً أو قوياً يقول لزوجته إذا ظهرت من طمثها .
— أرسلنى إلى فلان فاستبصنى منه .

فترسل المرأة إلى لرجل المشود وتطلب منه الجماع ، فكان الرئيس أو الشجاع أو الكريم يأتى إلى دار الزوج ليؤدى ما يطلب منه لتحسين النوع وهو راضى النفس ، وكان زوجها يعترها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حميتها من ذلك الرجل ، وكان نكاح الاستبضاع مباركاً من الروح والزوجة والمجتمع جميعه وانتشر في مكة رواح المتعة وهو . واح إلى أجل ، فإذا انقضى وقعت الفرقة . ونكاح البذل وهو أن يقول الرجل الرجل : أرسل لى عن امرأتى وأرسل لى عن امرأتى . ونكاح الخدن وهو أن تتخذ الزوجة صديقاً . وقد كان العرب يقولون ما استتر فلا بأس به وما طهر فهو لوم ، وقد قل في النساء المحصنات : « محصنات غير مسافحات ولا متخذات أحذا » .

وقد حكم الربا الحياة الاقتصادية في مكة والمدينة والطائف وأسواق العرب ، فقد كان الدائنون يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة ، فأصحاب النحيل عند جنى الثمر كانوا يتفقون مع القائمين على جمع المحصول على أن يدعوا لهم على أن يسددوا ضعفه في العام القابل ، فإذا ما

حل الأجل وعز المدين عن السداد فقد كان الدائن يحسبه أجلا آخر على أن يسدد المدين ضعف الكمية التي استحققت في الأجل الأول .

وإذا أقرض الدائن المدين ناقة عمرها سنة فعلى المدين أن يدفع للدائن بعد عام ناقة عمرها سنتان ، فإذا عجز عن تقديم تلك الناقة فعليه أن يدفع في السنة التالية ناقة عمرها ثلاث سنوات . وكان ذلك هو الحال في العمليات المالية ، فإذا أقرض رجل آخر مائة دينار لمدة عام فعلى المدين أن يدفع في الأجل المسمى مائتي دينار ، فإذا عجز عن الوفاء صار عليه أن يدفع في السنة التالية أربع مائة دينار ، وهكذا دواليك إلى أن يوفي المدين دينه .

وكانت المعاملات جميعا بين الدائن والمدين على مثل تلك الحال ، فإذا ما أقرض رجل آخر مبلغا من المال أو سلعة من السلع ، فعلى المدين أن يدفع في الأجل المسمى المبلغ المقرض أو السلعة مع فائدة يتفق عليها ، فإذا أعلن المدين عجزه عن الوفاء فإن الدائن يقبل عن طيب خاطر مد الأجل على أن يسدد المدين الدين مضاعفا : « لا تأكلوا الربا أضعاضا مضاعمة واتقوا الله لعنكم تفلحون » ..

وكان بنو ثقيف يأتون من الطائف إلى مكة ليقدموا القروض لبنى المغيرة ، وغالبا ما كان بنو المغيرة عند حلول الأجل يعتذرون عن السداد ويطلبون مد الأجل لقاء دفع فوائد تأجيل السداد ، فكان أفراد الطرفين يحررون عقودا جديدة بما اتفقوا عليه عند الالتزام بين باب الكعبة والحجر الأسود ، وهم يستزلون اللعنات على من خان أو فجر أو بدن .

كان بنو ثقيف يقدمون الذهب والفضة والأنعام ومحاصيل أرضهم الخصبية ، فما كان لهم في الناس من دين فعليه أن يسددوا رأس المال أضعاضا مضاعمة . إنها سنة وشرع شرعه القادرون الذين يملكون الذهب والفضة وما

في الأرض من متاع ، وفرضوه على المحتاجين المصطربين الذين لا يجدون سندا من حاكم قوى مرهف الحس والصميم ، أو من دين سماوى ينهى عن أكل أموال الناس بالباطل وينذر الكافرين منهم بعداب أليم .

وانقسم الربا إلى ربا نسيئة وربا فصل ، فربا النسيئة أن يقدم الدائن إلى المدين مبدعا ما على أن يتقاضى فوائده كل شهر ويظل رأسه ثابتا لا يربو ، فإذا حل الأجل سدد المدين ما اترض ، وإلا طلب مهلة وقبل عن طيب خاطر أن يدفع الدين مضاعفا .

أما ربا الفضل فهو استبدال الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح والورق بالورق إلى أجل ، على أن يحصل على فائدة من نفس الصنف لأن يرد مثلا مثل سواء بسواء ، أو يبيع عائيا بناجز لتحقيق أرباح غير مشروعة .

وكان العرب يرون شرعية الربا وكانوا يقولون في بساطة : « إما البيع مثل الربا » ويضربون مثلا من يشتري ثيابا بعشرة دنانير ويبيعها بأحد عشر دينار ، فذلك عمل مشروع ، وكذلك الحال فيما يقرض آخر عشرة دنانير ويحصلها أحد عشر ديناراً ، فكما أن البيع مشروع فالربا مشروع على هذا القياس . وكانوا يرون أن أية عملية تجارية أو ربوية مشروعة ما دام الطرفان قد ارتضيا شروطها ، فالبيع والربا ضروريان لسد حاجات البشر ، فإن كان المقرض لا يزال في النهاية إلا رأس ماله فلماذا يحاصر ماله ويقرضه للمحتاجين ؟ كانوا يرون أن الربا يقوم بخدمة اجتماعية فهو يمكن المحتاجين من سد حاجاتهم ويشجع المقرضين على أن يقرضوا أموالهم للناس لإشباع رغبتهم ، وما كانوا يتقادرون أن يتصوروا شيئا آخر فقد كانوا يعيشون في مجتمع توزن فيه كل الأمور بالمادة ، وما كان اللروحانيات وزن يذكر .

وانتشر في بلاد العرب كما انتشر في كل بقاع الأرض العبيد ، فالرفيق بضاعة ضرورية لا بد منها لأهل المال نذر عليهم أرباحا عظيمة ، فهم آلات ذلك الزمن ومصدر من مصدر الاستغلال للحصول على الثروة ، كما أنهم سلاح يستخدم للدفع عن السادة الأثرياء في أيام السلم وفي أيام الحرب وكانت مكة يبد الأثرياء والتجار غاصة بعييد الحبشة والسودان والرومان والفرس والعساسنة وعرب الحيرة وكان أثرياء مكة يستعملون العبيد في الأعمال الشاقة وفي حراسة قوافل التجارة وفي قيادة رعوس أموالهم ، وكانوا يكرهون فتياتهم على البعاء ليبتغوا عرص الحياة الدنيا .

كان الأسرى البيض الذين يقعون في أيدي الفرس أو الروم أو القبائل المعبرة على الحدود يباعون في أسواق الصحابة ، وكانت أسعار هذه البضاعة تفوق البضاعة المستوردة من إفريقية ، وكانت جودة إنتاج الرفيق الأبيض والتمس فيه والبراعة في الصبغة التي لا تعرفها إفريقية تعوض عن ذلك الفرق .

ووصل إلى موالي العراق وبلاد الشام والروم وغيرهم من دوى البشرية البيضاء إدارة الأعمال والقيام بالحرف التي تحتاج إلى حيلة ومهارة ومن ، فكانوا يهضون بأعمال البناء والتجارة الدقيقة . وهذه البضاعة التي سوردتها قریش من الخارج وإن كانت تابعة تؤمر فتعمل وتكلف فتستحب ، إلا أنها كانت بضاعة حية لها قلب نابض ودماء يعمل ولحم ودم ولبعضها عظم وفهم ومعرفة تفوق معرفة أصحابها المالكين لها ، فأنثر هؤلاء العبيد أصحاب الحضارات في حضارة قریش وفي معتقداتها .

وجلس عبد المطلب على فراشه في ظل الكعبة وحوله بدماءه وأبناءؤه العشرة كأهم أسد عاب ، وراح عبد المطلب يرقب الكتاب الذين كانوا يرمون العقود عند المترم والناس أحرارا وعبيدا وهم يطوفون بالبيت ،

ويصفى إلى الابتهاالات التي تبعث من القلب حارة فتهر وجدانه هرا وترهب
ضميره وتجعله بهيم في الكون العريض .
ووقف رجلا ينظرا إلى عبد المطلب وأبنائه ويتاحيان ؛ فقال أحدهما
لصاحبه :

— بمش هؤلاء تبى المعالك .

والتقطت أدن عبد المطلب حديث الرجل فشرده و تذكر تلك الرؤيا
التي هاته ففرع منها فزعا شديدا ، رأى كأن شجرة بقت من ظهره قد نال
رأسها السماء وضربت بأغصانها المشرق والمغرب وما رأى نورا أرهر منها
وأعظم من نور الشمس سبعين مرة ، ورأى العرب والعجم هاساجدين وهي
ترداد كل ساعة عظما وبورا وارتفاعا ، ساعة تحصى وساعة تطهر . ورأى
رهطا من قريش قد تعلقوا بأعصانها ، وقوما من قريش يريدون قطعها ، فإذا
دبوا منها أخذهم شاب لم ير قط أحسن منه وجها ولا أطيب ريحا فكسر
أظهرهم وقلع أعينهم ، فرمى يده لينال منها بصيا فلم يبل ، فقال : « من
انصيب ؟ » فقبل له : « الصيب هؤلاء الذين تعلقوا بها وسبقوك » .

إنه انتبه في تلك الليلة مدعورا ولم تستقر نفسه حتى ذهب إلى كاهنة
قريش ، فقالت : « لئن صدقت رؤياك ليخرجن من صلبك رجل يملك
المشرق والمغرب وتدين له الناس » .

ونظر عبد المطلب إلى ابنه أبي طالب كان أبو طالب في الخامسة والثلاثين
وكان عبد المطلب يحس في عمقه أن سيكون لابنه هذا شأن عظيم ، حتى إنه
قال لأبي طالب بعد أن قص عليه حلمه وما قالت كاهنة قريش : « لعلك أن
تكون هو المولود » .

وأسل عبد المطلب جسمه على عينيهِ ليرى في وصوح ما يدور في رأسه

ويسمع ما تهمس به نفسه ، فقد قام في حوفة سؤال : « أياكون ملك في مكة ؟ » .

ولاح في وجه عبد المطلب حيرة . أصدق حلمه ويملك أبو طالب بمكة أم يثور الناس عليه ؟ .

وانقصى النهار وانصرف عبد المطلب وأبناؤه إلى دورهم ، فذهب شيخ بنى هاشم إلى هالة بنت وهيب ، وانطلق عبد الله على جناح الشوق إلى آمنة بنت وهب ، ويم أبو طالب والزبير شطر دور بنى هاشم ، يبا أسل أبو لهب إلى دار فتاة من فتيات البغاء المنتشرات في مكة ليجتمع بشباب سادات قريش المنرفين الفاسقين الباحثين عن المتعة المتمرعين في حماة الفساد .

واكتمل عقد الشباب العابثين فدارت ككوس الخمر ، وامترجت ضحكات الرجال بصحكات الناس ، وجرت الألسن بأشعار ماحة حتى كاد الليل أن يتصف ، فمشى الملل إلى النفوس التي أنهكها طول العبث والمزاح ، وأراد الرجال أن يعيدوا إلى أهديتهم التي كادت تموت الحماس فصاح صائح :

— الميسر يا أصحاب .

فقال أحدهم عابثا .

— أهو من اليسر أم من اليسار ؟

— إنه من اليسر إن كان أخذ مالك يسر ، وهو من اليسار إن كنا سنسلب يسارك .

وتجاوبت في المكان ضحكات فارعة وقام الرجال والنساء للعب القمار ، وجيء بالقداح وهي عيدان قد نحتت ومسست وجعلت سواء في الطول ، وهي الأزلام والأقلام وهي عشرة ، المد والتوأم والرقيب والجلس والنهاس

والمسبل والمعلی والمسیح والسفیح والوعد ؛ فلأقول وهو ألفد سهم إن فار وفوره حروجه ، وعليه غرُم سهم إن حاب ولم يخرج . وكذلك باقيا على الترتیب فیما له وعیه ، إلى المعلی ، وهو السابع له سبعة إن خرج وعليه سبعة إن لم يخرج . يعرض في كل سهم منها بحسب ماله ، وعليه جز ، وتكثر هذه السهام بثلاثة أحر أغفال ليس فيها حرور ولا لها علامات ليكون ذلك أنصی للثمة وأبعد من الخبايا ، وهي المسیح والسفیح والوعد .

ووضعت السهام في كيس والتفت الذي سيصرب بالقдах إلى الأيسار الذين سيشتريكون في القمار ، فقال أحدهم :
— ألفد .

مراح رملأوه يركبونه بسخریتهم فقال :
— إن حاب فعرم سهم وإن فار فكسب سهم ، وأنا سهل أحب السهل .
وقال آخر :
— التوأم .

ونظر إلى أبي هب وقال :
— كهاشم وعد شمس .
مظر صاحب القдах إلى أبي هب وقال :
— وأنت يا بن سيد قريش ؟
فقال أبو هب في زهو :

— المعلی .
فقال قائل :
— وما صرك لو خسرت ، مال عبد المطلب كحصی مكة .
فمالت فتاة عليه وقالت :

— إنه ابن أكرميين ، ويا لسرورى يوم أن يصبح سيد قريش .
وراح صاحب القداح يورع الأزلام على اللاعبيين ، وبقي سهما ففقال
الرجل :

— من يتمم ؟

فصاحت الأصوات :

— أبو هب .. أبو هب .

فأخذ أبو هب ما فصل من القداح وقال للأيسار في رهو :

— قد تتمم .

وأخذ ثوب شديد ابياض ولف على يد « الخرصة » وهو الذى سيضرب
للأيسار بالقداح ليعشى بصره فلا يعرف قدح أى هب دون غيره بعد أن لف
بقطعة من جراب ، فلما يجد من قدح يكون له مع صاحبه محابة .

وأخذ الخرصة ولم يطر فيها ، وحلس خلفه حر هو الرقيب وهو الذى
يظهر فيما يخرج من القداح فيحتر الأيسار به ويعتمدوا على قوله فيه .

جلس الأيسار حول الخرصة ضارب لقداح دائرين به ، ومد الخرصة يده
وأخرج سهما ورفع من غير أن يطر إليه ثم ناوله الرقيب وصاح :
— التوام .

ودفع بالسهم إلى صاحبه فأخذ الرجل سهمين من الأموال الموضوعة ،
فقال له الخرصة :

— أتعيد السهم ؟

فقال الرجل :

— لا أرغب في الشية .

واكتفى الرجل بموره . واستأنف ضارب القداح الضرب بالقداح الباقية

على النماية أسهم الباقية ، ورفع ارحل قدحا فنسلمه الرقيب وقال :
— المسبل .

ودفع باقدح إلى صاحبه فتناول لرحل ستة أسهم من الأموال ثم أعدد
سهمه وهو يستشهد بقول الباقية في رهو :

إني أتمم أيسارى وأمسحهم فتنى وأكسو الحصة الأدما
وأطل الخشع من العيون ودت السوة من الأيسار وقد سال لعباب
طمعهم . واسهرت الأنفاس وأرهفت الخواص وأشرقت وجوه وعامت بالحرر
وجوه وبدت بواجر أقوام وقطبت حده أقوام . وقد لاح على أنى لهب الكسر
الشديد فقد حاصمه حطه وحسر كل ما كان معه .

وأقل رحل يسعى حتى وقف على رعوس الأيسار وصاح :
— جاءت قافلة من الشام تحمل حرا .

فصح المكان بصياح الفائزين والسوة ايعابا وأطرق أبو هب أسي ،
ومرت لحظه وإذا بعز التي الذهب اللتين عنقهما عبد المطلب في الكعبة علان
صفحة رأسه ، وإذا به يرى نفسه يسبل ويسرق عراة مهما ويشترى بها
خمرا .

وأحس أبو هب جهدا عراج يرهق في صوت مسموع ، وأسبل حفيه على
عييه لكيلا يرى تلك الصورة البشعة التي استوت على تمكيره ولكن غرلة
الكعبة استقرت أمام عين حيله لا تريم .

وتلعل وهر رأسه في عصف ليطرد الرؤى التي تشال على رأسه ، ووضع
أصابعه في أذنيه حتى لا يسمع همرات شيطانه ، ولكن الصور التي كانت تمر
في دهبه والأصوات التي تتردد بين جسده كانت نابغة من أعوار نفسه تتصحر
تصحر البراكين .

واندكت مقاومة أي لب مهض وقد لاح في وجهه عزم أكيد ، وبطري
بعض الرفاق وأشار لهم برأسه أن اتبعوني فهو واقفين ، ثم ساروا حلف ابن
سيد القوم ورعيم مكة يمسون النفس بحمر الشام اللديد .
وابطلق أبو هب ورفاقه إلى الكعبة ودخلوا في خوفها وسرقوا غزالة من
العزالتين متستريين بالليل ، ثم هرعوا إلى القافلة التي أقست من الشام واشتروا
بالغزالة حمرا .

وتمس الصبح وحرح المكيون ليظفوا بالحرم ، وفتح كاهن هبل بابها
للراغبين في تقديم القرابين للإله أو في الاستقسام بالأرلام ، وحانت من
الكاهن التمناة فلم يجد إلا غزالة واحدة معلقة فدت منه صيحة إنكار ، ثم
خرج مفزوعا يعلن على الملأ البأ الأليم .

وقرع الخبر أذنى عبد الله بن جدعان وبلغ مسامع قريش ، فأحس الناس
خوفا يقبض أفئدتهم وأصبحوا يحشون أن تنزل بهم بارية من السماء فانتشروا
في مكة يبحثون عن عرالة الذهب التي سرقت من البيت المقدس . وكان عبد
الله بن جدعان أشدهم طلبا لها فقد بات يهاب المخهون بعد أن كان أكثر أهل
مكة شرورا وأقساهم قلبا .

ووعد عبد الله بن جدعان بخاترة من يرشد إلى من سرق العرالة ، وإذا بعقد
الألسن تحل وإذا بأصابع الاتهام تشير إلى أبي هب وصحبه ، فذهب عبد الله
ابن جدعان إلى رجال القافلة التي وردت من الشام واسترد منهم العرالة ، ثم
انطلق في إثر أبي هب ورفاقه المحان .

وألقي القبض على بعض أصحاب أبي هب وقطعت أيديهم جراء وفاق على
ما ارتكبه في الحرم ، وفر بعضهم إلى أحواله من حراة .
وجاء عبد الله بن جدعان ورجال من قريش ليقبضوا على أبي هب ويقتلوا

الحكم فيه ، ولكن خزاعة منعت عنه قريش ، فراح الرجال يعيرونه صائحين :

— سارق عرالة الكعبة .. سارق عزالة الكعبة .

منعت خزاعة عن أنى لهب قريشا ، ونفذ حكم القطع في فريق دود فريق ، ولم يكن ذلك بدعا فقد كان الشريف الذى يسرق لا يقطع بينا نقطع يد السارق إن لم يكن له ولى ولا نصير .

وخشى عبد المطلب أن تسرق العزالتان مرة أخرى فحماهما وضربهما في باب الكعبة ، فكان أول ذهب حليت به .

جلس أحيحة بن الخلاح الأوسى وقد أطرق يفكر في أمره وأمر ذلك الويد الذى ستصعبه امرأته بعد حين وقد صار شيخا وبلغ من العمر عتيا ، فراحت حياته تمر في محيلته فتبسط أساريه مرة وتنقبض مرات ، فقد كانت حياة حافلة بالأحداث لكأما كانت تاريخ يثر بما فيها من صراع وكفاح وأمل . رأى نفسه وهو شاب يافع يتقدم الخطبة سلمى بنت عمرو الخزرجية ليشد الأواصر بين الأوس والخزرج وليوحد بين الحيين من العرب حتى يستطيعا أن يقفا في وجه اليهود سكان المدينة إذا ما تركوا حلافاتهم ذات يوم وعزموا على مناصرة قوة العرب التى كانت آخذة في النمو في المدينة . ثم رأى في وضوح ليلة أن بى سلمى ويوم أن ولدت له عمرا وأخاه معبدا فتهللت أساريه ، وسرعان ما عيس لما تذكر الخلاف الذى دب بينه وبين سلمى وانتهى بطلاقهما .

كانت سلمى امرأة ذات شخصية قوية تحس استملاها ، وكان هو شاعرا مرهف الحس قد داع صيته ولم يتجاوز شرح الشباب ، فكان يضيق بانطلاقها وذهابها إلى الأسواق لتشرف على تجارتها ، فكان الحفاء والخصام والانفصال .

وأبت سلمى أن تسكح الرجال حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها ، إذا كرهت رجلا فارقت . وجاء هاشم بن عبد مناف سيد قريش في تجارة إلى يثرب ورأى سلمى وقد وقفت على مرتفع من الأرض تشرف على تجارتها ،

فأعجب بها وتقدم إليها يحيطها . ثم تروحها فوددت له شبيبة وقد صار شبيبة عند
المطلب زعيم قريش وسيدها .

ورأى أحبيحة نفسه وهو يتسارع الشرف هو ومالك بين العجلان ، كان
هو سيد الأوس وكان مالك سيد الخزرج . وقد علا ذكر مالك يوم أن قتل
الفيطوان ملك اليهود الذي أراد أن يقتص نساء العرب قبل أن يدخل على
أرواحهم ، ثم انطلق إلى الحارث بن جبلة ملك العساسنة واستنجد به فجاء
الحارث بمجنوده وقتل سادات اليهود ومكس لعرب في يثرب .

ورأى أحبيحة والأسى يعتصر قلبه ذلك اليوم المشئوم الذي فتح باب
العداوة بين الأوس والخزرج . كان سوق بني قينقاع بغص بالباس ، وجاء
رسول عبد يانيل الثقفي إلى السوق بفرس وحلة ثم وقف وقال :

— إن عبد يانيل بن عمرو الثقفي قد بعثنى بهذه الفرس وهذه الحنة وقال
لي : ادفعهما إلى أعز أهل يثرب .

فوثب إليه كعب الثعلبي وهو رجل من عطفان كان جاراً لمالك بن
المحلان الخزرجي وقال :

— مالك بن المحلان أعز أهل يثرب .

وقام رجل آخر فقال :

— بل أحبيحة بن الحلاح أعز أهل يثرب .

ودوت أصوات الناس في أذن أحبيحة وهو جالس في مكانه كأنما كانت
آتية من أغوار بئر عميقة ، إنها أصدااء أصوات رست في سوق قينقاع في الماضي
البعيد ، ولكنها ظلت حية في نفسه تعث الألم كلما طافت بذاكرته أو ترددت
في وجدانه .

واستجاب الرسول لقول الثعلبي فدفعهما إلى مالك ، فقال كعب

الثعلبي :

— ألم أقل لكم إن حليفي أعزكم وأفضلكم

وعضب سُمير وكان رجلا من بني عمرو بن عوف فرصد الثعلبي حتى قتله ، وبلغ مالك بن العجلان ذلك فأرسل إلى بني عوف بن عمرو بن مالك بن الأوس :

— إنكم قتلتم منا قتلا فأرسلوا إلينا بقاتله .

فلما جاءهم رسول مالك قالوا :

— إنه كان في السوق التي قتل فيها صاحبكم ناس كثير ، ولا يُدرى أيهم قتله .

— إنما قتله سُمير ، فأرسلوا به إلى أقتله .

— إنه ليس لك أن تقتل سُميرا بعير ينة .

وكره بنو عمرو بن عوف أن يشبوا بينهم وبين مالك حربا فأرسلوا إليه يعرضون عليه الدية فقبلها ، فأرسلوا إليه .

— إن صاحبكم حبيب وليس لكم به إلا نصف الدية .

فعصب مالك وأبى أن يأخذ فيه إلا الدية كاملة أو يقتل سُميرا ، فأبى بنو عمرو بن عوف أن يعطوه إلا دية الخليف ثم دعوه أن يحكم بينهم وبينه عمرو بن امرئ القيس أحد بني الحارث بن الخزرج ، ففضى على مالك بن العجلان أنه ليس له في حليفه إلا دية الخلف ، وأبى مالك أن يرضى بذلك وآذن بني عمرو بن عوف بالحرب واستنصر قبائل الخزرج . فأبى بنو الحارث بن الخزرج أن تنصره عصا حين رد قضاء عمرو بن امرئ القيس ، فقامت مساوشات بين الأوس ومالك بن العجلان ، وقد حج سُمير باب الحروب بين الأوس والخزرج التي كانت تثور لأتفه الأسباب .

وجرى حيال أحيحة إلى صديقه الشاعر امرئ القيس الملك الصليل لما تذكر عمرو بن امرئ القيس . إنه سب إلى الإله قيس زوج مناة إلهة الأوس والخزرج العظيمة ، وشب في كنف أبيه حجر ملك كندة وكان أصغر أولاده ، وقد طرده أبوه لما تغرل بامرأة من نساء أبيه فصار يتحول في الآفاق يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذ العرب من طيء وكعب ويكر بن وائل ، فإذا صادف غديرا أو روضة أو موضع صيد أقام فديح لمن معه في كل يوم ، وخرج إلى الصيد فتصيد ثم عاد فأكل وأكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم وغنته قيانة .

وفي أرض اليمن أتاه عامر الأعور يحمل حمر أبيه ومقتله ، فقال :
— صبعي صغيرا وحسي دمه كبيرا ، لا صحو اليوم ، ولا سكر عدا ،
اليوم خمر وعدا أمر .

حيلي ، لا في اليوم مصحى لشارب
ولا في غد إذ ذاك ما كان يشرب
ثم شرب سبعا ، فلما صحا إلى ألا يأكل لحما ولا يشرب حمرا ولا يدهن
بدهن ولا يصيب امرأة ولا يغسل رأسه من جابة حتى يدرك بثأره .
وقدم عليه رجال من بني أسد وعتدوا إليه ، وأرادوا أن يسووا الفصية
فقالوا له :

— نعطيك ألف بعير دية ، أو نقيدك من أي رجل تشاء من بني أسد ، أو
تهلنا حولا .

— أما الدية فما ظننت أن تعرضوها علي مثلي ، وأما القود فهو قيد إلى ألف
من بني أسد ما رضيتم ولا رأيتم كفتا لحجر أما البطرة فلكم ، ثم
ستعروني في ميسان قحطان أحكم فيكم ظبا السيوف وشبا الأسنة حتى

أشفي نفسي وأبال تأري .

وارتحل حتى نزل بكرا وتغلب ، فسألهم الصر على بى أسد قتته والده ،
 فيحث العيون على بنى أسد فأحس بنو أسد ريبة وكأما كان العيون إندارا لهم
 فلجأوا إلى بى كنانة . وخرج امرؤ القيس وبكر وتعب في أثرهم ، فأدرك
 بنو أسد أن امرأ القيس يتعقبهم فارتحلو ليلا ، فلما دخل امرؤ القيس إلى بى كنانة
 ظانا بى أسد يهيم نادى :

— يا لثارات الملك ! يا لثارات الملك .

فخرج له بعض نفر من كنانة وقالوا :

— ما نحن إلا كنانة .

— وأين بنو أسد ؟

— لما برلت بجمع دعر القطا فطار عن مجاثمه ، فقالت بنت « علياء بن
 الحارث » انقائم بأمر بى أسد : « ما رأيت كالليلة قطا أكثر » . فقال عبياء .
 « لو ترك القطا لغفا ونام » ، وعرف أنك قد اقمريت منه فارحل
 ورأى أحيحة وهو جالس في مكانه ينتظر ما تضع زوجه ، رأى امرأ القيس
 وهو خارج إلى اليمن بعد امتناع « بكر بن وائل » و « تغلب » من أتباع بى
 أسد ، إنه استنصر « أرد سؤوة » فأبوا أن يصروه وقالوا :
 — إخواننا وجيراننا .

ورآه بعين خياله وهو ينزل تمرثد الخير بن دى حدث الحميرى ، ورأى
 الرجل وهو يمدده بخمسمائة رجل من حمير ، ورأى امرأ القيس وقد تبعه من
 استأجر من قبائل العرب وقد وقفوا عند صم « دى الخليفة » ، وقد راح
 امرؤ القيس يستشير الإله في أمر حربه ويدير القلاح ، فإذا بالهاوى يجرح
 ثلاث مرات ، ورأى امرأ القيس وهو حاق غاضب يكسر السهام ويصرب

بها وجه الصمم ويقول :

— مصصت بظر أمك ، لو أبوك قتل ما عقتنى .

وتأمل أحيحة في مجلسه وذهب ليرى ما فعلت روجه ، فقبل له إنها لاتزال تصع . فعاد إلى مجلسه وإذا بخياله يعدو وراء صديقه امرئ القيس فراح يرى رجال بني أسد وقد لجئوا إلى المدر ملك الحيرة يستجدونه ، فألح المدر في طلبه ووجه الجيوش من أياد وبهراء وتنوخ لحربه علم يقدرُوا عليه ، فأمد أبو شروان حليفه المدر بحيش من الأساورة فسرهم في طلبه .

ورأى أحيحة في وصوح — وإد كل بصره — تفرق حمير من حول صديقه ، ورأى الصديق البائس يمر من قبيلة إلى قبيلة ومعه أدراع خمسة : الفضفاضة والصفافية والخصصة والخريق وأم الذبول ، كل لبس آكل المزار يتوارثونها ملكا عن ملك .

ورأى امرأ القيس وقد نزل عند « الحارث بن شهاب » ، ورأى المدر وقد بعث إليه بمائة من أصحابه يوعد به بالحرب إن لم يسلم إليه بني آكل المزار ، ورأى الحارث وهو يسلمهم لأصحاب المدر ، ورأى امرأ القيس وهو يفر ومعه بنته هدى والأدرع والسلاح ومال كان بقي معه .

ورأى صديقه وهو يذهب إلى تيماء ويترك ابنته وبعض الأدرع عند السموأل ، ثم يأتي إليه في يثرب ويترك عنده ما بقي معه من أدرع ومال .

وأطرق أحيحة برأسه ، إنه ليدكر ذلك البقاء الذي كان بينه وبين امرئ القيس قبل أن ينطلق صديقه إلى القسطنطينية يستنصر يوسطنيانوس قيصر الروم ، كان ذلك من ثلاثين سنة خلت ولكنه يذكر أحداث ذلك اليوم لكأما كانت وقعت بالأمس القريب ، فقد كان وداعا للقاء بعده ، وإن كانت أنباء الصديق تفد إلى يثرب بما يثلج القلب وينعش الأمل .

إنه سلك طريق الشام ومر بحوران وبعليك وحمص وحماه وقيصرية وأحيرا القسطنطينية . وقبله قبصر وأكرمه وسارت له منزلة عنده ، وأن ابنة قيصر نظرت إليه فعمشقتة فكان يأتيا وتأتيه .

وأجد يوسفيانوس امراً القيس وأمهه بجد كثيف فيه جماعة من أبناء الملوك ، ولكن الطماح من بني أسد كان يمقت امراً القيس شدة المقت فهو من بني أسد وقد قتل امرؤ القيس أحاه له . فلحق به وأقام مستخفياً ، حتى إذا ما ارتحل امرؤ القيس ذهب إلى قيصر وقال له :

— إن امرأ القيس عوى عاهر ، وإنه لما انصرف علك بالحيش ذكر أنه كان يرأسل ابتلك ويواصلها ، وهو قاتل في ذلك أشعارا يشهر بها في العرب فيفضحها ويفضحك

وعصب قيصر فبعث إلى امرئ القيس بحلة وشئ مسمومة مسووجة بالذهب ، فلما بلغ الرسول امرأ القيس قال له :

— إن مولاي القيصر يوسفيانوس العظيم أرسل إليك بحلته التي كان يلبسها تكرمة لك ، فلبسها باليمن والبركة ، واكتب إليه بحرك من منزل منزله .

ولبسها امرؤ القيس واشتد سروره ، فأسرع فيه السم وسقط جلده وسار يتحامل على نفسه حتى بلغ جبه عسيب ، فرأى « ذو القروح » في الجبل قبرا ، فسأل من عنده :

— قبر من هذا ؟

— امرأة من أبناء الملوك ماتت هناك فدفنت في سمح الجبل .

وأحس أنه يجود بأنفاسه فسر يجر رحليه حتى ارتقى بجوار القبر ، وراح يقلب بصره في جبل عسيب ففطن إلى أن نور عييه يكاد يطفئ وأن روحه

توشك أن تسلم من بين حنبيه ، فقال ابن الميوك وهو ينظر إلى قبر بنت الملوك :

أجارتنا إن المزار قريب وإلى مقيم مسا أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان ها هنا وكل غريب للعريب نسيب
ومات الملك الصليل أمير الشعراء ذو القروح ، امرؤ القيس بن حجر الكندي
غريبا في أنقرة ، ورن في أذن أحبيحة بن الجلاج قوله لما طفر بنى أسد :
قولاً لدودان عبيد العصا ما غبركم بالأسد الباسل ؟
قد قرت العينان من ممالك ومن بنى عمرو ومن كاهل
ومن بنى غم بن دودان إذ نقذف أعلاهم على السافل
حللت لي الخمر وكنت امرأ عن شربها في شغل شاغل
فاليوم أشرب غير مستحقب إنما من الله ولا واعل
وندت من امرأة أحبيحة صرحة لم أخرجته من شروده ، فهب واقفا وهو
يعمم :

— الشعر باطل ، الملك باطل ، النعيم رائل ، كل شيء باطل . هيم الحياة ؟
ولم الممات ؟ وفيه هذه الحروب الطاحنة التي لا يخبو لها أوار بين قبائل
العرب ؟ أنعيش حياتنا كالأنعام ثم نموت كما يموت النعير كأن لم يكن شيء ؟!
واحتلت صفحة ذهن أحبيحة تلك المقابلة التي لم يمض عليها شهور والتي
تمت بينه وبين شيخ من أبحار اليهود ، دار الحديث بينهما حول الله والدين
وأصنام العرب وإله بنى إسرائيل وإذا بالخبر الشيخ يشرذ قليلا ثم يقول :
— قد تقارب زمان نبى يعث هذا أو ان مولده .

— ومن يعث ؟

— من العرب .

— وما اسمه ؟

— محمد .

كان أحيحة قد صاق بتلك الحروب الناشئة بين الأوس والخزرج وبالعداوة المشتعلة بين قبائل العرب ، وبالصباغ الذى يعيش فيه شباب العرب وشيوخهم ، لا أمل يرتجى ولا هدف يسعى إليه ، بل فراع في العقيدة وضيق في أفق الحياة ، وضرب في بيداء الوجود على غير هدى ، فلما سمع من الخبر أن نبيا يبعث في العرب هذا أو أن مولده يحممهم إلى ما فيه عمر الدنيا والآخرة ، طمع في أن يكون ذلك السبي من صلبه ، فعزم على أن يسمى ابنه محمدا إذا ما وصعت روجه ذكرا .

ودخلت القاصة على أحيحة بن الجلاح وهو عارق في أفكاره وقالت له :
— وصعت ذكرا كأنه القمر .

وهر الفرح الشيخ فانطلق إلى روجه مبسوط الأسارير وقال في افعال :
— سأسميه محمدا .

وتهلل الشيخ بالسرور وحسب أنه أول من عرف دين البأ العظيم ، وراح يظفر في وجه الوليد وهو يرجو أن يكون محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسى هو نبى هذه الأمة المنتظر وما دار بخلده أن سفين بن مجاشع في اليمن قد عرف من رهبان النصارى أن أو أن مولد النبى المرتقب قد أظفل الكون زمانه ، فسمى ابنه من قبل محمدا ، فكان محمد بن سفين بن مجاشع أول من سماه أبوه محمدا أملا في أن يكون النبى الذى يبشر به أحبار اليهود ورهبان النصارى .

وعرف مسلمة الأنصارى أن نبيا يوشك أن يولد فسمى ابنه محمدا ، وكذلك براء البكرى ، وحرمان الجمعى ، وحزاعى السنمى ، من أحبار اليهود ورهبان انصارى وكهان العرب بقرب مولد النبى العربى الأمى الذى

يبعثه الله في الأميين لا في بني إسرائيل ، فسموا أبناءهم محمدا ، وكل منهم يرجو أن يكون ابنه هو الرسول الكريم ، فكان محمد بن سفيان بن محاشع ، ومحمد بن أبيحبة بن الخلاح الأوسي ، ومحمد بن مسلمة الأنصاري ، ومحمد بن براء البكري ، ومحمد بن حمران الحنفي ، ومحمد بن حراعي السلمى ، أول من تسمى بمحمد في العرب لا سابع لهم ، رجاء أن يكون أحدهم هو النبی ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

« والذين آتياهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون . الحق من ربك فلا تكونن من الممتريين » .

كان حرب بن أمية قميئاً هريلاً ولكنه كان يسير مرفوع الرأس شاخ الأنف
بجنتل كبيراً ، يستشعر في أعماقه أنه لكون وأنه أشرف من ولدته امرأة .
وكانت طمأنينة نفسه أسمى غاياته فراح على مر الأيام يحرق قلبه من الاضطراب
ببتر الخوف والرعدة وسد المسالك التي يتدفق من خلالها الألم والقلق إلى
وجدانه .

كان على علم بأن الحب والشفقة هما الثقب الذي يسمح بدخول موجة
القلق والألم الطاغية إلى قلبه ، فراح يجاهد ليصرح الشفقة جانباً فالشفقة
ضعف . وكان يترفع عن تقبيل أطفاله حتى لا يفتح أبواب الوهن في نفسه ،
ويطبق لعواطفه العنان ، فنذ الحب ليتحرر من الشعور ، وراح يشاور رأسه
ويتجاهل قواده ، فكان بذلك يفتت ما جمعه الله ، فاستوى فظاً عليظ القلب
انقض الناس من حوله ، يهابون سطوته ويتأخرون عنه إذا ما تقدم لأحبا له
واحتراما لمقامه فيهم ، بل خوفاً من شروره وأدائه .

وكان يعتزل الناس ترفهاً فما كان يجد فيهم من هو كفاء لمخالسته ، ولو أن
إنساناً كان يستطيع أن يعيش في عرلة عن العالم وحده لا عرل حرب الناس
جميعاً ، ولكن الإنسان لا يقدر أن يعيش فرداً بل هو في حاجة إلى أنيس
كحاجته إلى الطعام والشراب والهواء . فنادم عبد المطلب . وكان يضيق
بالمحدثين في مجلس سيد قريش وكثيراً ما كان ينهرهم وبصدهم من الحديث
في غلظة وجفاء ، وكان يحس العيرة تنهش قلبه إذا ما مدح مادح عبد المطلب

أو حاطبه مخطاط ينم عن أن عبد المطلب زعيم مكة ، فقد كان حرب يعتقد في فرارة نفسه أنه أكرم من عبد المطلب وأعلى منه شرفا . ولا عرو فقد نافر أبوه أمية من قبل عمه هاشم أبا عبد المطلب ، فإن كان قد برر على حكم الحكم وغادر مكة إلى الشام عشر سنين ، إلا أنه لم يقبل ذلك الحكم عن رضا بل لعن الحكم واليوم الذي صار فيه حكما يحكم فيه بأن هاشم على وجه الأرض من هو كفاء لأمية بن عبد شمس بن عبد مناف .

وسار حرب في سوق من الأسواق يتيه خيلاء ومن حوله رؤساء قريش حتى بلغوا مكانا صيقا لا يسمح إلا بمرور إنسان ، فتأخر أشراف قريش ليتقدم حرب ، وإذا برجل من تميم يراجمه في التقدم فالتفت حرب إلى التميمي في شزر وقال في صوت غاضب ناهر :

— أنا حرب بن أمية .

فلم ينتفت إليه التميمي ومر قبله ، فرماه حرب بمطرة ناسية وقال متوعدا :
— وعدك مكة .

وزفر حرب حمم غصه وراح يرسل بطرات حانقة حلف التميمي وهو يرمي ويريد ، ثم مر من المضيق وهو يعمل النفس بالانتقام من ذلك الذي جرح كبرياءه يوم أن يفد إلى مكة .

وبقى التميمي دهرا ، ثم أراد دخول مكة فقال :

— من يجبرني من حرب بن أمية ؟

فقبل له :

— عبد المطلب بن هاشم .

فانطلق التميمي متسترا بالليل حتى أتى دار الزبير بن عبد المطلب ، فدق الباب وهو يترقب حشية أن يراه حرب قبل أن يجيره آل عبد المطلب .

وبيع الدق مسامع الزبير وأخيه الغيداق ، فقال الزبير لأخيه :

— قد جاءنا رجل إما مستجير أو طالب حاجة أو طالب قري ، وقد أعطيناه ما أراد . فخرج الزبير وما إن رآه التميمي حتى أشد :

لأقيت حربا في الشية مقبلا

والصبح أبلسج ضوءه للباري

فدعنا بصوت واكتفى ليروعني

ودعنا بدعوته يريد فخاري

فتركه كأنكذب يتبع وحده

وأئتيت أهل معالم وفحار

ليشا هزبرا يستجار بقربه

رحب المارل مكرما للجار

ولقد حلفت بمكة وبزمزم

والبيت ذي الأحجار ولأستجار

إن الزبير لما يعنى من خوفه

ما كبر الحجاج في الأمصار

فقال الزبير للتميمي :

— تقدم فإننا لانتقدم على من نجیره .

وأصبح الصباح وخرج التميمي والزبير إلى احترم ، والتميمي يتقدم ابن عبد المطلب ، حتى إذا ما دخل المسجد رآه حرب فقام إليه فلطمه ، فاستل الزبير سيفه وهجم على حرب فراح حرب يعلو والزبير في أثره والسيف في يده ، ورأى أبناء عبد المطلب أحاهم في أثر شيخ بني أمية فحفوا إليه لينصروه إذا ما حاول بنو أمية نصره سيدهم .

واطلق حرب إلى دار عبد المطلب وهو مبهور المص يتلفت من العزع ،
ثم دخل الدار وهو يدير في المكان عيين رائعتين وقلبه في صدره يخفق كجراح
حمام ، حتى إذا ما رأى عبد المطلب قال في صوت مرعوب :

— أجرني .

— ممن ؟

— من الزبير .

فأكفأ عليه جصة كان أبوه هاشم يطعم الناس فيها ، وبقي حرب تحتها
يرتحف فرقا تنثال على رأسه أفكار مفرعة مرعت كبرياءه في الرعام ، فقد
ثارت كرامته مرة وحرضته على الخروج لأبناء عبد المطلب وليقتل كريما فتأثر
بنو أمية لمقتله ، وسرعان ما عاضت تلك الكرامة لما هجس في صدره هاجس
يوسوس له . وماذا يفيدك سفح دم كل بني هاشم يا حرب لو مت مقتولا ؟
وبقي تحت الحفنة وهو في هلع قد أرهفت حواسه ، تذهب نفسه شعاعا
لرئيف التسم أو رفيف ثوب أو حفيف قدم تمشي هوبا على الأرض . وكاد
يموت من الخوف لما سمع وقع أقدام قادمة فقد حيل له وهمه أن الحفنة سترفع
ثم يزل سيف ليقطع رأسه ، ومس صوت عبد المطلب أذنيه مسار قيقا أعاد
الطمأنينة إلى نفسه قال :

— اخرج يا حرب .

فقال وهو يكمش في نفسه تحت الجصة :

— كيف أخرج وسعة من ولدك قد اجتمعوا بسيفهم على الباب ؟

— اخرج وأنا أجيرك .

ورفع عبد المطلب الجصة وألقى على حرب رداؤه ، فوقف حرب برهة
يجمع شتات نفسه ، ثم خرج على الزبير وإخوته فلما رأوا رداء أبيهم علموا أنه
(مولد الرسول)

أحاراه فوضعوا سيوفهم . وسار حرب بينهم مطمئنا وما لث أن شمع بأنفه ورفع رأسه ومشى في كبر وخيلاء .

ودات يوم ذهب حرب إلى سوق من أسواق تهامة إذا تقدم تأخر الناس ، وإذا تكلم صمت الناس . ويينا هو في قمة عروره جاء اليهودى السدى كان في جوار عبد المطيب والذي يمقته حرب من كل قلبه ، وم يلق سمعه إلى ما يقول حرب وهو صامت بل راح يحادله على أعين الناس ، فضاق حرب بذلك اليهودى الوقح ونهره ، فأغلظ اليهودى القول على حرب فأذهب غيط قلوب الناس وشمى صدورهم وإن كموا عواطفهم حشية بطش أمية وأهله . وضائق الأرض أمام حرب على رحابتها وغشيتها طلعات ، وإن كانت الشمس ترسل نورها مشرقا وهاجا فقد عامت نفسه بسحب الخنق والعصب وأعمته عن كل ما حوله ، ولم يعد يحس إلا المهابة التي لحقته من ولد عبد المطيب وحليف عبد المطيب اليهودى وإن كان في جوار عبد المطيب !

ودعا حرب رجلا من رجاله وراح يوسوس له ويعريه وينفث في صدره سموم عصبه ، فانطلق الرجل ينقب عن ذلك اليهودى الذى أهان سيد بسى أمية حتى عثر عليه في ناحية من السوق قتيلًا .

وبلغ عبد المطيب أن حربا أغرى على قتل اليهودى الذى كان في جواره فعضب وعزم على أن يفارق حربا وعى أن يترك منادمته إلى أن يدفع دية القتل .

وجاء حرب يكاد ينمحر من الكبر وهم أن يجلس بالقرب من فراش عبد المطيب ، فقال له عبد المطيب :

— لا تنادمننا حتى تدفع دية القتل .

— أى قتيل ؟

— الذى أغريت على قتله فى السوق ؟

— اليهودى ؟

— نعم . إنه كان فى جوارى .

وتغير حرب واربد وجهه واستشعر مهانة لما طالبه ابن هاشم بدية يهودى أغلظ له القول على أعين الناس فأغرى به من قتله جزاء وفاقا على وقاحته . ودار حرب على عقيه وانطلق مغاضب هؤلاء انقوم الذين يحاولون على الدوام أن ينالوا من كرامته دون أن يحصلوا بمكانته بين أشراف مكة وساداتها .

كان العبط يملأ جوانحه ، وراحت الأفكار المريضة تزحف على عقله حتى استولى عليه سؤال حائر : لماذا يحاول بنو هاشم أن يحرقوا بنى أمية كلما منحت لهم ساحة ؟ أجاز الربير ذلك التيمى وهو يعلم ما فعله من وقاحة لما تقدم عليه يمر من المضيق قلبه ، وهو من يتأخر عنه الناس احتراماً وإجلالاً ؛ واحتضن عبد المطلب ذلك اليهودى سبط اللسان وأجاره فراح ذلك اليهودى فى كل مجلس يعامله معاملة الأكفاء . وقد شجعه حماية عبد المطلب له على أن يعلظ له القول فى السوق فحق عليه القتل ، فلما نال جراحه هب عبد المطلب يبادى بدفع ديته . لماذا يطالب عبد المطلب بدية اليهودى ؟ إيهما ما فعلا ذلك إلا تحقيراً للشأنه ، وحوفاً من أن يتزع من بى هاشم الشرف والسيطان .

ورن فى جوفه سؤال فيه إنكار لذلك الخاطر : « وهل بنو هاشم أشرف من بى أمية ؟ إن كانت لهم السقاية والرفادة فلنا دار الندوة وعقد لواء الحرب » وكاد يستريح لذلك القرار لولا أن همس فى جوفه هامس : « بهم يحبون الناس بإطعامهم وسقائهم بينا تسوقونهم إلى الحرب لتسلك دماؤهم كالأغنام » .

وعضب من ذلك الخاطر الذى عكر عليه صفوه الذى كاد أن يلمه وراح

يقول بصوت مسموع ليطفئ على وسوسات نفسه التي بدأت تقلقه : « إنا لا نعقد لواء الحرب إلا دفاعا عن شرف قريش ، إنا لا تعلن الحرب إلا على أعداء قريش ، ولولانا لذهب قريش أدراج الرياح . ولو أنصف العرب لعرفوا لنا ذلك الفضل ورفعوه فوق كل فصل ، ولكن العرب لا يرون جلائل الأعمال إلا بيطونهم » .

وساءه أن يعترف بفضل بنى هاشم فعاد يقول في نفسه : « إن كان عبد المطلب قد أطعم الحجاج وسقاهم ، وإن كان أبو هاشم قد أوسعوا على الناس في المواسم فإن يران الصيفان مشتعلة على الدوام على دور أمية ، فإن كانوا قد أطعموا فقد أطعما ، إنا وبنى هاشم في الكرم كهرسى رهان ، ولكننا سبقناهم بقيادة الجيش وحمل اللواء » .

وتذكر في لحظة غضبه ابنه أبا سفيان فتهللت أساريره ، وراح يقيم الموازنات بينه وبين أبناء عبد المطلب : « أبو سفيان يرجح الزبير ، وهو أكفأ من أبي طالب ، وأبى عبد الله منه ، إنه لو وزن بأبناء عبد المطلب لرجحهم جميعا . وليس في بنى هاشم من هو كفء لأبي سفيان ، فعلى بنى أمية أن تتكاتف لتنهض الأمور ليصبح أبو سفيان سيد مكة بلا منازع » .

وأشرق صدره بالأمل . ولكن سرعان ما عاض ذلك البصيص وعاد العل يستولى عليه ، وراحت أصوات بغیضة تفح في وجدانه فحیح الأفعى . أيجبر على الزبير ؟ أيطالبني عبد المطلب بدية اليهودى ؟ لا كان الزبير ولا كان عبد المطلب ولا كانت قريش ولا كانت مكة لو أنني رضخت لإرادة من يريدون تحقيرى .

ورأى أباه أمية بن عبد شمس يقوده عبده ذكوان فوسع من خطوه ليلحق بهما ويفر من وحدته التي تفجر مراجل الخقد والعصب والعل في نفسه ، وما

إن سار معهما حتى أحس راحة ، ولكن ما أسرع أن ضاق بتلك الصحبة فانطلق لا يلوى على شيء .

وعزم حرب على أن يعتزل عبد المطلب ومحسه وقد حسب أن ذلك يريحه من الهوان الذي يستشعره إذا ما طالاه عبد المطلب بدية اليهودي ، ولكن عبد المطلب لم يدعه بل أرسل إليه يطالبه باندية فثارت ثورته وأعلن في غضب أنه لن يدفع تلك الدية أبدا .

ومرت أيام وحرب بن أمية برم بوحشته حتى على ذلك الصوت المبعث من نفسه يهده : « الدية أو الثأر » ، ثائر على ضعفه الذي يرين له سلوك طريق السلامة ودفع الدية والعودة إلى سادمة الصحاب .

واستكر حرب ولج في العاد وإن كانت معارل الهزيمة تدك مقاومته على مر الأيام ، حتى ساق ذات صباح مائة من الإبل إلى بيت عم اليهودي دية القتل ، فقد عمز حرب عن الاستمرار في عداوة عبد المطلب وأنف من محالطة عامة الناس ، فما كان بقادر على أن يعيش في عرلة من قومه وقد تافت نفسه المتكررة إلى مجالسة السادة ، فهرع بعد أن أدى الدية وهو صاغر إلى منادمة عبد المطلب لا حبا في عبد المطلب بل حبا في نفسه .

كانت جبال مكة تمتص حرارة الشمس الحامية ثم تفتتها كشواظ من نار في أرجاء الوادى المقدس ، وكان الحصى الذى يفرش الأرض حول الكعبة يتصاعد منه دحان لكأما يوشك أن يتوهج ، وقد غاب حمام الحمى عن الحرم فقد طار إلى دور مكة يختفى في ظل شرفاتها من الحر اللاهع . وعلى الرعم من القيظ الشديد الذى انهرت له الأنفاس في الصدور فقد كان رجال يطوفون بالبيت العتيق ، وكان عبد الله يطوف معهم وقد تقصد منه العرق فعمر جسمه وسال على لحيته التى بدأت تنبت في وجهه ، فقد كان عبد الله شابا يافعا في الثامنة عشرة لم يضع بعد قدمه على أعتاب العشرين .

وانتهى من طوافه فوسع من خطوه ، وخرج من باب إبراهيم يعد السير ويحتمى من لمح الشمس بالدور ، حتى إذا ما بلغ الطريق الضيق الذى يقوده إلى داره وقف في الظل يلتقط أنفاسه في راحة ويفكر في هدوء . إنه خارج في المساء في رحلة الصيف إلى الشام ، إنه سعيد بهذه الرحلة ، سيزور المدينة في عودته وسينزل بنى الحجار أحوال أبيه عند المطلب ، وسيشترى لأمه حلبة من الذهب من سوق قينقاع ، مما من شاب من شباب مكة خرج إلى المدينة إلا وعاد بأساور أو أقراط أو خلاخيل لأهله .

وسار هونا والأفكار تتوافد على رأسه ، إنه فقير لا يملك إلا جارية حبشية وخمسة أجمال وقطعة من غنم ولكنه لا يزال في مستقبل العمر . سيضرب في الآفاق ويخرج في عمر قريش إلى اشام وإلى اليمن وإلى الحيرة إلى مصر ، وسيكسب

من التجارة فيجمع بين الغنى والشرف ويصبح سيّداً من سادات قريش يطعم المحتاج ويعيّد الملهوف ويعين على نوائب الدهر .
وتهلل بالمرح لما تذكر أن أباه الشيخ قد عهد إليه أن يمتار من المدينة تمرا ،
وفي القافلة رجال عركوا التجارة وعركتهم لهم باع طويل في البيع والشراء ،
إن أباه ما فعل ذلك إلا ليشعره أنه صار رجلاً يمكن أن تعتمد عليه قبيلته في
بعض أمورها . وسيأتي اليوم الذي يصبح فيه عماد مكة وصاحب الكلمة
العليا فيها .

وفاضت نفسه بالسرور واستشعر أنه قد دخل الحياة من أوسع
أبوها ، وهل للحياة باب أوسع من باب التجارة ؟ سيطوف بالدنيا
وسيدلف إلى قصور كسرى وقصور قيصر وفرعون مصر وملك
الحيشة وملك الخيرة ، وسيبرم معاهدات الصداقة بيه وببهم جميعا
كما آلف أجداده هاشم والمطلب وبوفل من قبل ملوك الأرض
وأباطرتها .

كان فرحه لا يحده لما فداه إلهه بمائة من الإبل ، ولكن غبطته في تلك
اللحظة كانت تفوق كل غبطة فقد ملأه يقين أن أيام سعادته قد أقبلت ، وأنه
سيصبح شيئا مذكورا لا في مكة وحدها بل في طول الأرض
وعرضها .

وبلع الدار وراح يدق بابها في رفق وهو ينتظر أن ينصرح عن
جاريته الحيشية ، وإذا بالباب يفتح وإذا بآمة تستقبله بابتسامة مشرقة
فأحس كأن الوجود كله قد تهلل بالمرح . وسار إلى جوارها وأقبل عليها
يحدثها عن آماله العريضة وهي تصغي إليه منشرحة الصدر ناعمة البال تطوف

بها سكينه وأمن ، وإن كانت تعلم أن زوجها مفارقها بعد سويعات في رحلة قد تكون أطول من الأيام السعيدة التي قضياها معا في السعش الجميل .

بها شهور قليلة تلك التي مرت منذ تروج سليل البيت الهاشمي أمصل فناة في قريش سبا وموصعا ، ولكنها كانت شهورا مترعة باشوة . وقد كانت تلك اللبنة التي كانت فيها بين اليقظة والنام والتي سمعت فيها هاتفا يهتف بها في رؤيها : « انك قد حملت سيد هذه الأمة » أروع أيام حياتها ، فقد انتشت من المس الهاتف أديها شوة روحية ملأت جوانحها حتى انها باتت تحيا فيها وبها .

كانت آمة لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها ولكنها كانت تعرف مكانها . إنها سيدة من سادات قريش وزوجة ابن رعيم قريش وأحب ولده إلى قلبه ، وقد تحقق لها أمر حلم تحمل به فناة عربية أن تصبح أما ، وقد سمعت هاتفا يهتف بها أنها حملت بسيد هذه الأمة . وقد طار بها الخيال فرأت ابنها يجلس على فراشه في ظل الكعبة كما يجلس جده عبد المطلب وقد التفت الناس حوله وألقوا إليه أسماعهم وهو بمصل في قصاياهم ، فقد كان قصى ما يمكن أن تتحيلة امرأة من قريش أن يكون ابنها زعيما كعبد المطلب ، أو شريفا كعبد الله بن جدعان ، أو شيعا من شيوخ دار الندوة .

وراح الروحجان البدان لم يمس على رواجهما إلا بصعة أشهر يتاحيان ، وما أسرع أن أقبل المساء وحانت ساعة الوداع فراح عبد المطلب يرنو إلى وجه آمة الذي كان يتألق بالنور في حب واعجاب ودهش ، ففي عينيها هيام

وعلى شفيتها بسمه هادئة ، لم يعرف وجهها المزع ولم ترتحف خوفا من وحدتها فلن يكون معها في الدار إلا جاريته الحبشية الصغيرة التي كانت في مثل سنها ، بل كانت ثابتة مرفوعة الحبر تعرف حقيقة دورها في مجتمع يعيش بالتجارة وعلى التجارة ، يطوف رجاله بالآفاق ثم يعودون إلى الزوجة الصابرة التي تنتظر أوبة حبيبها لتتسبه متاعب الرحلة ووعناء الطريق ، ولا غرو فقد كانت كانت فتاة من أشرف حى في قريش .

وفطر عبد الله إلى الجهد الذي تبدله زوجته الشابة حتى لا تبدو أمم عينيه مبهارة منهلكة تشج بالبكاء ويعبو صوتها بالحبيب ، ففاض تأثره حتى وادت في طرفي عينيه القريتين من أنفه دمعان ، وحسنى أن يبدو أمامها صعيها يسح العبرات فدار على عقيه وانصرف لا يلتفت حلله .

كانت آمة تحس رغبة في البكاء إذ كان عبد الله معها ولكنها كانت تتجلد لتبدو هادئة ، وكانت ثورة غارمة في أعماقها تكاد تعصف بها فما سبق لها أن عاشت في دار كدارها وحدها . ومشى الخوف إليها إلا أنها كسحت حماح صفعها وراحت توحى لنفسها أن تتأسك حتى يخرج عبد الله ثم تطلق لعواطفها العنان ، وكانت تحسب أنها ستتهار بعد أن يعيب زوجها الحبيب عن عيها وستنمجر بأكية ، ولكن ما إن ذهب عبد الله حتى أحست أنسا يملأ أرجاءها لكأنما الكون كله معها في دارها يؤنس وحدتها . وعجبت لحالها ! كانت تسمع من سورة بنى رهرة عن مشقة الحمل وثقله ولكنها حملت مما وجدت له مشقة ، وكانت تهاب الوحدة وترتحف منها فرقا وإن أبدت

شجاعة وعزما ، وكانت واثقة من أن قلبها سيسبح رعبا بعد أن يخلو الدار من فتاتها ، ولكن سكية وأما برلاها وهدهدا مشعرها .

وخرج عبد الله وقد ارتفع القمر في السماء يبر السيل فصار يصع خطوات ثم وقف والتفت خلفه وألقى نظرة طويلة على داره ، فانقض صدره وطأت به موجة من الأسى واستشعر وحشه لم يحسها من قبل . إنه يحب آمة وإنه لما يؤلم النفس أن يمارقها في أشهر رواجهما الأولى ، ولكنه ما كان يحسب أن فراق آمة يرل به مثل الحر الذي انتشر بين جوانحه . ومرت لحظات وعياه ثابتان على داره لكأنما يتزود لدهر طويل من البعاد ، ثم دار على عقبه وراح يسعى إلى الكعبة .

كانت النيران مشتعلة على جبل قبيس لكأنما كانت منارة يهتدى بها الصاربون في البداء ، وكانت ألسنة نيران الضيفان تراقص في سواد الليل عن بيوت الكرام ، وكانت المشاعل في أيدي الخارجين إلى حيث بركت عبر فريش ، فهيرت أضواء النيران نور القمر وأحالت ليل مكة إلى نهار .

وراح عبد الله يطوف بالبيت العتيق مع الطائفين ، ثم ذهب إلى حيث العير فإذا بالمكان بموج بسادات مكة وعبيدها ورجالها وسائنها ، وقد تبرجت النساء وأبدن زيتهن ورحن يضرهن بأرجلهن حتى توسوس لخلأخين وسوساتها التي تحمل الرجال بلوون أعناقهم ولا يعضون من أبصارهم . وانتشرت حبقات السمار : حلقة تعب كئوس الخمر وتصعى إلى هبة من القيان تغنى شعرا لامرئ القيس ، وحلقة صُربت حول عراف يضرب الرمل ويروى على الذين أعاروه سمعهم ما يخبئه العيب ، وحلقة من الفقراء والمساكين أقبلوا على طعام جاء به أجواد من فريش ، وهنا وهاك البيغايا صاحبات الرايات الحمر وقد انتشرن في المكان يودعن شباب القافلة ورجالها

المترفين الذين راحت أفكارهم تسبقهم إلى صاحبات الرايات الحمر في يثرب والشام .

وراح عبد الله يقلب وجهه في المكان فإذا بمشاعر رقيقة نعمة ويحس أن عظمها سابعا متبادل بيه وبين الحرم وجبل قبيس والأحشيش حبل مكة والحجون والصفا والروة ، ومد بصره إلى بعيد فرأى عار حراء كقبة عمرتها أشعة الشمس المضيئة بدت كلؤلؤة تتألق بسور لطيف لكأما تحت على العار أنور السماء .

واستشعر رحابة في قلبه وأحس أنه يحتوى الوجود كله ويضمه بين جنبه ، وأن شيئا جليلا عامضا سحر الذبذبا قد أمسى يربط بيه وببني الوادي المقدس بل بيه وبين الكون جميعه ، ورفع بصره إلى السماء فحيل إليه أن اسمه قد كتب بأحرف من نور وقد سيفه اسم آخر عشي نوره عييه فلم يتبه ، فهمس في نفسه هامس : إن لي لشيئا مع هذا البيت وهذه السماء وهذا الكون . وأفاق من أحلامه على صوت يناديه .

— عبد الله .. عبد الله ..

فالتفت فإذا بأخيه الزبير قد جاء يسعى ، فهرع إليه وقال له :

— أين أنت ؟

— إنه قدم في إثرى ليودعك قبل الرحيل .

وسار عبد الله والزبير يتناحيان ، وكان عبد الله يشرد بخياله بين لحظة وأخرى فقد كانت عواطفه حياشة نابضة بمشاعر رقيقة ما كان يدري أن كسورا نقيصة عامرة بها ، فقد سافر من قبل مع أبيه إلى اليمن قبل أن يتزوج أمة ولم يحس يومها ما يحسه في هذه الليلة من تناسق مع كل ما حوله ، ومن فناء في كل ما حوله ، ومن حب لكل انديا ، وإيه هو وأمة قد ارتفعا ليملا ما بين

أرض مكة وسماؤها ، وأنه يسير في عالم مسحور حتى إنه بات لا يدري أيعيش في بقطة أو في حلم من الأحلام .

وجاء عبد المطلب يحف به أبنائوه كأنهم ومن حوله نجوم السماء ، فحفر إليه عبد الله وأرغمي في أحضانه وبقى على صدره فترة طالت كأنما قد استراح إلى القلب الحنون الذي يخفق بحبه . ثم ابتعد عبد الله عن أبيه الشيخ فانقبض صدر عبد المطلب فقد أحس كأنما قد انزع ابنه منه ، وراد في قلبه أنه شعر بدموع تبلل روحه وإن لم تظهر إلى عييه .

ووقعت رقيقة بنت نوفل تنظر إليه ؛ كان إحوة عبد الله يعاقبونه مودعين فردا فردا وكان بين ذراعي أبي طالب ولكنها لم تكن ترى إلا وجه عبد الله وعجبت في نفسها لماذا تدبم النظر إليه في تلك الليلة ، إنها طالما رآته بعد أن عرست عليه نفسها وقالت له : هيت لك . يوم أن فداه إلهه مائة من الإبل قبل أن يدخل على آمة ولكنها لم تجذب إليه بعدها ، كان ساحرا قبل أن يدخل على بت وهب إلا أنه فقد ذلك السحر بعد أن دخل عليها فلم يعد لها فيه حاجة ، فما بالها تطيل إليه النظر ؟ إنها لا تدري وكل ما تدريه أن نفسها تحدثها أن شيئا ما سيقع لابن عبد المطلب يتجاوب صداه جبال مكة ووديانها كما تحاببت به يوم أن هم أبوه بذبحه .

وساد المكان سكور رهيب ، أطققت المغنيات شعاهم وماتت صححكات المأجنين ووضع كئوس الخمر ، حتى البعايا صاحبات الرايات الحمر أطرقت برعوسهن فقد جاء موكب الإله وارتفعت الأصوات بالحمد والتسبيح . كان الإله في محفة على أعناق الكهنة وقد انطبقتوا به حتى بلغوا الخيمة المقدسة وأريج الطيب يتشرب في المكاد ، وبين الابتهالات والدعوات وصح الإله في الخيمة التي كانت على ظهر بعير برك على رأس القافلة .

وقام الحمل بحمله المقدس فأذن بالرحيل ، فالتقت عيون يعيرون وحملت قنوب وقنوب وسحت دموع وانهمرت دموع ، وسارت القافلة إلى الأفق البعيد ، فالتفت عبد الله خنمه يلقي نظرة وداع على أحب بقعة في الأرض إلى قلبه .

كانت وديان مكة قد لبست حلتها السدسية ، احضرت الأرض وحملت الأشجار أصيب الثمار بعد الجذب الشديد ، فعرفت تلك الأيام بسمة الابتهاج ، وأنى قريش الرعد وحلت عليهم بركات السماء وسرت القافلة في الليل تسير على بساط أخضر يموج بأنوار القمر العنسية السحرية قد وشى بالوار الأصفر ، فكان روعة تبده البصر والعقل والوجدان .

واطبقت القافلة في أروع معبد حتى أطبق عليها الأفق وبعدت عن الوادي المقدس ، وإن طل البيت العتيق مشرقا في سويداء القلوب مصيئا حسد أرواح تعلقت به وشغفت به حبا .

وقامت مكة من رقادها على صوت عيص الراهب الذي جاء من الشام ونزل بحر الظهران يقول :

— يوشك أن يولد فيكم مولود يا أهل مكة تدين له العرب ويملك العجم ، هذا زمانه ، فمن أدركه واتبعه أصاب حاجته ومن أدركه وحالعه أخطأ حاجته .

كان عيص يلزم صومعة له ويدخل بين الحين والحين فيلقى الناس ويقول مقالته ثم يقبل راجعا إلى صومعته . وقد هرعهم قوله أول مرة ولكهم ألفوا بيوته فأعرضوا عنها ، هأين ذلك معرى اندى تدين له العرب ويملك العجم ، والأمم من حوها تكاد أن تتحطفهم^٤

أطرق أبرهة برأسه يفكر فيما جاء به رسول يوسفوس الثانى قيصر الروم ، فإمبراطور الروم يسأله أن يتحرك بجيوشه ليغزو الجزيرة العربية حتى تتصل جيوش الحبشة وايمى التى تديس بأنصراية بجيوش الشام والقسطنطينية ، ثم تطلق الجيوش الصيبية لغزو فارس . وإن إمبراطور الروم يستحثه على الإسراع بالخروج فالحرب الدائرة بين الشرق والغرب توشك أن تكون نكبة على القسطنطينية ، وفى انكسار الروم توهين للمسيحية وإصعاف لشأن الملوك المسيحيين .

وعادت به ذاكرته إلى ثلاثين سنة مضت ، إلى تلك الأيام التى كانت الدعاية البيزنطية والحشية لا هم لها إلا بث الكراهية فى العالم المسيحى على اختلاف مذاهبه لمحميرين الذى تهودوا واصطهدوا البصارى المسالمين . فكانت حملة الحبشة على ايمى فى ظاهرها باسم الدين ، وإن كان هدفها الحقيقى الذى تحميه هو الاستيلاء على ايمى وإدخال ذلك العطر العسى دى الموقع الخطير تحت نفوذ البيزنطيين . لتتم لهم السيادة على مياه البحر الأحمر ، ولسيطرة على مضيق الميذب والمحيط الهى وعلى ثروة إفريقية والهدوما وراء اهد

إن ما يدعو إليه قيصر مشروع حظير راود عقل الإسكندر من قبل وطل حنما فى حباله ، وحاول أوليوس غديوس أن يخرج الحلم إلى عالم الوجود ممسى بإخفاق شديد ، ترى أيسجح أبرهة فى تحقيق حلم الإسكندر وبما أحقق فيه أوليوس عاليوس القائد الروماني لعظيم؟

وراح أبرهة يفكر في الحرية التي ما فتئ قياصرة الروم يلحون عليه أن يسير بجيوشه فيها حتى تلتقي جيوش الحبشة بجيوش الروم فألقاها قبائل متاعرة حالت المافسات بين رعمائهم دون تكوين دولة عربية قوية لها ورد في ميران الدول ، وما أسير تأليب رئيس على رئيس أو تأييد رعيم موال أو القصاص على رعيم انتقص ليشور على سلطانه ، إنه قوة لا قبل لقبائل العرب بها ، وهو على يقين من أنه لو سار بجيوشه فلن تلبث لقبائل العربية أن تركع مستسلمة عند قدميه .

وانتصحت أوداح أبرهة عرورا ، وراح يجرى وراء حياله فتذكر حليفه رهير بن حباب سد كلب وشريعها وحطيبها وشاعرها وطبيبها وكاهنها وفارسها وأوجهها عند الملوك ، وتذكر حين طلع على محد وأتاه زهير فأكرمه وفصله على من أتاه من العرب ثم أقره على بكر وتعيب اسي وائل ، وقد فرح آل رهير وبقوا : إن أبرهة اصطلمى آل رهير وسوسهم على الناس . إن رهيرا قد حنى له الخراج من قبيلته ، وقد أصابتهم سة شديدة لم يتمكنوا فيها من دفع ما عليهم فصالحهم رهير بها فاعتدروا عن الدفع ، فاشتد عليهم ومعهم من الحجعة حتى يؤدوا ما عليهم فكادت مواشيهم تهلك ، فلما رأى ذلك « ابن ربابه » أحد بني تيم الله بن ثعلبة أقي رهير ، وهو دائم فأعمد السيف في بطنه ، ثم فر هاربا ظانا أنه قد أهلكه .

وأفاق رهير فأخذه من كان معه من قومه حتى وصلوا به إلى قبيلته ، فجمع عندئذ جموعه ومن قدر عليه من أهل اليمن وعراهم بكرات وتعيب وقتلهم قتالا شديدا امهرمت به بكر وقتلت تعيب بعدها فحاققت بها الهزيمة ، وأسركيب ومهلل اباربيعة ، وأخذت الأموال وكثرت القتل في بني تعيب ، وأسرت جماعة من فرسانهم ووجوههم وانتصر زهير بصرا عطيما .

ودائب لأبرهة محمد ، وحمل رهبر إليه خراج معد وبكر وتعلب فوقه في وحدانه أن ما من رعيم من رعماء القائل العربية إلا ويتهل بالمرح إذا ما أقره على قبيلته ، وما من أحد منهم إلا ويسارع بحمل الخراج إليه تقرباً إليه وكسا رصاه فقد كان سيد يمس المطاع وأقوى ملك في المنطقة

وكان أبرهة يعيش حياة الملوك المترفين ، فكان لا يقل لحامة ولا روعة عن قصر كسرى أبو شروان في اندائن أو قصر يوسطيبوس بالقسطنطينية أو قصر الخورنق مقر ملوك الحيرة ، وقد بنى الكنائس العظيمة في مأرب وفي طفار وفي صعاء وفي نجران ، وراح يبشر النصرانية في اليمن ويدعو العرب إلى الحج إلى كنيسته العظيمة في صعاء ويعمل على أن يصرفهم عن الحج إلى مكة لتعود عليه المعام التي تحبها قريش من الحجيج في موسم الحج . فما دار بخلده أبداً أن أشراف قريش يرحلون عن جرد من أموالهم لإطعام حجاج بيت الله ، وأن السفاية والرفادة شرف عظيم يشافس عليه سادات قريش ليكون هم ذلك المحمد الذي تشرب إليه أعناق الرجال .

وكان أبرهة قد فوص ابنه أكسوم أمره معاهر « أرض أقبال معاهر اترعها من أصحابها وسلمها إليه فعرف بدى معاهر ، وفوص ابنه الثاني الذي أنجبه من زوجته العربية التي اترعها من زوجها على شاتر وعرف بدى شاتر ، وعرفه العرب بمسروق لأنه جاء من امرأة سرقها أبرهة من زوجها بسطانه . كانت الأمور مستقرة لأبرهة ، إنه يحيا حياة الملوك المترفين ، فكان إلحاح فياصرة الروم عليه بعرو الحجار لا يصادف هوى في نفسه فكان يتلكأ في تفيده ، فما الذي يحمله على المعامرة وقطع فيق وقفار في صحراء جرداء تحت نار الشمس الحامية عرصه للعطش والصاع ، وأن يرل به ما نزل بأوليوس عالوس يوم أن أعراه قيصر بفتح بلاد العرب والاستيلاء على ماها

من كور ؟

ورأى أبرهة أن يجد سلطانه على انقبائل بأن يبعث إليهم رجالا مواليين له يسوسهم على الناس يرعومهم على طاعته ويحول له الحرية ، فمن حوله أشراف كل قبيلة رهن بإشارته ووطوع أمره واستراح للفكرة فبعث رجلا ممن عنده اصطفاه ليكون حاكم تهامة من قبله .

وخرج الرجل من قصر أبرهة يكاد يطير من الفرح فقد ولاه سيد اليمن على تهامة ، ولم يفكر الرجال في أن أبرهة قد ولاه على قوم لم يخضعوا لسلطانه ، فقد كان الرجل مهورا بسيدته لم يخطر له على قلب أن هناك على وجه الأرض من يعصى نه أمرا أو تراوده فكرة عصيانه وشق عصا طاعته .

وبينا كان أبرهة في قصره بين بدمائه ورجال من أشراف اليمن والحشة وأشراف القبائل التي تحالفت معه ، جاءه رسول يحمل إليه بأ مقتل الرجل الذي اصطفاه ليكون حاكم تهامة ، فقد أتى القوم أن يسمعوا له ويخضعوا للذي الذي جاءهم به ، وقد نصسوا عن ثورتهم بسفك دمه .

وعصب أبرهة ومارت في حساته ثورة غارمة لكرامته التي أهدرت ، وكان لا بد من أن يشح حربا على العرب جميعا انتقاما لكرامته التي جرحت ، ولتكن الحرب التي ما فتى قياصرة الروم يلحون عليه أن يسها نصره فيه وتحفيها عن الدولة الرومانية الشرقية التي كانت تقاسي وحدها وطأة الحرب النائرة بينها وبين فارس .

وراح أبرهة يدبر أمره ويرسم خطته فرأى أن العرب قبائل متناحرة متدافرة ما أيسر أن يخضعها بحد السيف لسلطانه ، لا يربط بينها إلا دث البيت العتيق الذي عمكة والذي يحولون إليه ويعظمونه والذي عجز عن أن يحول عنه حجاج العرب إلى كنيسته لمأخرة ، فإن هدم ذلك البيت فإنه سيمرق

(مولد الرسول)

الآصرة الوحيدة التي تربط بين أفئدة العرب جميعا ولز تصح بين القبائل رابطة ، معزم على أن يخرج ليذك ذلك البيت ليسهل له بسط سلطانه على لعرب .

وعجب أبرهة في نفسه من هؤلاء العرب عدة الأوثان الذين أبوا أن يدخنوا دية ولخوا في العباد ، وعلى الرعم من أن أبرهة قد لث فيهم سين طوية فيه لم يفهم عقليتهم ، فالعرب تفخر بالأسرة الكبيرة التي يكثر عددها ، وترى في ذلك عزة ومعة ، فإن كانت البصارى يدعومهم إلى إنه ليس له إلا ولد واحد فإنهم يعدون إنها عظيما له بات وبون يقربهم إليه رلهم ، وعندهم أن الإله الذي به أولاد كثيرون خير من الإله سس له إلا ولد واحد . « وقالوا اتحد الله ولدا ، سبحانه بل له ما في لسموات والأرض كل له قانتون . يديع السموات والأرض وإذا قصي أمرا فاعما يقول له كن فيكون » .

نوج أبرهة محمد بن خراعى وأمره على مصر وأمره أن يسير في الناس بدعومهم إلى حج كبسته التي بناها بصعاء ، وأن يحجى له منهم الخراج وأن يلزمهم طاعته ، فسار محمد بن خراعى حتى إذا برل بعض أرض بني كنانة وقد بلغ أهل تهامة أمره وما جاء له ، بعثوا إليه رجلا من هديل رماه سهم فقتله ، فلما بلعه البيا حلف ليعروا بني كنانة ، ولكنه قد وطن لعزم على هدم الكعة وكان لا بد من سب لتبرير ذلك الاعتداء .

كان أبرهة في محسبه يطر إلى الباب كأنما كان ينتظر قدوم أحد ، وكان من عبده من العرب والأحاش يظهرن له الود والإكبار والإجلال يتمسون فضه وإن هي إلا لحظات قصيرة حتى فتح الباب وأقبل راهب من الرهبان وفي وجهه فرع وقال :

— دنست كيستك يا مولاي .

فقال أبرهة في دهش :

— كيف ؟

— فقد فيها رجل من العرب .

— من أي العرب ؟

— من أهل هذا البيت الذي تحج العرب إليه بمكة لما سمع من قول مولاه :

لست بمكة حتى أصرف إلى كيستى حاح العرب .

وهب أبرهة غاصبا وأقسم بالله ومسيحه ليسيرون إلى البيت فيهدمه .

كان سببا وأهيا ذلك السبب الذي قبل لتبرير شس الحرب على مكة وهمد
بيتها العتيق ، ولكنه كان سببا على أبة حال ، فقد كان لا بد من سبب يثير
حماسة الجماهير لامتثاق الحسام لتحقيق أغراض السادة السياسية .

وبعث أبرهة إلى السجاشي يبيته أنه قد عزم على غزو مكة وعلى تقويض
كهنتها ، وسأله أن يمدّه بالحدود والقبيلة ، فتدفقت الحدود على اليمن وجاءت
الميلة من الحبشة ، وراح أبرهة يعد العدة لحمية لم تر جريرة العرب مثها ،
لينصل بصارى الحبشة ويمن بصارى عسان والقسططية ، ثم يطلق حمية
الصليب نحو الشرق لقتال العرس وبشر لواء المسيحية الخفاق على وجه
الأرض .

وراح أبرهة يحلم بأيام مجيدة كأيام الإسكندر الأكبر ، وسمع العرب بما
عزم عليه أبرهة فأعظموه وفضعوا به ، ورأوا جهاده حقا عليهم ف راحت كل
قبيلة في طريق البيت العتيق تتأهب للدفاع عن بيت الله الحرام أو الهلاك دونه ،
ولم يفكر أحد منهم في أن يجمع كلمة العرب ليقموا في وجه الصدية صما
واحدا ، « والله جنود السموات والأرض وكان الله عليهما حكيما »

وراح الحادى يعنى بصوت يموج بالشجن يصور حسيه إلى انوطس وإلى
 البيت العتيق وإلى المحون وإلى الصفا وإلى ما فى مكة من أحة وصحاب ،
 فإذا بإحساسات ناعمة تتدسس إلى أفئدة العتيان ، وإذا بالركبان يشاركون
 الحادى فى الغاء ، وإذا بالدموع تطمر إلى عيني عبد الله فقد لاحت له آمنة تملأ
 انفضاء بين الأرض واسماء يشع من حبيها ذلك النور الذى يملأ جوانحه حبا
 ورحمة وأما .

إنه مدودع آمنة يحس كأنما حلف قلبه هناك ، فلم يش طيفها عه آباء الليل
 وأطراف النهار . إنها فى حياله وفى وجدانه وفى سويداء الفؤاد ، إنها أمامه وعن
 يمينه وعن شماله وحيثما يقلب وجهه يحس حديثها العذب أذنيه مسارقا يحس
 فيه أجمل الذكريات . وإن صوتها وهى تحدثه عن الرؤيا التى رأتها والتى سمعت
 فيها هاتفا يهتف بها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، يسرى فى صميمه
 كموسيقى حاملة ناعمة تدعدع حواسه ، أو كصوت ملائكة آت من السماء
 بالبشرى يحمله على أحضان السعادة إلى عوالم من الفرح والبهجة ، تدو له من
 فرط نشوته أنها ليست من هذه الأرض .

وراح يحاول أن يخط الشام عن العيب وأن يرسم صورة بخياله لآبائه الحبيب
 الذى بشرت به آمنة ، إلا أن كل أحلامه قد قصرت على أن تسمو إلى ما ينتظر
 آبيه من مجد ، فقد كاتب أمانيه أرضية عجرت عن أن ترتفع بآبائه إلى السماء
 وإلى ما فوق السماء ، لتربط بينه وبين رب الكون الأمياب .

ومد رجل من رجال القافة أمه ورفر زفرة طويلة ثم قال :
— أشم ريح غزة .

ومس الصوت أدنى عبد الله فإذا بصوت حوب يسعث من أعواره يقول في
وحد :

— أشم ريح مكة .

وعاد يعيش بوجدانه في مكة ويطوف بالكعبة ويلقى بطرات حب على
مجلس عبد المطلب في ظل البيت ، ويهرع إلى داره الحبيبة يساجي آمنة ،
ويبتسم لجاريته الحبيشية ويوصيها بسيدتها حيرا ، فإنها قد حملت بسيد هذه
الأمّة . وتدور محاورات طوية مقعمة بالشوة بينه وبين الصحاب وإن كان
يطوى مع عمر قريش أرض الله .

وهت ريح السيم وبدت السحب في رفعه السماء كأنها قطيع من بقر
الوحش ، فراح الرجال يحشون الإبل على الإسراع لتجد القافة لها عاصما من
امطر في عرة ، فإن هي إلا سويغات ويهمر العيث ومرت ساعة وراحت
انسحب تمر كأنها يعال دهم نجر جلالها ، وصار لا هم لرجال القافة إلا مراقبة
السماء يينا كان عبد الله عائثا عن الوحود بالرؤى العذاب التي تترادف على
رأسه فتولد في نفسه آمالا مشرقة عريضة تعرف على قيثارة سؤاده أرق
الألحان .

وطافت به ببوّة سودة عمّة وهب ، كاهنة قريش ، فقد تبنّت لامة بأنها
الديرة أو تلذ نذيرا . وقد جاءت رؤيا أمّة وذلك اهاتف الذي هتف بها بأنها
ستد سيد هذه الأمّة مؤكدة سوعة كاهنة قريش . ستد أمّة ذلك الدير الذي
كانت نساء مكة كلها يتممين أن يخرج من بطونهم . وتهلل عبد الله بالمرح
فسيكون لايه شأن عظيم وإن كان لا يدري م الدير ، فقد كان من قوم لم

يبعث الله فيهم من قبل نديرا ولا رسولا

ودنت السحب من الأرض وتدلّت فبدت كأنما بين أعلاها وأسفلها
أثواب هبة رقيقة منشرة ، أو ضوء مصباح حانت يكاد أن يلفظ أنفاسه ، ثم
أسدل عل وجه السماء نقاب من سحب داكنة فارتفع صوت الحدى بالحذاء
يحث الإبل على الإسراع فقد لاحت أرباص عرة .

وبرق البرق ثم هرم الرعد وسرعاد ما هطلت الأمطار ، فاضطرب قطار
القافلة لحظات ، فقد حلف الرجال لتعطية ما يئنس عليه من النبل ، وهرع
الكاهن ليطمئن إلى أن إلهه في مأمن من الماء البازل من السماء ، ثم استقامت
العير وانطلقت تغذ السير في دروب غرة .

وحفت دموع السحب وأطلت زرقة صافية من بين العمام وما لبثت أن
اندحت حتى استولت على رفعه السماء ، وبدت الأرض على جانبي القافلة
كأنما كسيت ببساط من سندس أخضر وشي باليواقيت والبرجد والمرجان ،
وبلعت القافلة السوق فحظت رحالها وراح الرجال يلتقطون أنفاسهم .

وتمدد عبد الله في خيمته وقد أطلق لخياله العنان ، فراح الفتى يجتر ذكرياته
وهو سعيد ، فقد كانت السنوات القليلة التي مرت على عمره مفعمة بأحداث
جسام وبتجارب قد لا يمر بها من بلغ من العمر عتيا ، فمن سادات قومه
أحده أبوه ليدبحه قربانا لإلهه فعده الإله عمائة من الإبل ، ومن روجات
أشراف قریش بشرت بأنها قد حملت بسيد أمته ؟ إنه سعيد بحياته راض كل
الرضا عن ديناه .

وتذكر جده هاشم بن عبد مناف أول من ثرد الثريد وهشمه في الحذب .
وأول من س الرحلتين لقریش رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى
الشام .

وقد صارت إليه الرفادة والسقاية وساد قومه ولما بيع حمامة والعشرين . إن هاشما قد امتار بصمات فاضلة لم يطاوله بها أحد من قومه ترى أتمد به الأيام ليلع ما بلعه هاشم من مجد ؟ أيكون ابنه اندى بشرت به آمة صو هاشم ؟ وطاعت به فكرة أن يطلق لزيارة قبر هاشم مقام قبل أن يأخذ نصيبه من الراحة واتخذ طريقه إلى القبر وهو يتمثل مطرود بن كعب الخراسي .

وهـاشم في صريح وسط بلقعة

تسمى الرياح عليه بين غزات

وبلغ قبر هاشم فوق الحميد مطرقا حاشعا أمام قبر جده الذي ربط بزواجه من سلمى الخرجية بين مكة ويثرب . والذي جعل لهم بذلك الرباط المقدس أخوالا من بني النخار ، فهو الحسر الذي شد وثاق مكة بالندبة ، وندى حلق لبني هاشم عصية من أهم محاط في طريق قوامهم وشرذ حياله فتذكر المطيب الذي هلك بردمان في أرض اليمن ، وبوفا الذي فاضت روحه سلیمان من ناحية العراق ، وصاف به سؤال : ما حكمة موت سادات قريش عرباء في أرض العرب بين قبورهم مفاوز وصحراوات ، أتكون قبورهم معالم على طريق قوافل قريش ؟ أتكون رابطة بين مكة والعراق واليمن والشام تحمل الأفتدة تهو إلى تلك البلاد ما دامت الرابطة السياسية بين تلك الدول قد انفصمت وحلت بين العداوات ؟ ولم يمتد الفنى اليافع إلى شيء فدار على عقبه وهو يفكر في الموت ، ويعجب من القائلين إن هي إلا حياتنا الدنيا ، فإن كان ما يقولون حقا فما أنفها من حياة ، أيعيش المرء حين قصرت أم طالبت ثم يموت كما يموت البعير ثم لا شيء ؟ لو كان الأمر كذلك لكن الخلق باطلا . إنه يؤمن بما وصل إليه أنه نأ وراء هذه الحياة حياة

أخرى بحاسب الإنسان فيها على ما قدم يداه إن حيرا فحير وإن شرا فشر
ومرت أيام السوق مفعمة بالعمل والبهجة ، فقد باع رجال قريش كل ما
معهم من سلع وحققوا أرباحا أثلحت صدورهم ، وأقلوا على الشراء بعد
البيع فكانت الخمر أكثر ما اشتروه فمتروا مكة وساداتها يدفعون في خمر
الشام كل ما يطلب منهم من ثمن .

وتقصت أيام عرة وليانها المايضة الحية ، فقد كان السمر يمد حتى مطلع
العمر ؛ رجال قريش يتبارون في شعر الفحول من شعراء العرب ، والمتأدبون
من أهل عرة يهرعون إلى ذلك المادى يلقون سمعهم إلى الرواة منتشية أرواحهم
مفعمة بالفرح أفئدتهم ، وكان بعض رجال عرة يقصون أباء العساسنة
ويروون أباء الخروب التي لا تقطع بين العرب والشرق ، بين الإمبراطورية
الرومانية الشرقية وإمبراطورية فارس الساسانية .

وتجهزت غير قريش للعودة فاستوى الرجال على ظهور إبلهم ، وأذن
بالرحيل فانطلقت القافلة وقد استقبلت مكة ، وراح الرجال يكثرون من
التلفت فقد كانوا يعتقدون أن كثرة التلفت توجب العودة وكانوا جميعا يتمنون
الأوبة ليسعدوا بالخصرة والماء والوحه الحس ، فقد كان في كل سوق من
أسواق الأرض مارل لبعايا صاحبات الربات الحمر

وراح عبد الله يفكر في يثرب وفي أحواله من بسى الجدر ، فأبوه قد أرسله
مع القافلة يمتار تمرا ويرور أخواله ، فعبد المطلب يحب أن تظل الأسباب
متصلة بين بسى هاشم والخرج في المدينة . فشب قريش لا يسى ذلك اليوم
الذى أراد فيه عمه نوفل أن يسلبه حقه فوجد من يصبره من أحواله على عمه ،
وقد عرف ما كان من بصرة رراح بن ربيعة لأحبة قصى يوم أن جاءه في حج
قصاعة وثت سبطاه على مكة ، فكان عبد المطلب حريصا على أن تظل

الوسائل طيبة بيته وبين بى الحجار ، فقد برع إليهم يوما بعض ولده يلتمس منهم النصرة والتأييد .

وسرت القافاة في الكون العريض ، وانصرفت ليلى وأيام وأحسن عبد الله وهما يدب في جسمه فدم يحفل به كثيرا ، فقد كان يحسب أن التعب دب في أوصاله وأن ذلك الإرهاق لن يلبث أن يزول إذا أعطى حقه من الراحة . ودخل حيمته . وما إن أسسم حبيبه للرفاد حتى راح في سات عميق وغط في نومه وابثق منه العرق ودبل لونه ، حتى إن الذى دلف إلى حيمته ليوقفه وقف بطرق في وجهه الأصفر حافق القلب وقد نزل بصدرة شيء من الخوف والقلق .

وتقدم الرجل وهتف في صوت خافت :

— عبد الله .. عبد الله .

وظل عبد الله في برمه ينتقط أنفاسا مصطربة في جهد شديد . فمد الرجل يده وراح يهره وهو يناديه :

— عبد الله .. عبد الله .

وفتح الفتى عيىن وهتتى عجر عن أن تظلا مفتوحتين ، فسحب عليهما جفنيه ، وأضرق برأسه على صدره ورعر زهرة طويلة في صوت مسموع ، فقال له الرجل :

— ما بك يا عبد الله ؟

وأراد عبد الله أن يهض ولكنه عجز عن الهوض فقال في صوت خافت :

— إني سقيم .

وامتلاأت حيمة عبد الله رجال القافاة ، فابن شيخ قریش وأحب ولده بن قلبه مريض ، وأعطاه كاهن اقفالة وطيبها بعض العقاقير ، ثم حمل عبد الله

ووضع في هودج على ظهر بعير ، ورجال قريش يرحلون أن تزول عنه الوعكة التي ألئت به قبل أن يلعوا المدينة .

واسابت القافلة في دروب المدينة تمشي وهنا ، وارتفعت أصوات لترحيب من المدنيين .

— عمر قريش .. عمر قريش ، مرحبا بعير قريش .

ولم تهبل الوجوه بالفرح بل كان العيوس على كل الوجوه ، فبعد الله لا يرال مريضا وإن أمره يسوء يوما عن يوم ، وقد حر فيه كاهن القافلة وطيبها .

وحطت القافلة رحاها في السوق ، وفي نفس الوقت كان سادات قريش ممن كانوا في العير آخذين بحطام الناقة التي عليها هودج عبد الله المريض مطمئنين إلى دور أحوله من بى السحار ، وسار الركب الصعير يعمره الأسى في طرقات المدينة ، ومر بالدار التي بناها تبع اليم تان أسعد للنس المنتظر يوم أن جاء ليهدم يثرب ومعه أخبار اليهود عن ذلك قائلين ، إنها مهاجر رسول من سى إسماعيل ، ولم يحس الركب خطر تلك الدار فقد كانت در تريد أن تنقص ، وكان العيب وحده يعلم ما بين المريض الذى في الهودج وبين تلك الدار من وشائج وأواصر وأسباب .

ووقف الهودج أمام دور بى السحار ، وما إن بلغ مسامعهم أن عبد الله مريض حتى حصوا إليه مهطعين وحموه في رفق ، وقل أن يغيبوا به في الدار جاهد عبد الله وفتح عينيه وقال لرجال قريش في صوت ضعيف :

— لا تنسوا أن تشتروا التمر الذى طلب ما عند المطلب أن تشتريه .

ثم أغمص عينيه ولاح في وجهه شيء من الراحة ، فقد اطمأن إلى أن قافلة قريش ستعود وهي تحمل ما طلبه أبوه .

وانصرف الرجال يتהלون إلى آمنتهم أن يشفى ابن عبد المطلب ليعود معهم . فقد أصبحوا يفرعون من مجرد فكرة عودة القافلة إلى مكة دون أن يكون فيها فتى قريش الديح .

وراح رجال قريش يمشون وقتهم في السوق وفي عبادة الله وقد أعرضوا عن مباهجة يثرب وهوها ، باتت نفوسهم قلقة لما أيقنوا أن أوبة عبد الله معهم لم تعد أمرا ميسورا ، فقد اشتدت عنيه وطأة المرض وخشوا أن يهلك منهم في الطريق .

وجاء يوم الرحيل فذهب الرجال إلى حيث رقد عبد الله وراح الرجال وسو الحار يتناجون ، كان بعض الرجال يرى أن يحمل معه عبد الله ، فدحول القافلة مكة وعبد الله معها مريض أهول على أهل مكة من عودة القافلة دون أن يكون فتاهما بين العائدين . ولكن أحوال عبد الله من بسى الجار أبوا أن يعادر عبد الله فراشه قبل أن يبل من مرضه ، وانتصر الرأي القائل ببقاء عبد الله عند أحواله ، فألقى الرجال على عبد الله نظرة طويلة ثم داروا على أعقابهم منكسي الرعوس ، تحفقا أفقدتهم حوقا ورهة كلما تذكروا دحولهم مكة دون أن يكون فيهم فتى مكة وابن سيدها الحبيب .

سحر الليل رداءه الأسود على مكة ، وغابت نجوم السماء وهجع الكون
وراح في سبات ولكن النسوة في أغلب دور المدينة المقدسة لم تعرف عيونهم
النوم ، فقد حان أوان عودة قافلة قريش من الشام ، ودبت ساعة تلاقى الأحبة
بعد طول الفراق .

واحتضنت عين امرأة مهمل فأشرق وجهها بالابتسام ، ورأت أخرى همل
أسارير صاحبها فقالت لها :

— في وجهك حلم شهى .

— اختلجت عيني . سأرى من أحب عن قريب .

فقالت لها صاحبها :

إذا حلتجت عيني نقت أنى أراك وإن كان المرار بعيد

وفي دار أخرى أهدت روجة تريا من موضع قدم زوجها وموضع رحله ،
فقد نقت منذ نعومة أظفارها أن ذلك أسرع لرجوعه ، وراحت تقول وهي
تعدو وتروح في غرفتها متلهفة على عودة رحله .

أهدت تريا من موطن رحله عداة غد كيما يحوب مسلما

وراحت الفتيات المتلهفات على الرواح ينشرون جانبا من شعورهن
ويكحلن عيونهن ويحجن على إحدى أرجلهن في حبح الليل وهن يقلن .

— يا لكاح ! أنعي النكاح ، قبل الصباح .

وبالقرب من النافذة راحت آمة ترقب الطريق حافقة القنب وعلى مقربة
مها جلست حارية عبد الله الحيشية تتحدث وآمة عائنة عنها ، فقد سبقها
حيالها إلى لقاء الحبيب . رأت بعين الشوق فاعله قريش تخط رحاها خارج أور
بيت وصنع لباس ورأت عبد الله ينزل عن راحلته يتألق وجهه بالور ويشرق
بالانسام ثم يطبق كالقمر يحف به رجال قريش كالحجوم إلى الحرم ، يطوف
به سبعة . وسرعان ما رأيته يعدو في دروب مكة ، وخيل لها وهمها وهفها على
أن تلقى عبد الله أنها تسمع طرقاته على الباب ، وراحت تجرى وراء أحلامها
المحججة التي تملؤها بشوة وانسراحا ، فرأت نفسها تستقل روحها العائد
الذي تركها وهي لا تراه في ثياب العرس في وجد وهيام ، وراحت تحدث
طيفه وقد تهلل بالفرح وتروى له أعذب الأحاديث عن ذلك اندى حمى به
وم يحس ما سمعت عنه من ساء ببي رهرة من ثقل الحمل وآلامه .

واستراحت للأحداث السليجة التي كان حياها يمددها بها فأطلقت العنان
لأفكارها ، وراحت تقول لطيف عبد الله وقد رقت بسمة حانة على شفيتها :
إن هاة قد حملت من أبيك وقد عزم عبد المطلب أن يسمى ابنه حمرة إن جاء
ولدا . بيا لم تفكر بعد في اسم لوليدنا ، أسمية قصيا أم هاشما أم عبد
المطلب ؟ إلى أعين عبد الله أنك تحب أبا طالب وأن أبا طالب يحب ، أسمية
أبا طالب ؟

وملأت لشوة فؤاد آمة مشرد حياها ، وطالت وقفها عند الشباك حتى
حدرت رجليها فانتفتت إلى جاريه عبد الله وقالت :
— خدرت رجلى .

فقال الحارية التي كانت تتحدث غير منتفئة إلى شرود سيدتها .

ذكر الحبيب يريل حذر الرجل ادعى أحب الناس إليك .
فقال آمة في صوت متهدج فيه رنة آسرة مبعثة من كمر الحب .
— يا عبد الله .. يا عبد الله .

وعادت آمنة لتغيب عما حولها في الدنيا المشرقة الخافقة بالأمل التي أقامتها
في وجدانها ، رأت عيد الله يتوب إليها وعلى شفثيه بسمة أروع من كل مباهج
الدنيا ، ويلف حول عنقها قلادة من الذهب أقي بها من سوق بى قيقاع . إنها
تكاد تحس أنامله وهو يصلح القلادة على جيدها ، وأنفاسه تتردد في جنبات
العرفه ، وصورته تملأ الأفق كله وتحيل ليل حياتها نورا لطيفا مقعما بالبهجة
والحب والسلام .

ومزق سكون الليل صوت جهورى تردد في جنبات مكة كأنه ليشرى أو
العيد :

— أقبلت غير قریش .. أقبلت غير قریش .

ودق قلب آمة بين صلوها دقات عالية عيفة وتبحرت في لحظة كل
أحلامها ، وسرت في بدنها رعدة وقشعريرة . إنها باتت أمام المجهول وجها
لوجه وعما قيل يبلح الصبح عن الحقيقة ، ترى كيف أنت يا عبد الله ؟ أين
أنت يا حبيبي ؟ وعبتها عاطفتها الجياشة في جوفها فاهمرت الدموع من
مآقيها .

وفتحت دور مكة وخرج الرجال مهرولين لاستقبال الأحبة العائدين .
وانطلق عبد المطلب وأبنائه ليضموا عبد الله إلى صدورهم للمهوفة ، وراح أبو
هب يهرول ويتحلب ريقه لخمير الشام .

وحطت القافلة وأقبل أهل مكة يستبقون إليها وعانق الرجال الرجال ،
وابتقت دموع المرح وعبرات الرحمة من العيون وارتفعت الأصوات تنادى

الأحبة ، وقد ماح القادمون بالمستقلين وارتفع ضوت عبد المطيب يادى فى انفعال :

— عبد الله .. عبد الله .

وراح اخارث والزبير وأبو طالب وإحوتهم يشقون الجموع ويتدفقون بعيون رائعة وينادون على أخيهيم فى فزع وهفة دون جدوى ، فلم يكن عبد الله حتى قریش الیافع بین العائدين .

وأقبل زعيم القافلة على شيخ بى هاشم وهو يتصنع التحلد ويرسم بسمه هادئة على شفثیه ، وما إن رآه عبد المطلب حتى قال له فى صوت فيه رهبة ووحده :

— أين عبد الله ؟

فذهبت نفس الرجل شعاعا ولم يقو على أن يستمر فى بشاشته ، بل قال وقد عيس :

— حنفاء عند أحواله بى عدى بن النجار وهو مريض .

فأحس كأن یداً قوية تهصر قلبه وأن دموعا تسيل روحه تريد أن تطهر من مقلثیه ، وراح يحاهد ليقاوم مخارفه ، ولكنه لما تذكر آمة ابهارت مقاومته وكادت تحور عزيمته فأبها المهمة ثقيلة على قلبه أن يقول لآمة التى تنتظر أوبة حبيبها وهى مفعمة بالسرور إن فتاها مريض هناك فى يثرب عند أحواله بى النجار .

لك الله يا آمة ، حلا كل حبيب بحبيبه وحبيبك عريب مريض فى أرض العرباء . ترى أيتوب عبد الله يوما ؟ وقفرت إلى رأس عبد المطلب ذكريات أليمة مرت بقریش ، إن أباه هاشما مات عربيا فى غزة ، ومات عمه المطلب فى

أرض اليمن ، وهلك عمه نوفل في أرض العراق ، أُميت عبد الله في غرب ؟
 وفرغ عبد المطلب لذلك الخطر وأن أنة كان فيها دُوب نفسه ، لكأنما
 كانت سكيما مزقت بباط قلبه وجاء إليه أسأؤه وقد بلغهم خبر مرض عبد الله
 ولاح في وجوههم الأسى العميق إلا أنهم راحوا يحاولون إدخال الطمأنينة على
 قلبه وإن كانت الطمأنينة قد فرت من أفئدتهم ، فقد كانوا يعدمون أن عبد الله
 أحب إلى أبيهم منهم أجمعين .

وذهب عبد المطلب وبوه إلى دار آمة مطرق الرعوس قد سكنت ألسنتهم
 عن الدوران في أفواههم وإن كانت أفكارهم جميعا قد انحجبت إلى الفتى المريض
 في يثرب ، وإن كانت قنوسهم مضغمة بالرحمة والإشفاق .

ونسى أبو هب لما سمع عمرص عبد الله خمر الشام وسمير الليل وما راوده من
 أحلام المترفين العارفين حتى الدقون في الشهوات ، فأبوهب بحب عبد الله
 ويحسن راحة عمره كما جلس إليه وناحاه ، فقد كان في عبد الله شيء عامض
 مثير يجذب إليه النفوس والأرواح .

ورأت جارية عبد الله الحبشية شيخ قريش وولده قادمين فتفرست فيهم
 لعلها ترى عبد الله ولكنها لم تجده بينهم ، فقالت في صوت حافت .
 — سيدى عبد المطلب قادم

ونظرت آمة وقد أشتد وجيب قلبها وراح صدرها يعنو ويهبط في
 اضطراب . وتدفقت مشاعر متباينة إلى جوفها حتى احتلط عليها أمرها
 وأحسست أنها تعيش لحظة حاسمة في حياتها ولمها خوف شديد لما تبست أن
 زوجها الحبيب لم يقبل مع القادمين .

ودخل عبد المطلب ناسر ابوجه وخلفه بوه على وجوههم عبرة ، فما إن
 رأتهم آمة حتى بدا الهدع في وجهها وملأ الفرع عينيها واستشعرت كأن

روحها تكاد أن تفر من فيها ، وقرأ عبد المطلب الرعب في مجاها فقال في حان :

— لا تراعى يا آمنة إله بحير .

— أين عبد الله ؟

— عند أخواله في يثرب .

— ولماذا لم يعد مع العائدين ؟

فأطرق عبد المطلب وقال وهو يغالب دموعه :

— إنه مريض هناك .

وكأنما أراد أن يطمئن نفسه قبل أن يدخل الطمأنينة على قلبها .

— سيسافر الحارث إلى يثرب ليعود بأخيه .

فقال الربير في انفعال :

— بل سأسافر أنا وأعود بعبد الله .

وشردت آمنة وساد المكان سكون ثقيل ، وانعشت الضحكات من دور مكة وخيم القلق والأسى والخوف من المجهول على دار عبد الله .

وفي الصباح كان عبد المطلب وبوه يودعون الزبير وألستهم تلهم بدكر عبد الله ، وقد فاصت عواطفهم حتى إن أحدهم كان يتحاشى أن تلتقى عيابه بعيني صاحبه وعلى البعد وقفت جارية فتى قريش ترصد ذلك الوداع ، حتى إذا ما انطلق الربير ورفقاؤه نحو الأفق عادت الحرية إلى سيدتها القلقة الأرقعة المزعجة لتنبها سفر الربير وقرب عودته بأخيه بارثا يملأ الدار حياة وأملا .

ومرت الأيام والربير يغد السير ليهر من وساوسه التي كانت تعذبه وتصيه وتلهب وحدانه بسوط عذاب ، فقد كانت مخاوفه تفتح في سريره بأن أحياه (مولد الرسول)

وأنه سيجد عند بلوغه يغرب أنه قبر ، فكان الربير يهز رأسه هزا عفيفا يريد أن يطرد ما احتله من رؤى مشثومة ، ولكن محاولاته كانت تذهب أذراح الرياح فقد كانت فكرة موت أخيه تلح عليه إلحاح الدباب كلما دب آت .

وما أكثر ما أغمض عييه حتى لا يرى صورة أخيه مسجى على فراش الموت ، ولكن الصورة طلت واضحة في صميره ترداد وصوحا كلما حاول أن يطمسها من وجدانه ، فقد أبت عين خياله أن تغمض عن المخاوف التي كانت تساوره في نهاره وتعدبه في منامه .

ودلف إلى يثرب من ثيات الوداع ، وما إن احتارها حتى رن في أغواره صوت بشع يردد : « ثيات الوداع .. الوداع .. الوداع » وجاهد ليصم أذنيه عن ندير الين ولكن هيبات فقد صارت نفسه كقاعة يرن في حباتها صوت حطيط مفوه لا حديث له إلا الوداع الذي لا لقاء بعده .

وانتهت عند دار بني عدى بن الحار رحمة العذاب ، فما إن بلغ دار أخواله وسأل عن عبد الله وقيل له إنه بحير حتى تسخرت كل متاعبه وآلامه ؛ وراح يرقى الدرجات وقد نامت مخاوفه إلى حين وبدأ الأمل يزحف إلى صدره . ولكن ما إن دخل على أخيه ورآه دابلا ذبول الموت حتى عاص تمازله وأحس وقدة نار في حلقه وأن الأرض تميد به وأنه يريد أن ينقض ، إلا أنه تمالك وانزع بسمه رقت على شفثيه وإن كان قلبه يدمى في وجد :

— عبد الله .. عبد الله .

وحيل لعبد الله أن صوت أخيه آت من واد سحق وإن مس أذنيه مسارقيا عديا ، وجاهد حتى فزع عييه فرأى صورة الزبير تتراقص أمامه فأحس راحة في أعماقه وعجرت أساريه عن أن تعبر عن الفرحة التي استشرت بين

ضوعه ومد يدا ضعيفة واهة إلى الزبير فاحتواها الربير بين يديه وهو ينسم ، وإن كانت الخناجر تطعن فؤاده ، وتمزق أحشائه .

وراح الربير يروى لأحبيه أبناء آمنة وأخبار عبد المطلب وطفة إخوانه على عودته وعبد الله يصمى وقد لاح في وجهه الأسى والوجد حتى نال منه التعب فأسل عينيه وراح في سبات ، فأسل الربير من الغرفة وذهب بعيدا ليجهش باليكاء .

ومرت أيام والزبير إلى جوار أخيه يحاول أن ينث في الأمل بأحادثه الطلية عن آمنة وعن ابها الذي حملت به ، وعن ربة آمنة في عودته ليشهد ابنه الحبيب ، ولكن عبد الله كان يعاني من سكرات الموت . وبينا كان يجود بأحر أنفسه سمع صوت آمنة كالطنين تقول : « بيا كست بين اليقظة والمسام سمعت هاتفاي : إنك حملت بسيد هذه الأمة » ، فرفت بسمة على شفتي عبد الله ثم سكنت حركته إلى الأبد .

وجهر عبد الله وحمل على الأعناق ، وسار الربير حلف بعش أخيه وهو واله حرين ، لا يرقأ له دمع ، فقد مات فتى قريش غريبا في يثرب كما مات سادة قريش عرباء في الأرض ولم يجد عبد الله من يندبه ، ولو مات في مكة لوقعت النائحات على رعو س الحبال يدب ابن عبد المطلب

وقبر عبد الله في دار التابعة أحد بني عدى بن الحجار وصار الفتى في العابرين ، ثم عاد الربير مهيبض الجناح كسير القلب إلى راحله . وانطلق إلى مكة يحمل إليها أسوأ خبر منذ عاد الناعون بساً هلاك هاشم بن عبد مناف . وفي الطريق راح الزبير يسأل نفسه : فيم كان الفداء إذا كان الموت قد كتب على عبد الله ؟ لو أن عبد المطلب ذبح حبيبه بيده قربانا إلى إلهه لوجد في الوفاء بذره بعض العزاء . أما وقد رصى إلهه بنحر مائة من لإبل عوضا

عن عبد الله فلم اعتال الفتى بعد العداء ؟

ورأى نفسه يعنى عبد الله إلى عبد المطلب فأحس عثيانا وبالأرض تدور به
وأنه يوشك أن يهار . وراحت القافلة الصغيرة تسير هونا لم يرتفع فيها صوت
الحادى وقد أطرقت لإبل برعوسها كأنما كانت تحس فداحة الخسارة التى
منيت بها قریش .

ورأى الربير جبال مكة العالية فلم يتהל بالفرح كما اعتاد أن يعرج كلما
وقعت عليها عيابه ، بل انقبض صدره وأسف على انتهاء الرحلة التى ود أن
تطول إلى الأبد حتى لا يعنى إلى عبد المطلب أحب ولده إلى قلبه .

وحطت لإبل بفناء الكعبة ونزل الزبير عن راحلته وذهب مطأطئ الرأس
إلى حيث يجلس عبد المطلب وأبأؤه وندماؤه . ورأى عبد المطلب الزبير وهو
قادم وحده فى وجهه أعمق الأسى فاشتد وجب قلبه وعرف فى لحظة كل
المأساة . ورأى الإحوة أخاهم الربير مهرعوا إليه ممزوعين قائلين :

— أين عبد الله ؟

وملأت الدموع عيني الزبير وقال فى صوت حزين وقد نكس رأسه :
— مات .

وسار الشيخ وقد انحنى طهره بين أبائته يكاد ينوء من الحزن وقد نزل
بفلوسهم هم ثقيل ، واطلق الجميع إلى بيت آمنة ليواسوها فى أفدح نكبة تنزل
بامرأة ، وما إن دخلوا عليها حتى فهمت كل شىء فامهارت الدموع من عينيها
وراحت تندب الزوج والحبيب ، وانتذت مكانا قصيا وراحت تقول :

عفا جانب البطحاء من زين هاشم

وجاور لحدا خارجا فى الغماغم

دعته المتابا دعوة فأجابه
وما تركت في الناس مثل ابن هاشم
عشيرة راحوا يحملون سريره
تعاوره أصحابه في التزاحم
فإن تلك عائلته المسون وريثها
فقد كان معطاء كثير التراحم

وداع في مكة حبر موت عبد الله فسكنت القبان عن العاء وساد الوجوم
ولبست المدينة المقدسة على فتاها الديبح ثوب الحداد ، وراح الناس يتساءلون
في عجب كائنات من قتل الربيع بن عبد المطلب : وميم كان المداء ؟ ولم
يفطن في مكة كلها إلى حكمة المداء غير رقيقة بنت نوفل فقد قالت في نفسها
أو في عبد الله غايته من الحياة بعد أن فداء الله عماته من الإبل ودخل عن آمنة بنت
وهب وأودعها ما كان يتألق في وجهه من سحر ونور .

تجهز جيش أبرهة لعزو الحجاز ليتصل نصارى الحبشة واليمن بنصارى الشام والقسطنطينية وليطلق الجميع إلى أرض فارس لوضع حد لحروب الناشئة بين الشرق والعرب ، بين المخوسية والمسيحية ، يفرق الصليب على وجه الأرض ، ولتدين البشرية بدين مختلف أهله وانقسموا إلى طوائف و فرق .

وجاء أبرهة بقيل من الحبشة امتطاء وسار به على رأس جيشه ، وداع بين العرب أن جيش أبرهة ما خرج من اليمن إلا ليهدم الكعبة ليجذب العرب إلى كنيسته وليفرض عليهم المصراية وليؤدهم جزاء وفاقا على انتهاك بعضهم حرمة كنيسته وتلصيحها بالدس ، ولم يفتن العرب إلى العرض السياسي الذى كان يريد تحقيقه فرأوا جهاده حقا عليهم .

ودعا ذو نفر رجالا من اليمن وكان من ملوكهم وأشرفهم ، فحف إلى قومه ومن أجابه من العرب وسار بهم لحرب أبرهة وصله عن البيت المقدس الذى جعله الله مثابة وأمنا .

والتقى جيش أبرهة برجال دى نمر ودار بين الجاهليين قتال استبسل فيه اليمنيون ومن استجاب لندائهم من سائر العرب ، ثم دارت الدائرة على اليمنيين وحاققت بهم الهزيمة وسقط ذو نفر أسيرا في يد جنود أبرهة .

وأقى به أسيرا إلى أبرهة فجعل يرميه بظفرات غاضبة ثم أمر بقتله ، فقال له ذو نفر :

— أيها الملك لا تقتلى فإنه عسى أن يكون بقضى معذ خير الملك من قتلى .
فأمر أبرهة أن يحبسوه عنده في وثاق ، ثم انطلق في أرض العرب حتى إذا
كان بأرض حثعم عرص له نفيل بن حبيب الحثعمي في قبيلتي حثعم شهرار
وباهس ومن تبعه من قبائل العرب .

كان نفيل والدين معه أدل من أن يصدوا رحف جيش الفيل ولكنهم وقفوا
في وجهه وقد شهروا سيوفهم وحاربوا عن بيتهم المقدس في شجاعة ، وسقط
الرجال قتلى يعطون أرض المعركة ولم يولوا الأديار ولم يروا عن مواقعهم ،
حتى سقط نفيل أسيرا في أيدي جنود أبرهة .

وسيق نفيل إلى حيث كان الملك فراح أبرهة يرميه بظنرات حامية ، ثم أمر
بقتله فقال له نفيل :

— أيها الملك لا تقتسى ، فإنى دليلك بأرض العرب

فحلى سبيله وخرج معه يدله . وبلغت الأنباء الطائف أن جيش أبرهة يدنو
وأنه ما خرج إلا ليهدم الكعبة ، فدحل الناس إلى معد اللات وأطلقوا البحور
وعجروا القرايين وسألوا آلهتهم أن ترفع عنهم عصب أبرهة ومقتته

ومر أبرهة بالطائف فخرج إليه مسعود بن مالك بن كعب بن عمرو بن
سعد بن عوف بن ثقيف فقالوا له :

— أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا لك
حلاف وليس بيتنا هذا الذي تريد ، إنما تريد البيت الذي عمكة ونحن سعد
معك مسدلك عليه .

ومرت سقيم إلى لاتها بمنقلب الحائ الخاسر

وتجاوز أبرهة عنهم فبعثوا معه أبا رعال يدله على الطريق إلى مكة .

وخرج أبرهة ومعه أبو رغال وقد امتلأ أبرهة غرورا عما استطاع أحد أن يصمد في وجهه وإن القبائل ترتجف منه فرقا وغلا منه رعبا إذا ما عاينت جيشه ورأته على رأس فيله شامحا بأفقه . ووقر في وجدانه أن ليس في الأرض ولا في السماء من قوة تحول بينه وبين هدم بين العرب والزحف إلى الشام ليتقوى بصارى الجنوب بصارى الشمال .

وحظر على رأسه أنها وثبة واحدة ثم ينقطع بحر حيط يشد العرب بعصمهم إلى بعض ، وثبة واحدة ثم تنفك كلمة العرب إلى الأبد ، فذلك البيت هو الخطر الذى قد تتجمع حوله قسائل العرب المتنافرة المتباغضة المتقاتلة يوما ما إذا وجدت الرعيم الخائى الذى يؤلف بين قلوبهم ويجمعهم بين دراعيه كما تجمع الدجاجة أفرانها تحت جناحيها .

وخرج أبرهة ومعه أبو رغال يدله على الطريق ، ولم يحاول أبو رغال أن يصلل جيش أبرهة كما فعل صالح يوم أن كان دليلا لجيش أوليوس عالوس ، بل سار بأبرهة على الطريق حتى أنزله المَعْمَس على طريق الطائف ومكة .

وعسكر أبرهة وراح يتأهب للوثبة الفاصدة . إنه يرى جبل ألى قيس والأحشيين جبلى مكة وإن هى إلا زحمة واحدة ويسوى بالأرض بيت العرب المقدس . وفيما هو عاكف على رسم مخططة جاءه من قال له : إن أبا رغال قد مات .

وقبر أبو رغال في المعْمَس ، وبعث أبرهة إلى الأسود بن مقصود وكان رجلا من الحبشة وأمره أن يعير على تهامة ليجس نبض المكيين ويعرف مقدار استعدادهم .

وأغار الأسود بن مقصود ومن معه من الفرسان على تهامة فأصاب مائتى بعير لعبد المطلب ، وساق أمامه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم . وبلغ

ذلك قريش فاجتمعت كنانة وهذيل ومن كلك بالحرم وعقدوا العرم على قتال من ارتكب إثم الإغارة على الأموال والإبل التي ترعى في حماية البيت المحرم . وصعد الرجال على الحبال ونظروا فإذا بجيش أبرهة يعطى وجه الأرض : حيل وإبر وبمير وميل عظيم لم يسبق لهم أن رأوا مثله على رأس جيش وجود لا قس لهم بها ، فعرفوا أنهم لا طاقة لهم بقتال هؤلاء القوم فأعرضوا عن فكرة القتال وانتظروا ما يسمر عنه الغد .

وجاء حنيفة الحميري إلى مكة وقال :

— أين سيد أهل هذا البلد وشريفها ؟

— ماذا تريد منه ؟

— أنا رسول الملك أبرهة إليه .

كان عبد المطلب جالسا على فراشه في ظل الكعبة ومن حوله سادات قريش وأبناؤها وندماؤه فأشير إليه ، وقيل لرسول أبرهة :

— إنه هالك .

ودهب حنيفة الحميري إلى حيث يجلس عبد المطلب . كان وحده على فراشه أبصر حسن الوجه في حسيه عز الملك ، فطمر إليه حنيفة أبرهة ثم قال :

— إن الملك يقول لك إني مأت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لي في دمائكم .

فالتفت عبد المطلب إلى من عنده ثم قال :

— والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة . هذا بيت الله الحرام وبيت حبيبة إبراهيم عليه السلام فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمة ، وإن يخل بيبه وبيته فوالله ما عندما دفع عنه .

فقال حنيفة وهو لا يكاد يصدق أذنيه :

— فانطلق معي إليه فإنه قد أمرني أن آتيه بك .

فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بيته ، وفي الطريق علم به عبد المطلب أن صديقه ذا نفر وقع أسيراً يد أبرهة وأنه قد حبس عنده ، فمأق العسكر سأل عن ذي نفر ودخل عليه وهو في محبسه فقال له :

— يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟

فقال ذو نفر وهو يطرق برأسه :

وما غناء رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله عدواً أو عشيّاً .

وما عدى غناء في شيء مما نزل بك إلا أن أنيساً سائس الفيل صديق لي وسأرسل إليه فأوصيه بك وأعظم عليه حقك أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك ويشفع لك بخير إن قدر على ذلك .

— حسبي .

فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له :

— إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة يطعم الدس بالسهل

والوحوش في رعوس الجبال ، وقد أصاب له الملك مايتى بعير فاستأذن له عليه وابعه بما استطعت .

— أفعل .

فكلم أنيس أبرهة فقال له :

— أيها الملك هذا سيد قريش يبابك يستأذن عليك ، وهو صاحب عين

مكة ، وهو يطعم الناس في السهل والوحوش في رعوس الجبال ، فأذن له عليك فليكلمك في حاجته .

فاعتدل أبرهة على سرير ملكه وقال :

— فليدخل .

ودخل عبد المطلب مديد القامة فخماً ، فقد كان أوسم الناس وأحلمهم وأعظمهم . فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه وأكرمه عن أن يجلس على سرير مدكه ، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جه ثم قال لترجمانه .

— قل له ما حاجتك ؟

فقال له ذلك الترجمان فقال :

— حاجتي أن يردّ على الملك مائتي بعير أصابها لي .

فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه :

— قل له قد كنت أعجبني حين رأيتك ، ثم زهدت فيك حين كلمني

أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو ديك ودين آباءك قد جئت لا تكلمني فيه .

— أنا رب الأبل وإن للبيت رباً سيمنعه .

— ما كان ليمتنع مني .

— أنت وذاك .

ودخل يعمر بن هاشم بن عدى سيد بني بكر ويتهى بسبه إلى كنانة ،

وخويلد بن واثلة المذليّ سيد هذيل ، واصموا إلى عبد المطلب وقالوا :

— لك ثلث أموان تهامة على أن ترجع عنا ولا تهدم البيت .

وأبى أبرهة عليهم وأمر أن يرد على عبد المطلب الإبل التي أصاب له ، فعاد

عبد المطلب بالإبل وبحرها جميعاً قربانا لله ، وأحمر قريش الخير وأمرهم

بالخروج من مكة والتحرز في رعوس الجبال والشعاب نحوها عليهم من مرة

الجيش .

وراح المكيون رجالا وساء وولندأنا وشيئا يرقون في الحبال ، وخرحت
آمنة بنت وهب وهانة بنت وهيب فبصر خرح من النساء . ووقفت آمنة على
جبل قبيس تنظر ولم تر تحيف مرقا بل طاف بها من وسلام .

ومس أذنيها ذلك الصوت الرفيق الذي هتف بها يوما مد سبعة أشهر
مصت : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فراحت الأفكار تدور في رأسها :
أتكون لعرب أمة إذا هدم بيتها ؟ قلبها يقول لها إن الله سيحمي بيته وإلا كان
ذلك الماتف بها وهما من الأوهام .

ودهب عبد المطلب إلى الكعبة وأخذ بحلقة باسها وقام معه نهر من قريش
يدعون الله ويستصرونه على أبرهة وحده ، فقال عبد المطلب :

لا هـــــــــــــــــم إن المرء يمـ	بع رحله فامسح رحالك
لا يعيسر صـــــــــــــــــلبيهم	ومحاهم أبـــــــــــــــــدا محالـ
إن كنت تاركهم وكعــــــــ	تسا فأمرا مسا بدالك
فكس فعلت فإـــــــــبه	أمر يتسم به فعبالك
اسمع بأرجس ما أرا	دوه وانتكسوا حلالك
جروا جميع بلادهم	والعيل كى يسوا عيالـك
عمدوا حماك بكيدهم	جهلا وما رقبوا جلالـك

ثم أرسل عبد المطلب حنقة الباب وانصق هو ومن معه من قريش إلى رعوس
الحال . وذهب عبد المطلب إلى حيث كانت آمنة وهالة ووقفوا ينتظرون ما
فعل أبرهة بمكة إذا دخلها .

وشخصت الأبصار إلى السماء ، سى الناس في شدمهم هيل واللات
والعري ومائة والأصنام المكدسة في جوف الكعبة واتجهوا دون وساطة إلى

رب السماء والأرض رب العالمين ، وراحوا يتهلون إلى الله أن يصبوهم وأن يبعد عنهم معرة جيش أبرهة ، وراحت أمة تدعو الله ليحمي بيته ويحفر المعتدين .

وأصبح الصباح ونهياً أبرهة لدخول مكة وهياً قبله وعماً حيشه ولم يبق إلا وثة واحدة ثم يهار البيت ويفتح الطريق إلى الشام ويتحقق حلم قيصر وجاء نقيل بن حبيب الخثعمي حتى جاء إلى جنب الفيل ثم أخذ بأذنه فقال :

— ارجع راشدا من حيث جئت فإني في بلد الله الحرام . ارجع راشدا من حيث جئت فإني في بلد الله الحرام .

ثم أرسل أذنه وخرج يشتد حتى أصد في الحبل . وأمر أبرهة بالتقدم وسحب أنيس الفيل وبكى الفيل أنى أن يتقدم . فضرىوا رأسه بالفأس ليتقدم فأبى . فأدخلوا حشية ما اعوجاج في بطنه فأموه بها فأبى أن يتقدم . فوجهوه راحعا إلى اليمن فراح يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة فوقف في مكانه لا يريم .

وأرسل الله عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فإذا بها تحدرهم جدرا . وتفشى الحدرى في عسكر أبرهة فراح أبرهة يسأل :

— أين نقيل بن حبيب ليدلنا على الطريق ؟

وارتفعت أصوات تنادى نقيل بن حبيب فقال نقيل :

أيئن المهر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس العالب وحرر الأحباش ينساقون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك على كل مهبل . وأصيب أبرهة في جسده وعاد يجر أذيال الإحفاق وقد أصبح كل أمه أن يصل إلى صعاء قبل أن يلفظ أنفاسه في الطريق ، بعد أن كان يقول وهو

مستفح الأوداح ليس في الأرض ولا في السماء قوة تمنعني من هدم البيت .

ورأى الناس وهم في رعوس الجبال أن الله قد حبس أبرهة وجيشه عن بيته وأنه قد هرم أعداءه وحده ، فارتفعت الابتهالات بالشكر حتى بلغت عباد السماء ، وعادت النسوة آمات فرحات إلى دورهن فلم تحققهن معرة جيش أبرهة ، وعادت آمة إلى دارها وقد أيقنت أن اهاتف الذي هتف بها أنها حملت بسيد هذه الأمة حق ، فقد حمى الله بيته لأمر دى بال ، وقد أصبحت تحس في وجدانها أن الله قد منع بيته ببركة ذلك الذي في يطمها .

وحرح رجال قريش في إثر قلول جيش أبرهة يبطرون ، ورأوا الأحباش يترحون ويسقطون كأنهم أعجاز نخل حاوية وقد عطت جشهم وحده الأرض ، وظلوا منطلقين فرحين حتى بلغوا المعسس ، ورأوا قرا إلى رعد الذي كان دليل أبرهة إلى البيت فراحوا يرحمون القبر بالحجارة ويلعنون الخائن الأثيم .

وتهلل عبد المطلب بالفرح وهافت عواطفه فقال :

أيها الداعي لقد أسمعني	ثم ما لي عن نداكم من صمم
إن البيت لربا مانعا	من يرده بأثم يصطم
رامه تبع فيم جسد	حمير والحي من آل قندم
فاثنى عنه وفي أوداجه	حارج أمسك منه ناكطم
قلت والأشرم تردى حيله	إن ذا الأشرم غر بأخرم

وداع في قبائل العرب أن الله رد الحشنة عن مكة وأصاهم بما أصاب به من

النقمة فأعظمت العرب قريشاً وقالوا :

— أهل الله قاتل الله عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم .

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الميل . ألم يجعل كيدهم في تضليل .
وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف
مأكول » .

كان كسرى أنوشروان في إيوانه يمكر في مكة فخطرت الحيرة على ذهبه فلم يعد عليها أحد من آل المنذر ، فقد ملث كسرى بن قبيصة الطائي عليها إلى أن يرى رأيهم فمكث مملكا عليها أشهراً ، ولم يجد كسرى أحداً يرصاه فقال .
— لأبعث إلى الحيرة اثني عشر ألفاً من الأساورة ، ولأملك عليهم رجلاً من الفرس ، ولأمرتهم أن يزلوا على العرب في دروهم ويملكوا عليهم أموالهم ونساءهم .

وكان عدى بن زيد واقفاً بين يديه فأقبل عليه وقال :

— ويحك يا عدى ! من بقي من آل المنذر ؟ وهل فيهم أحد فيه خير ؟

— نعم أيها الملك اسعيد إن في ولد المنذر بقية ، وفيهم كلهم خير .

— ابعث إليهم فأحضرهم

فبعث عدى إليهم فأحضرهم وأمرهم جميعاً عنده ، ثم بعث إلى العمان

وكان قد تزوج هندا ابنته وقال له :

— لست أملك غيرك فلا يوحشك ما أفصل به إخوانك عليك من

الكرامة ، فأني إنما أغترهم بذلك .

وراح يفضل إخوانه جميعاً عليه في البرل والإكرام والملازمة ويربهم تنقضا

للعمان ، وأنه غير طامع في تمام أمر عبيده ، وجعل يحلوهم رجلاً رجلاً

فيقول :

— إذا أدخلتكم على الملك فالبسوا أخيراً ثيابكم وأحملها ، وإدعوا لكم

بالطعام لتأكلوا فتباطئوا في الأكل وصعروا النقم وبرزوا ما تأكلون ، فإذا قال لكم : أتكفوني العرب ؟ فقولوا : نعم . فإذا قال لكم : فإن شدد أحدكم عن الطاعة وأفسد أتكفوبيه ؟ فقولوا : لا . إن بعضا لا يقدر على بعض ، ليهابكم ولا يطمع في تفرقكم ، ويعلم أن للعرب معة وبأسا فقبلوا منه ، وخلا بالعمان فقال له :

— الس ثياب السمر وادخل متقلدا سيفك ، وإذا حسنت للأكل فعظم النقم وأسرع المصغ والبلع ورد في الأكل وتجويع قبل ذلك ، فإن كسرى يعجبه كثرة الأكل من العرب خاصة ، ويرى أن لا حير في العري إذا لم يكن أكولا شرها ولا سيما إذا رأى غير طعامه وما لا عهد له بمثله ، وإذا سألك هل تكفيي العرب ؟ فقل : نعم . فإذا قال لك : فس لي بإحوتك ؟ فقل له : إن عجزت فإني عن غيرهم لأعجز .

وحاء بنو مرينا إلى الأسود بن المندر وكانوا قد أَرْضَعُوهُ فِيهِمْ وَرَبُّوهُ ، وحلأ به عدى بن مرينا فسأله عما أوصاه به عدى فأخبره ، فقال :

— عَشْكَ وَالصَّليبَ وَالْمَعْمُودِيَّةَ وَمَا نَصَحَكَ . وَلَئِنْ أَطَعْتَنِي تَحَالَصَ كُلُّ مَا أَمُرُكَ بِهِ وَتَهْلِكُ ، وَلَئِنْ عَصَيْتَنِي لَيَمُوتَنَّ الْعُمَانُ ، وَلَا يَعْرِفُكَ مَا أَرَاكَ مِنَ الْإِكْرَامِ وَالتَّمْضِيلِ عَلَى الْعُمَانِ فَإِنَّ ذَلِكَ دَهَاءٌ فِيهِ وَمَكْرٌ ، وَإِنْ هَذِهِ الْمُعْذِيَّةُ لَا تَخْلُو مِنْ مَكْرٍ وَحِيلَةٍ .

— إِنْ عَدِيَا لَمْ يَأْتِنِي نَصِيحَا وَهُوَ أَعْلَمُ بِكَسْرِي مِنْكَ ، وَإِنْ حَالَفْتَهُ أَوْ حَشَشْتَهُ وَأَفْسَدَ عَلَيَّ ، وَهُوَ جَاءَ بِنَا وَوَصَفَا وَإِلَى قَوْلِهِ يَرْجِعُ كَسْرَى . وَرَاحَ الرَّحْلُ يَبْدُلُ لِلْأَسْوَدِ الصَّيْحَةَ وَالْأَسْوَدُ مَعْرُضٌ عَنْهُ ، فَلَمَّا أَيْسَ مِنْ قَوْلِهِ مَهْ قَالَ :

— سَتَعْنَمُ .

ودعا هم كسرى فلما دحجوا عليه أعجبه جمالهم وكألهم ، ورأى رجالا
فلما رأى مثلهم ، فدعا هم بالطعام ففعلوا ما أمرهم به عدى ، فحمل ينظر إلى
العمان من بينهم ويتأمل أكله ، فقال لعدى بالمأرسية .
— إن يكن في أحدهم خير ففى هذا .

لما غسلوا أيديهم راح يوعد بهم رجلا رجلا فيقول له :
— أتكفينى العرب ؟

— نعم أكفيكها كلها إلا إحقى .

ودخل العمان آخر من دخل عليه وهو في ثياب السمر متقلدا سيفه ، فراح
كسرى يرنو إليه في إعجاب وإن كان أحر أبرش قصيرا ولم يكن في مثل جمال
إحقى « الأشاهب » ، وإن كانت أمه يهودية من أهل فذك ، فما كان الفرس
يصطهدون اليهود كما يفعل الروم ، ثم قال له :
— أتكفينى العرب ؟

— نعم .

— فكيف لى بإخوتك .

— إن عحرت عنهم فأنا عن غيرهم أعجز .

فملكه كسرى على الخيرة وخلع عليه وألنسه تاجا قيمته سنون ألف درهم
فيه اللؤلؤ والذهب .

فلما خرج وقد منك قال عدى بن مريتا للأسود :

— دونك عقبى خلافتك لى .

وحشى عدى بن زيد مكر عدى بن مريتا ، فصنع عدى بن زيد طعاما
وأرسل إلى ابن مريتا أن اتشى عن أحببت فإن لى حاجة
فأتى ابن مريتا فى ناس فتغذوا ، فقال عدى بن زيد لابن مريتا :

— يا عدى إن أحق من عرف الحق ثم لم يلم عليه من كان مثلك ، وإن قد
عرفت أن صاحبك الأسود بن المذر كان أحب إليك أن يُملِّك من صاحبي
النعمان ، فلا تلمس على شيء كنت على مثله ، وأنا أحب ألا تحقد على شيئا لو
قدرت عليه ركبته . وأنا أحب أن تعطي من نفسك ما أعطيك من نفسي
فإن نصيبى في هذا الأمر ليس بأوفر من نصيبك .

وقام فحلف ألا يهجوهُ أبدا ولا يبعه عاتلة ولا يزوى عنه خيرا أبدا ، فلما
فرغ عدى بن زيد قام عدى بن مرينا فحلف بمثل يمينه وإن كان قلبه لم يصمح
أبدا .

وخرج النعمان حتى نزل الحيرة ودخل قصر الخورنق ، فقل عدى بن
مرينا لعدى بن زيد :

ألا بلغ عديبا عن عدى
فلا تجرع وإن رثت (ضعفت) قواكا
هياكلنا تبرك غير فقر
لتحمدا أو يتم بها غنساكا
فإن تظمر فلم تظمر حميدا
وإن تعبط فلا يبعد سواكا
ندمت ندامة الكسعى^(١) لما
رأت عيناك ما صنعت يداكا
وعاد عدى بن مرينا والأسود إلى الحيرة فقال ابن مرينا للأسود :

(١) الكسعى نسبة إلى كسيع حى من قبس عيلان وهو رجل رام رمى بعد ما أظلم
الليل غير أنه أصابه وطمأن أنه أحاطة فكسر قوسه ، ثم ندم من العد حين نظر إلى العير مقتولا
وسهمه فيه .

— أما إذا لم نطهر فلا نعجز أن نطلب بتأرك من هذا المعدي الذي فعل بك ما فعل ، فقد كنت أخبرتك أن معدًا لا ينام كيدها ومكرها وأمرتك أن تعصيه فحالفني .

— فما تريد ؟

— أريد ألا تأتيك فائدة من مالك وأرسلك إلا عرضتها علي .

كان ابن مرييا كثير المال والصيغة وقد عزم أن يستخدم ماله ومال الأسود وبنى المنذر في القصاء على عدى بن ريد الذي أطار الملك من يد من أرصعوه وربوه ، فلم يكن في ندهر يوم يأتي إلا على باب العمعان هدية من ابن مرييا ، فصر من أكرم الناس عليه حتى كان لا يقصى في ملكه شيئًا إلا بأمر ابن مريينا .

وكان عدى بن ريد يترك قصر كسرى ويخرج من المدائن إلى الخيرة للصيد مع العمعان . وفي ذات يوم خرج عدى مع النعمان وخدمه وحشمه فمروا بشجرة فقال له عدى :

— أيها الملك أتدري ما تقول هذه الشجرة ؟

— لا .

— تقول :

رب ركب قد أباحوا عدا يشربون الخمر بالماء الزلال

عصف الدهر بهم فانقرضوا وكذاك الدهر حالا بعد حال

ثم جاؤوا الشجرة فمر بمقبرة ، فقال له عدى :

— أيها الملك أتدري ما تقول هذه المقبرة ؟

— لا .

— تقول :

أيها الرك المحبو ن على الأرض امجدون

فكمما أنتم كننا وكما نحن تكبون

— إن الشجرة والمقبرة لا يتكلمان ، وقد عمت أنك إنما أردت عظمي .

فما السبل التي تدرك بها النجاة ؟

— تدع عبادة الأوثان وتعبد الله ، وتدين بدين المسيح عيسى بن مريم

— أو في هذا السجاة ؟

— نعم .

ودهب العمان إلى المدائن يحمل الخراج لكسرى ، فمما دخل عليه وجد
عده وفود الروم والهند والصين وقد أحد كل واحد يذكر في فخر ملوكهم
وبلادهم ، فالتفت كسرى إلى العمان وقد أحدثه عزة الملك .

— يا عمان لقد ذكرت في أمر العرب وغيرهم من الأمم ، وبظرب في
حل من يقدم عني من وفود الأمم فوجدت الروم لها حظ في اجتماع أنفها
وعظم سلطانها وكثرة مدائنها ووثيق بيابها ، وأن لها ديب يبين حلالها وحرامها
ويرد سقمها ويقم حاجتها ؛ ورأيت هند نحو من ذلك في حكمتها وطمعها .
مع كثرة أهار بلادهم وثمارها وعجيب صاعاتها وطيب أشجارها ودقيق
حسابها وكثرة عددها .

وكذلك الصين في اجتماعها وكثرة صاعات أيديها وفروسيها وهمتها في آلة
الحرب وصناعة الحديد ، وأن لها ملك يجمعها ؛ والترك والخر على ما هم من
سوء الحال وقلة الريف والثار والحصون وما هو رأس عمارة الدنيا من
امساكن والملابس ، هم ملوك تضم فواصهم وتدير أمرهم . ولم أر عرب
شيئا من حصال الخير من أمر دين ولا دنيا ولا حرم ولا قوة .

ومع أن ما يدل على مهانتها ودها وصغر همتها ملحتهم التي هم بها مع

الوحوش النافرة والطير الحائرة ، يقتنون أولادهم من الفاقة ، ويأكل بعضهم بعضا من الحاجة ، قد حرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها ولذاتها ، فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الإبل التي يعافها كثير من السباع لتقنها وسوء طعمها وحواف دائها . وإن قرى أحدهم صبيعا عندها مكرمة ، وإن أطعم أكلة عندها غنيمة ، تنطق بذلك أشعارهم وتفتخر بذلك رحالهم . ما خلا هذه التلويحية التي أسس جدى اجتماعها وشد ممكنتها ومعها من عدوها . ثم لا أراكم تستكبيون على ما بكم من الدلة والقلة والفاقة والبؤس ، حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس .
وأحسن العمان مهانة ، ورأى أن يرد على كسرى وأن يلقمه حجرا وليكن ما يكون ، فقال :

— أصلح الله الملك ، حق لأمة الملك بها أن يسمو فصلها ويعظم حظها وتعلو درجتها ، إلا أن عندي جوابا في كل ما نطق به الملك في غير رد عليه ولا تكذيب له ، فإن أمتنى من غصبه نطقت به .
— قل فأنت آمن

— أما أمتك أيها الملك فليست تارح في الفصل لموضعها الذي هي به من عقوها وأحلامها وبسطة محبها وبحبوحة عزها وما أكرمها الله به من ولاية آلائك وولايتك . وأم الأمم التي ذكرت فأى أمة نقرها بالعرب إلا فصلتها .
بماذا ؟

— بعزها ومعنتها وحسن وجوها وبأسها وسجائنها وحكمة ألسنتها وشدة عقوها وأمتها ووفائها .

وأما عرها ومعنتها فإنها لم تزل محاورة لآلائك لدين دوحوا البلاد ووطدوا الملك وقادوا الخلد لم يطمع فيهم طامع ولا يلهم نائل ، حصومهم ظهور حيلهم

ومهادهم الأرض وسفوفهم السماء وحتهم السيوف وعدتهم النصر ، يد
غيرها من الأمم إنما عرّها الحجارة والطين وجرائر الحور .

وأما حسن وجوها وألوانها فقد يعرف فضهم في ذلك على غيرهم ، من
الهند المحرقة والصين المسحقة والترك المشوهة والروم المقشرة .

وأما أسماها وأحسامها فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها
وكثيرا من أولها ، حتى أن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه دينا فلا يسره ولا
يعرفه ، وليس أحد من العرب إلا يسمى آباءه أبا فأبا أحاطوا بذلك أحسامهم
وحفوا به أنسابهم ، فلا يدخل رجل في غير قومه ولا يتنسب إلى غير نسبه ولا
يدعى إلى غير أبيه .

وأما سحاؤها فإن أدناسهم رجلا الذي تكون عنده الكرة والتاب عليها
بلاعه في حمونه وشبعه ورثه ، فيطرقة الطارق الذي يكفى بالصدمة ويختري
بالبشرية ، فيعقرها له ويرصى له أن يخرج عن ديباه كلها فيما يكسبه حسن
الأحدوثة وطيب الذكر .

وأما حكمة ألسنتهم فإن الله أعطاهم في أشعارهم ورويق كلامهم وحسنه
وزوره وقوافيه مع معرفتهم بالأشياء وصرهم للأمثال وإبلاغهم في الصفات ما
ليس لشيء من ألسنة الأجناس . ثم حبيهم أفصل الخيل ، وسأؤهم أعف
النساء ، ولباسهم أفصل الناس ، ومعادهم الذهب والفضة ، وحجارة
جبالهم الخزع ، ومطايياهم التي لا يبدع على مثلها سفن ولا يقطع مثلها بلد
قفر .

وأما ديبها وشريعتها فإنهم متمسكون به حتى يبلغ أحدهم من تمسكه بديبه
أن هم أشهراً حرماً وبلداً محرماً وبيتاً محجوجاً يسكنون فيه مناسكهم ويدعون
فيه دبائحهم ، فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أحد ثأره وإدراك

رغمه منه فيحجره كرمه ويمنعه ديه عن تناوله بأدى .

وأما وعاؤها فإن أحدهم يحط اللحظة ويومئ الإيماء فهي ولث
(عهد) وعقدة لا يخلها إلا حروح نفسه ، وإن أحدهم يرفع عودا من
الأرض فيكون رها بديه فلا يعلق ولا تُخفر دمنه ، وإن أحدهم ليبلغه أن
رحلا استجار به وعسى أن يكون نائيا عن داره فيصاب فلا يرصى حتى يصي
تلك القبيلة التي أصابته أو نفس قبيلته لما أحمر (عدر) من حوار ، وإيه ليلجا
إليهم المخرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم
دون ماله .

وأما قولك : إن أفضل طعامهم لحوم الإبل على ما وصفت منها ، فما
تركوا ما دوما إلا احتقاراً به ، فعمدوا إلى أحلها وأفضيها فكانت مراكمهم
وطعامهم ، مع أنها أكثر البهائم شحوما وأطيبها لحوما وأرقها ألباناً وأندى عائدة
وأحلاها مصعة ، وإيه لا شيء من المحمد يعالج ما يعالج به لحمها إلا استئان
فصنها عليه .

وأما تحارسهم وأكل بعضهم بعضاً وتركهم الأتقياد لرحل يسوسهم
ويجمعهم فإما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أنست من نفسها صعباً
ونخوت هوى عدوها إليها بالرحف وإيه إنما يكون في المسكة العطيمة أهل
بيت واحد يعرف فصدهم على سائر غيرهم فيلقون إليهم أمورهم ويقادون لهم
بأرمتهم ، وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم حتى حاولوا أن يكونوا ملوكاً
أجمعين ، مع أنفتهم من أداء الخراج والوظف (الأحد منهم) بانعسف .
وعجب كسرى لما أجابه النعمان به وقال :

— إنك لأهل لموضعك من الرياسة في أهل إقيمك وما هو أفضل .

ثم كساه كسوته وسرحه إلى موضعه بالخيرة ، فلما قدم النعمان الخيرة

وفي النفس ما فيها مما سمع من كسرى من تقص العرب وتهيئ أمرهم ، بعث
أكثرهم بن صيفى وحاجب ابن زرارة التميميين ، وإلى الحارث بن ظالم وقيس بن
مسعود البكريين ، وإلى خالد بن جعفر وعقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل ،
وإلى عمرو بن الشريد السلمي وعمرو بن معد يكرب لزيدي ، والحارث بن
ظالم المري ، فلما قدموا عليه في الخورنق قال لهم :

— قد عرفتم هذه الأعاجم وقرب جوار العرب منها ، وقد سمعت من
كسرى مقالات تخوفت أن يكون لها عور ويكون إنما أظهرها لأمر أراد أن
يتخذ به العرب حولا كعص طماطمة (من في لسانه عجمة) في تأديتهم
الخراح إليه كما يفعل مملوك الأمم الذين حوله .

فاقتص عليهم مقالات كسرى وما رد عليهم فقالوا :

— أيها الملك وفقك الله ! ما أحسن ما رددت وأبلغ ما حججته به ، فمرنا
بأمرك وادعنا إلى ماشئت .

— إنما أنا رجل منكم وإنما منكوت وعزرت بمكانكم وما يتخوف من
ماحيثكم ، وليس شيء أحب إلي مما سدد الله به أمركم وأصلح به شأنكم وأدام
به عزكم ، والرأي أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتطلقوا إلى كسرى فإذا
دحتم بطق كل رجل منكم بما حصره ليعلم أن العرب على غير ما طس أو حدثه
نفسه ، ولا يطق رجل منكم بما يعصه فإنه منك عظيم السطان كثير
الأعوان مترف معجب بنفسه ، ولا تحذلوا له الحدال الخاصع الدليل ،
وليكن أمر بين ذلك تطهر به وثاقة حلومكم وفصل منزلتكم وعظيم
أحطاركم . وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام أكثرهم بن صيفى لسن حاله ، ثم
تتابعوا على الأمر من مار لكم التي وصعت بها ، فإنما دعاني إلى التقدمة إليكم
علمي بحميل كل رجل منكم على التقدم قبل صاحبه ، فلا يكون ذلك منكم

فيجد في آدابكم مطعما فإنه منك قادر مسبط .

ثم دعا لهم بما في خزانته من طرائف حل الملك كل رجل منهم حنة وعمامة وحتمه بياقوتة ، وأمر لكل رجل منهم بنحية مهيبة وقرص نحية ، وكتب معهم كتابا : « أما بعد ، فإن الملك ألقى إلى من أمر العرب ما قد علم ، وأجبت بما قد فهم ، بما أحببت أن يكون منه عني علم ولا يتلجج في نفسه أن أمة من الأمم التي احتجرت دونه بمملكته وحملت ما يليها بفضل قوسها تبلعها في شيء من الأمور التي يتعذر بها ذوو الخزم والقرة والتدير والمكيدة ، وقد أوفدت أيها الملك رهطا من العرب لهم فضل في أحسابهم وأنسابهم وعقوبهم وآدابهم ، فيسمع الملك وليعامص عن جماء إن ظهر من منطلقهم ، وليكرمني بإكرامهم وتعجيل سراحهم ، وقد نستهم في أسفل كتابي إلى عشائريهم .

فخرج القوم في أصهبهم حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن ، فدفعوا إليه كتاب العمان فقرأه وأمر بإبراهيم ، إلى أن يجلس هم مجلسا يسمع منهم . فلما كان بعد ذلك بأيام أمر مرارته ووجوه أهل مملكته محضروا وجلسوا على كرامتي عن يمينه وشماله ، ثم دعا بهم على الولاء والمرتبة التي وصفهم العمان بها في كتابه ، وأقام الترجمان ليؤدي إليه كلامهم ثم أذن لهم في الكلام فقام أكرمهم بن صيني فقال :

— إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكها ، وأفضل الملوك أعمها نفعا ، وخير الأرملة أحصيا وأفضل الخطباء أصدقها . الصدق منجاة ، والكذب مهواة ، والشر لجاجة ، والخزم مركب صعب ، والعجز مركب وطيء . آفة الرأي الهوى ، ولعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر . حسن الطل ورطة ، وسوء النظر عصمة . إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي من سدت بطانته كان كالغاص بالماء ، شر البلاد

بلاد لا أمير فيها . شر المنوك من حافة البرىء . المرء يعجز لا محالة . أفصل الأولاد البررة .

خير الأعوان من لم يراء بالصيحة ، أحق الخوود بالنصر من حسنت سريره . يكفيه من الراد ما يبعث المحل . حسبك من شر سماعة . الصمت حكم وقليل فاعله البلاغة الإيجاز . من شدد نقر ، ومن تراحم تألف . فتعجب كسرى من أكم ، ثم قال :

— ويحك يا أكم ما أحكمك وأوثق كلامك ، لولا وضعت كلامك في غير موضعه .

قال أكم :

— الصديق ينسئ عندك لا الوعيد

قال كسرى :

— لو لم يكن للعرب غيرك لكفى .

قال أكم :

— رب قول أهد من صول (الوثبة عند الخصومة) .

ثم قام حاجب من زرارة لقيمي فقال :

— ورى ريدك وعنت يدك ، وهيب سلطانك . إن العرب أمة قد غلظت

أكبادها ، واستحصدت مرعبا (القوة) ، ومعت درتها ، وهى لك وامقة ما

تألعتها ، مسترسلة ما لايسها ، سامعة ما ساحتها . وهى العلقم مرارة ، وهى

الصاب غصاصة ، والعسل حلاوة ، والماء الرلال سلاسة .

نحن وفودها إليك ، وألستها لديك . ذمتنا محموظة ، وأحسابنا ممنوعة .

وعشائربا هيا سامعة مطيعة . إن نوب لك حامدين حيرا فلك بذلك عموم

محمّدتنا ، وإن تدم لم نخص بالدم دوسها .

قال كسرى :

— يا حاجب ما أشبه حجر التلال بألوان صحرها

قال حاجب :

— بل رثير الأسد بصولتها .

قال كسرى :

— وذلك .

ثم قام الخارث بن عمار البكرى فقال :

— دامت المملكة باستكمال جريل حظها ، وعلو سائها . من طان

رشاؤه (حيله) كثير مسخه (استقصاؤه) ، ومن ذهب ماله قل منحه .

ناقل الأقاويل يعرف لب ، وهذا مقام سيوجف (يصطرب) مما تنطق به

الركب ، ونعرف به كنه حالنا المعجم والعرب . ونحن جيرانك الأدبون ،

وأعوانك المعيون ، حيوننا حمة ، وحيوشا فحمة . إن استحدثنا فعير ريص

(غير مقصرين) ، وإن استطرقتنا فعير خهص . (غير ماعين) ، وإن

طلتتنا فعير عمص . لا شئ لدعر ، ولا شكر لدهر . رماحنا صوال ،

وأعمارنا قصر .

قال كسرى :

— لو قصر عمرك لم تستول على لسانك نفسك .

قال الخارث :

— أيها الملك إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتيبة مغررا بنفسه على

الموت ، فهي مية استقيدها ، وحنان استديرها . والعرب تعلم أني أبعث

العرب قدما وأحبسها وهي تصرف بها ، حتى إذا جاشت نارها ، وسعرت

لظاها ، وكشفت عن ساقها ، جعلت مقادها رمحي ، وبرقها سيفي .

ورعدها رثى ، ولم أقصر عن حوى ضحاحها ، حتى أنعمس في عمراب
جبحها ، وأكون فلكا لمرسانى إلى بحوحة كبشها ، فأستمطرها دما ، وأترك
حمامها جزر السباع وكل سر قشعم (مس) .

فالتفت كسرى لمن حضره من العرب وقال :

— أكذاك هو ؟

قالوا :

— فعاله أنطق من لسانه .

قال كسرى :

— ما رأيت كاليوم ، وهذا أحشد ، ولا شهودا أوفد .

ثم قام عمرو بن الشريد السلمى فقال :

— أيها الملك نعم بالك ، ودام في السرور خالك ، إن عاقبة الكلام

متدرة ، وأشكال الأمور معترة ، وفي كثير ثقلة ، وفي قليل بُلغة (ما يتبع

به) . وفي ملوك سورة العر وهذا مطلق له ما بعده ، شرف فيه من شرف

وحمل فيه من حمل ، لم تأت لصيمك ، ولم نقد لسحطك ، ولم تتعرض

لرعدك (لعطائك) . إن في أموالنا منتقدا ، وعلى عرنا معتمدا ، إن أورينا درا

أثقتنا ، وإن أرود (أرفق) دهر بنا اعتدلا ، إلا أنامع هد الحوارك حافظون ،

ولم رامك كاعمجون ، حتى يحمد الصدر ، ويستطاب الخبر .

قال كسرى :

— ما يقوم قصد مطلقك بإفراطك ، ولا مدحك بدمك .

قال عمرو :

— كفى نليل قصدى هاديا ، وبأسر اقراضى محرا ، ولم يسم من عزبت

نفسه عما يعلم ، ورصى من القصدى يدع .

قال كسرى :

— ما كل ما يعرف المرء يطق به ، اجلس .

ثم قام خالد بن جعفر الكلاني فقال :

— أحضر الله الملك إسعادا ، وأرشدته إرشادا . إن لكل منطق فرصة ، ولكل حاجة غصة ، وعي المنطق أشد من عي اسكوت ، وعثار القول أنكأ من عثار الوعث ، وما فرصة المنطق عدوا إلا بما نهوى ، وعصة المنطق بما لا نهوى غير مساغة ، وتركى ما أعلم من نفسى ويعلم من سمعى أسى له مطيق ، أحب إلى من تكأنى ما أتخوف ويتخوف منى .

وقد أوفدنا إليك ملكنا النعمان ، وهو لك من خير الأعوان ، ونعم حامل المعروف والإحسان ، أنفسنا بالطاعة لك يا حجة ، ورقابنا بالنصيحة خاضعة ، وأيدينا لك بالوفاء رهينة .

قال له كسرى :

— نطفت بعقل ، وسموت بعصل ، وعلوت بببل .

ثم قام علقمة بن علاثة العامري فقال :

— نهجت لك سبل الرشاد ، وحصعت لك رقاب العباد . إن للأقاييل مناهج ، وللآراء مدالج ، وللعويس مخارج . وحر القول أصدقه ، وأفضل الطلب أنجح . إنا وإن كانت المحبة أحضرتنا ، والوفادة قربتنا ، فليس من حصرك منا بأفضل ممن عزب عنك ، بل لو قست كل رجل منهم ، وعلمت منهم ما علما ، لو جدت له في آباءه دنيا أودادا وأكماء كلهم إلى الفضل منسوب ، وبالشرف والسؤدد موصوف ، وبالرأى الفاضل والأدب السافد معروف ، يحمى حماه ، ويروى بداماه ، ويندود أعداءه ، لا تحمد ناره ، ولا يحتتر منه . جاره .

أيها الملك ، من يبل العرب يعرف فضلهم ، فاصططح العرب فإسهم الحبال
الرواسي عرا ، والبحور الزواجر طميا ، والنجوم الرواهر شرفا ، والخصي
عددا ، فإن تعرف لهم فضلهم يعزوك ، وإن تستصرخهم لا يخلوك .
قال كسرى وخشى أن يأتي منه كلام يحمله على المسخط عليه :
— حبسك ، أبلغت وأحسنت .

ثم قام قيس بن مسعود الشيباني فقال :
— أطاب الله بك المرشد ، وحبك المصائب ، ووقاك مكروه النصائب
(الشدائد) . ما أحقنا إذا أتيناك بإسماعث ما لا يحق صدرك ، ولا يزرع
حقدا في قلبك . لم نقدم أيها الملك لمساماة ، ولم ننتسب لمعاداة ، ولكن لتعلم
أنت ورعيتك ومن حضرك من وهود الأمم أنا في المطلق غير محجيين ، وفي
الناس غير مقصيرين . إن جورينا فغير مسبوقين ، وإن سومينا فغير مغنوين .
وتذكر كسرى أن قيس ترك الوفاء بضمائه السواد ، فقال :
— غير أنكم إذا عاهدتم فغير وافين .

قال قيس :
— أيها الملك ما كنت في داك إلا كواف غدربه ، أو كخافر أحفر بدمته .
— ما يكون لضعيف صمان ، ولا لدليل حفارة .
— أيها الملك ما أما فيما أحمر من ذمتي ، أحق بإلزامي العار منث فيما قتل
من رعيتك ، وانتك من حرمتك .

— ذلك من اتمن الخانة واستجد الأئمة ، ناله من الخطأ ما نالني . وليس
كل الناس سواء . كيف رأيت حاجب بن ررارة لم يحكم قواه فيرم ، ويعهد
فيوي ، ويعد فينجر .

— وما أحقه بذلك وما رأيتة إلا لي .

— القول بدل ما فضلها أشدها .

ثم قام عامر بن الطفيل العامري فقال :

— كثر فنون المطلق ، وليس القول أعمى من جندس الظمء وإنما الفجر في العمال . والعجر في السحرة ، والسؤدد مطاوعة القدرة ، وما أعلمك بقدرنا ، وأبصرك بمصلنا ، وبالحرى إن أدالت الأيام ، وثابت الأحلام ، أن تحدث لنا أمورا لها أعلام

قال كسرى :

— وما تلك الأعلام ؟

— مجتمع الأحياء من ربيعة ومصر ، على أمر يذكر .

— وما الأمر الذي يذكر ؟

— ما لي عنم بأكثر مما خبرني به مخبر .

كان عامر بن الطفيل قد سمع من أحبار يهود وكهان الصاري والمحميين أن سيا يوشك أن يولد في العرب ، يجمع ما سافر من قبائل العرب ، يجرهم من الظلمات إلى النور ويرفعهم فوق العالمين وقد لمح إلى ما سمع فقال له كسرى :

— متى تكاهنت يا بن الطفيل ؟

— لست بكاهر ، ولكني بالرح طاعن .

— فإن أتاك آت من جهة عيبك العوراء ما أت صانع ؟

— ما هييتي في قفاى بدون هييتي في وجهي ، وما أذهب عيبي في عيب ولكن مطاوعة العيب .

ثم قام عمرو بن معد يكرب الزبيدي فقال :

— إنما المرء بأصعريه قسه ولسانه ، فبلاغ المطلق الصواب ، وملاك السحرة

الارتياذ ، وعمو الرأى خير من استكراه المكرة ، وتوقيف الخيرة خير من
اعتساف الخيرة ، فاجتد (اجتذب) طاعتنا بلفظك ، واكتظم بادرنا
بحملك ، وألن لنا كملك (حابك) ، يسلس لك قيادنا ، يوقس صفاتنا قراع
منعير من أراد لنا قصما ، ونكس معنا حمانا من كل رام لنا هصما

ثم قام الحارث بن ظالم المرى فقال :

— إن من آفة المنطق الكذب ، ومن لؤم الأخلاق الملق ، ومن حطل الرأى
حمة الملك المسلط ، فإن أعدمناك أن مواجعتنا لك عن ائتلاف ، وإيادنا لك
عن تصاف ، ما أنت بقول ديك ما بحقيق ، ولا اعتماد عنيه بحقيق . ولكن
الوفاء بالعهود ، وإحكام ولث العقود ، والأمر ببسا وببيك معتدل ، ما لم يأت
من قبلك ميل أو زلل .

قال كسرى :

— من أنت ؟

— الحارث بن ظالم .

— إن في أسماء آبائك لدليلا على قلة وفائك ، وأن تكون أولى بالفدر وأقرب

من الوزر .

— إن في الحق معصية ، والسر والتعافل ، ولن يستوجب أحد الحلم إلا مع

القدرة ، فنشبه أفعالك مجلسك .

قال كسرى :

— هذا فتى القوم .

ثم قال :

— قد فهمت ما نطقت به حطباؤكم وتفنى فيه متكلموكم . ولولا أنى أعدم

أن الأدب لم يثقف أودكم (اعوجاجكم) ، ولم يحكم أمركم ، وإنه ليس ملك

يجمعكم فتطوقون عده مطوق الرعية الخاضعة اليها ، فمطقتما عما استولى على ألسنتكم ، وغلب على طباعكم ، لم أجر لكم كثيرا مما تكلمتم به ، وإني أكره أن أحبه وهودي أو أصيق صدورهم ، والذي أحب من إصلاح مديركم ، وتآلف شوادكم ، والإعداد إلى الله فيما بيني وبينكم . وقد قبلت فيما كان من منطلقكم من صواب ، وصمحت عما كان فيه من خلل ، فاصبروا إلى مدرككم فأحسوا مؤازرته ، والتموا طاعته ، وادعوا سفهاءكم وأقيموا أودكم ، وأحسوا أدبكم ، فإن في ذلك صلاح العامة .

كان كسرى يتكلم في ثقة وغرور ، ولو احترقت أبصاره حجب العيب لرأى مولد النبي الذي لمح إليه ابن الطفيل في دار من دور مكة ، ولرأى هؤلاء العرب الذين كان يعيرهم بأن ليس لهم ملك يجمعهم ولا أدب يثقف أعز حاجهم ، وقد جمعهم ذلك السبي ودفعهم الدين الذي جاءهم به إلى عرو فارس وانتراع سرير الملك من أحفاده ، حتى تتحقق نوبة ساسان ووصية ررادشت ، ولو تفرس في العيب طويلا لرأى عمرو بن معد يكرب ذلك الشاب الذي قال فأوجر يجد في أثر فنول جيوش الفرس حتى المدائن : « وأورشاهما قوما آخرين » .

راح جيش أبرهة يتفقهق وقد حملت فلول الجيش ملكهم الذى هذه
لمرض، وكانت أنامله تسقط أثملة أثملة حتى قدموا به صعاء وهو مثل فرخ الطائر،
يصدع صدره عن قلبه وزمقت روحه يملك على اليمن من بعده ابنه يكسوم.
أبى الله أن ينصر أبرهة حتى لا يجرى السسى على رسوله حملا ووليدا، فبو
ظفر أبرهة بمكة هدم البيت وقتل الرجال وسبى النساء، ولساق آمنة بنت
وهب إلى صعاء فيمس سيمسوق من النساء، أو بعث بها إلى سوق من أسواق
الرقيق لتباع بضاعة هى وذلك الذى حملته وبشرت به يوم أن حملته بأها قد
حمت بسيد هذه الأمة، ولكن لمحمد بن عبد الله ربا معه من الرق ليؤدى ما
أعد له من رسالة .

وسار يكسوم فى اليمن سيرا سيئا . كان فطا غليظ القلب يهوى سملك
الدماء ويرتاح للظلم الذى يوقعه برعيته ، فقد ضاق اليمنيون بحكمه حتى
إن موته لم يحفف عنهم ، فقد كرهوا أن يظلوا تحت حكم الأحباش تسب
مهم خيراتهم ويرسل بها إلى الحبشة .

وتولى مسروق بن أبرهة من روحته العربية الحكم بعد موت أخيه ، وكان
يحسب أن اليمنيين سيفرحون بتولية الملك فأمه منهم وهو يتكلم العربية
بسامهم ، ونسى مسروق أن اليمنيين لم يسوا أن أباه قد اعتصب أمه من
روجها العربى ، فهو ابن الغصب والمقت وثمرة القهر والخسة والدناءة .
وضاق سيف بن ذى رن بالذل الذى يعيش فيه الحميريون فعزم على أن

يخلص بلاده من حكم الأحاش ، ولكن أين القوة التي يقودها الحرب مسروق
وحدوده وإرغامهم على إخلاء عن البلاد ، وفكر ابن دى يزن ودير فلم يجد إلا
أن يندح إلى قيصر الروم يلتمس منه أن يمدّه بالحدود ليطرد الأحاش من أرض
حمير .

وراح سيف بن دى يزن يطوى الأرض قاصدا القسطنطينية وهو يفكر في
إمبراطور الروم . إنه ليس أول عربى يهرع إلى البلاط الإمبراطورى ، فملوك
العساسة عرفوا ذلك الطريق . وإن امرأ القيس قد ذهب إلى يوسطيانوس
ونادمه ، وتوطدت الصداقة بينه وبين قيصر حتى إنه كان يدخل معه الحمام ،
ونولا الوشاية التي مشى بها الوشاة بين امرئ القيس ويوسطيانوس فكان
امرؤ القيس قد عاد إلى عرش آبائه .

ولم يحظر على قلب سيف بن دى يزن أن حملة أبرهة كانت بتقدير
القسطنطينية ، وأنها هي التي وصفت حططها وباركتها ليتصل بصارى
الحروب بصارى الشمال لتحقيق أغراض القسطنطينية السياسية
وبلع ابن دى يزن البلاط البيزنطى وطلب المثول بين يدى قيصر ليبت في
أمر الدولة وحده .

وراح سيف بن دى يزن يشكو إلى قيصر ملك الروم ما هم فيه من در
واضطهاد ، وسأله أن يعث معه الخيوش ليطرد الأحاش ، ويلب اليمن
الإمبراطور العظيم ويعث إليهم من يشاء من الروم فيكون له منك اليأس .
ولم يبق قيصر إليه سمعه فقد كان في ضيق لإحفاق حملة أبرهة ، وكان في
دهشة من أن العذر كان في خدمة وثنيين يعبدون الخجارة وقد نصرهم على
جيش يؤمن بالله ومسيحه ويحمل الصليب !
وكانت صوفيا تصعى إلى الترجمان وهي ضيقة الصدر بالعرب ، فانكسار

أبرهة قد قنب كل حططهم رأساً على عقب وغير تاريخ اسطقة ، فقد كانت صوفيا واثقة من النصر وكانت عني يقين من أن علم الصراية سيحقق على جبل مكة وعلى واحات العرب في طول الجزيرة العربية وعرضها ولم يستطع قيصر ولا صوفيا أن يكتما ما يعتمل في صدريهما من صيق ، فقالا لسيف بن ذي يزن إن بلاده بعيدة ولا رعية هما في المنطقة !

و حرح سيف بن ذي يزن من البلاط البيروني وهو آسف حزين ، وراح يفكر ويدبر فهداه تفكيره إلى أن يهرع إلى كسرى أو شروان في الدائن يسأله أن يبعث معه الحيوش ليطرده الأحاش أولياء الروم من أرض حمير ، وكان يأمن أن يستحب كسرى لدائه فالأحباش حلفاء الروم أعداؤه وأعداء ديه ، وإن حاول كسرى أن يبدو عني الدوام متساعها .

و حرح سيف بن ذي يزن حتى أتى العمان بن المنذر في قصر الخورق . فشكا إليه أمر الحشنة فقال له العمان .

— إن لي على كسرى وعادة في كل عام ، فأقم حتى يكون ذلك .

وحاد أوام انطلاق العمان إلى الدائن فذهب سيف بن ذي يزن معه فأدخله على كسرى . وكان كسرى يجلس في إيوان مجلسه الذي فيه تاجه ، وكان تاجه مثل المكيال العظيم يُصرب فيه الياقوت واللؤلؤ والزبرجد والذهب والفصه ، معلقا بسلسلة من ذهب في رأس طاقة في مجلسه ذلك ، وكانت عقه لا تحمل تاجا وإنما يستر بالثياب حتى يجلس في مجلسه ذلك ، ثم يدخل رأسه في تاجه فإذا استوى في مجلسه كشفت عنه الثياب ، فأحس سيف هيبه له .

دخل سيف من باب عام مطأطيء الرأس ، فقال كسرى . :

— إن هذا الأحق يدخل علي من هذا الباب الطويل ثم يطأطيء رأسه .

فقبل ذلك لسيف فقال :

— إنما فعلت ذلك لطمى لأنه يصيق عنه كل شيء

وسمح كسرى لابس دى یرن بالكلام ، فقال :

— أيها الملك عليتنا على بلادنا الأحباش ، فجتتكت لتنصرى و يكون ملك بلادى لك .

سمع كسرى أبو شروان ولا ريب بتحرك جيوش أبرهة لتستولى على جزيرة العرب وليتصل بصارى الحشة بصارى غسان والروم ، وطمئن إلى أن تلك الحركة لم يكن مقصودا بها غيره ، وبلغته أنباء إخفاق حملة الفيل فلم يعد يحشى وقوع الحجاز في قبضة الأحباش ، ولم تعد هناك ضرورة للمعامرة فقال :

— بعدت بلادك مع قلة حيرها فلم أكن لأورط جيشا من فارس بأرض العرب ، لا حاجة لى بذلك .

ثم أجاره بعشرة آلاف درهم واف وكساه كسوة حسنة ، فلما قبض ذلك منه سيف خرج وجعل ينثر ذلك الورق للناس ، فبلغ ذلك الملك فقال :

— إن لهذا شأننا .

ثم بعث إليه فقال :

— عمدت إلى حياء الملك تنثره للناس .
فقال سيف :

— ما جبال أرضى التى جئت منها إلا ذهابا وفضة .

كان كسرى على علم باليمن كما كان الروم على علم بها ، فحواسيس افرس والروم يدعونها طولاً وعرضاً ، وهى ميدان من الميادين الهامة التى يتصارع فيها الساطرة واليعاقبة أصحاب مذهب وحدة المسيح وأصحاب مذهب ساسوت المسيح ولاهوتيه ، بصارى الشرق

وبصارى العرب ، البصارى الذين تؤيدهم فارس بكاية في عدوها والبصارى الذين يعتقدون مذهب الإمبراطورية الرومانية ، فلم يتحرك طمع كسرى لما سمع أن حبال اليمن من ذهب وفضة ، بل رأى أن يباوع الروم في اليمن وأن يقنق مصاحبتهم وأن يرسلهم الهزيمة بطرد حلفائهم من الأرض العربية كما أنزلهم الهزيمة في كل مكان .

جمع كسرى مرأبته فقال لهم :

— ماذا ترون في أمر هذا الرجل وما جاء له ؟

فقال قائل :

— أيها الملك إن في سجونك رجالا قد حبستهم لنقتل ، هو أهلك بعثتهم معه فإن يهلكوا كان ذلك الذي أردت منهم ، وإن ظفروا ملكا ارددته .

بعث معه كسرى من كان في سجنه و كانوا ثمانمائة رجل ، واستعمل عندهم رجلا منهم يقال له وهرز وكان ذا سن ميم وأفضلهم حسبا وبيتا ، فخرجوا في ثمان سفائن قاصدين عدن ، ففرقت سفينتان ووصل إلى عدن ست سفائن ، فراح سيف يجمع من استطاع من قومه ، ثم عاد إلى وهرز بليوت أبوا أن يعيشوا في اليمن في دل وعرموا على أن يحرروا بلادهم من الأحباش الذين جاءوا باسم نصرة إخوانهم في الدين ، ثم أناخوا على البلاد يتتصون دماءها . وقال سيف لوهرز :

— رجلى مع رجلك حتى يموت جميعا أو نظمر جميعا .

— أنصفت .

وسمع مسروق بن أبرهة بزول جنود الفرس بعدد ، فحضر جيشا ثم انطلق ليدافع عن عرشه الذي تألب عليه سيف بن ذى يزن واستعان بجيوش فارسية جاءت لصرته ، لا تأييدا لقضيته بل بسطوا لفوذ فارس على المنطقة .

ودعا وهرز ابنه نوزاد وأمره أن يخرج لقتال مسروق والدين معه ، ولم يخرج وهرز ولا سيف مع الخارجين فقد أراد الشيخ أن يختبر قتالهم قبل أن يصع خططه للقضاء على مسروق وجنوده .

واطلق نوزاد ومن انتد بهم أبوه معه لقتال الأحباش على أرض اليمن ، والتقى مسروق وهو على رأس فيده بطلائع الجيش العريب الذي جاء يتلمس طريقه ، وبدأت المعركة بالتراشق بالسهم ، ثم مشى الرجال إلى الرجال يهرون الرماح ثم يطلقونها إلى الأهدف انشورية التي كانت تنهوى كأوراق الشجر في فصل الخريف ، وعطت الجثث الأرض ، ثم راح فيل مسروق يوقع الاضطراب في صفوف العرب والفرس ، ثم صاح صائح :

— إن نوزاد بن وهرز قد قتل .

وبلغ وهرز مقتل ابنه فزاده ذلك حنقا على الأحباش ، فلم تعد المعركة معركة الأحباش مع اليمن توطيدا لسلطان كسرى ومدا لعوده بل أمست انتقاما لابنه الذي قتل بسيوف الأحباش على أرض العرب .

وحرج وهرز وسيف بن دى يزى في حموع الفرس والعرب واطلقوا حتى توافق الناس على مصافهم ، وعزم وهرز على أن يقتل ملك اليمن فنن يشمى عليه قتل جيش مسروق كله إذا ما فر مسروق من يده .

وقال وهرز لمن حوله :

— أرونى ملكهم .

— أترى رجلا على الفيل عاقدا تاحه على رأسه بين عييه ياقوتة حمراء ؟

— نعم .

— ذاك ملكهم .

— اتركوه .

فوقفوا طويلا يتراشقون بالسهم ، ثم التفت وهرز إلى من حوله وقال
يسأل عن مسروق :

— علام هو ؟

— قد تحول على الفرس .

— اتركوه .

واستمر تراشق السهم طويلا والسهم تطيش أو تستقر في الأفدة
والصدور والصور ، والحلث تهاوى وأبات الحرجى تتردد في حبات المعركة
وقد صم عنها المقاتلون آذانهم ، فقد كان كل منهم مشغولا بنفسه عن كل ما
حوله ، داهلا عن الوجود بالمشاعر الثائرة التى تستولى على وجدانه .

والتفت وهرز إلى من حوله وقال :

— علام هو ؟

— قد تحول على العلة .

— بت الحمار ! دل ودل منك ، إلى سارميه ، إن رأيت أصحابه م
يتحركوا . فاثبتوا حتى أذنكم فإنى قد أخطأت الرجل . وإن رأيت القوم قد
استداروا واجتمعوا حوله فقد أصبت الرجل ، فاحملوا عليهم .

ثم وتر قوسه ثم رماه ففصك الياقوتة التى بين عييه ، فتلعت الشاة في
رأسه حتى حرحت من فهاه ونكس عن دابته ، واستدرت الحيشة والتفت
حوله ، وارتفعت أصوات التهليل من الجيش العربى الفارمى فقد أصاب وهرز
مسروق إصابة قاتلة .

ودب الدعر في صفوف الحيشة فقد قتل قائدهم وملكهم فذب اليأس في
قلوبهم ، وقبل أن يهيقوا من هول الصدمة حمل العرب والفرس عليهم حملة
رجل واحد ، وأعملوا السيوف في رقابهم ، فسقط من سقط قتيل وفروا من فر

لا يلوى على شيء ، وكنت الهزيمة على الأحباش وراحت خيوش العرس
وسيف بن دى یرن تتقدم إلى صعاء مرهوة نصرها .

وشرد دهر سيف وهو في طريقه إلى العاصمة ، لم يفكر في قصر مسروق
الذى سيصبح مقر سكناه بل عاد به القهقري إلى ذلك اليوم الذى حرح فيه أبوه دو
يزن إلى كسرى ووقف ببابه يسأله النصرة . وقد أتى كسرى أن يستنجب له حتى
مات دو يزن ببابه . ليت روح أبيه تعرف عليه الساعة لترى أن أمه قد تحقق .

ورن في أذنيه الحديث الذى دار بينه وبين كسرى :

— أيها الملك إن لي عندك ميراثا

أنا ابن الشيخ الجمانى ذى یرن الذى وعدته أن تنصره فمات ببابك ،
وحصرتك فقتلك العدة حق لي وميراث يحب عليك الخروح لي منه .

ورأى كسرى يأمر له مال ، ثم أفاق من شروده ووقعت عيابه على باب
صعاء فلم ترف على شفتيه بسمة بل سالت الدموع على خديه .

وأقل وهرر ليدخل صعاء وقد رفعت راية الحيش تحفق بالنصر ، فلم تمر
الراية من باب صعاء وهم حامل الراية بأن يكسها ، ورأى وهرر ذلك
فغضب وتغير لونه وقال :

— لا تدخل رايتي مكسة أبدا . اهدموا الباب .

وعملت المعاول في باب صعاء ليدخل وهرز وجوده وجود یرن دى یرن
والراية عالية خافقة مرفوعة .

وانطلق وهرر وسيف وأشراف انقوم إلى القصر ، وجاءت الوفود لتبئ
وهرز وسيف بن دى یرن على النصر المؤزر على الحشة ، ثم انصرف وهرر إلى
كسر ومنك سيفاً على اليأس . وتهلل سيف بالفرح ولم يصكر في أنه استبدل
الحيشة بالعرس وأنه لم يحرر بلاده من سيطرة السول الأحسية ، فقد أصبح عابة

أى ملك عربى فى الشرق الأوسط أن يرضى عنه كسرى أو قيصر ، وأن يؤيد
 ملكه قوة من القوتين العظيمتين المسيطرتين على العالم المتنازعتين ليخدو
 لإحدهما وجه الأرض ، وقد انضم بعض ملوك العرب للشرق وانضم بعضها
 الآخر للعرب ، ووضع كل من الفريقين موارد بلاده فى خدمة سيده الذى
 يؤيده ، ولم يدر بخلد حاكم واحد منهم أن فى مقدور رجل من العرب أن يجمع
 كلمة العرب المتنافرة وأن يؤلف بين قلوبهم ، وأن يحملهم للقضاء على
 الإمبراطوريتين العاتيتين إمبراطورية الفرس وإمبراطورية لروم ، إمبراطورية
 الشرق وإمبراطورية الغرب ، فقد كان ذلك يستعصى حتى على الأحلام .
 وفى دار من دور بى هاشم فى مكة ، بل فى دار عبد الله بن عبد المطلب
 بالذات ، فى دار الدييح الذى فداه ربه بمائة من الإبل ليتزوج فتاة بنى رهرة
 لتحمل منه بسيد البشر . كانت آمة بنت وهب تضع الغلام الذى دعا إبراهيم
 وإسماعيل رسما وهما يقيمان القواعد من البيت أن يبعث فى دريتهما رسولا
 منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويركهم ، والذى بشره
 موسى وعيسى والنبىون ، الغلام الذى سرفع العرب وبخرجه من الظلمات
 إلى النور ، ليصبحوا معلمين للبشرية بعد أن كانوا فى الجهالة يعمهون ، الغلام
 الذى سيرسله الله رحمة للعالمين .

كانت يثرب يموج بعصها في بعض فما كان يوم يمر دون أن تقوم مشادة بين الأوس والخزرج أو تنشب مطاردة حامية بين رجل من العرب ورجل من اليهود ، ويا طالما نشبت الحروب بين الحيين من العرب لسبب من الأسباب التافهة ، وما أكثر ما ثارت المارعات بين العرب واليهود !

وارتفعت الأصوات حتى طافت بالدور ، فخرج حسان بن ثابت وكان من سبع سير وفي أثره أخته فارعة بنت ثابت وكانت طفلة صغيرة ليريا ذلك النصال الناشب بين الناس .

كان العرب واليهود يتشايكون بالأبدى ويتبادلون السياب . فقد سمع العرب أن اليهود أهانوا امرأة عربية في السوق ، فاتفقت كلمة الأوس والخزرج واجتمعت القلوب المتافرة وبسيت ما كان بينهما من عداوة ، وهوا لقتال اليهود غيرة على كرامة امرأة عربية أهينت في الطريق .

وكادت المشادة أن تنقلب إلى حرب مدمرة لولا أن مشى بعض أشرف القوم في إصلاح ما بين المتشاكين بالإيدى ، وانذير كان السبب يطلق من أفواههم بغير حساب ولا تفكير .

وأحس اليهود أنهم باتوا في المدينة أدلة فقالوا للعرب :

— إن نبيا مبعوثا قد أظل زمانه تتبعه ، نقتلكم معه قتل عاد ورم .

كان اليهود ينتظرون مولد النبي الذي بشرهم به موسى ، فكانوا يرصدون السجون ويعكفون على أسفارهم يقرعون ما بين السطور ، وكانوا في همة على

مولد ذلك لسي ليصدقوه فقد كانوا أدلة في الأرض وكانوا يطعمون في أن يعيد ذلك النبي محمدهم ومحمد الدين .

وكان الرهبان في صوامعهم يعلمون أن الله سيبعث « العارقيط » ادى بشر به المسيح ، وكانوا يمصحون عن ذلك العنم كلما التقوا بسادات العرب وأشرفهم ، فقد برل أربعة من تميم يريدون الشام عند عدير عند دير ، فأشرف الديراني وألقى سمعه إلى حديثهم ثم قال .
— إن هذه لعة قوم ما هي أهل هذا البلد .

— نحن قوم من مضر .

— من أى المصاير ؟

— خندف .

— إن الله سيبعث فيكم نبيا وشيكا فسارعوا إليه وحدوا خطكم ترشدوا ، فإنه خاتم النبيين
— ما اسمه ؟

— محمد .

ثم دخل ديرهم فمأخذ منهم إلا ررع قوله في قلبه ، فأصمر كل واحد منهم إن رزقه الله غلاما سماه محمدا .

بامت الفتنة التي كادت تنشب بين الأوس والخزرج واليهود وعاد الناس إلى دورهم ، لم يحفلوا بذلك التهديد الذي لا يفتأ اليهود يرددونه كلما شجر خلاف بينهم وبين العرب ، وعاد ثابت بن المدر إلى داره فألقى ولديه حسام وفارعة قد حرجا يطيران وقد وقفا أمام باب الدار ، فحمل فارعة وأحد حسان من يده ثم دلف إلى البيت .

كان ثابت بن المدر الحكيم الذي لحأت إليه الأوس والخزرج يوم أن قامت

حرب سُمَيْر ، وكان ثابت لا يملك يروى أحداث تلك الحروب ويروى الأشعار التي قُبت فيها فقد كان يحفظها عن ظهر قلب ، وكان يجد لذة في إعادة تلك القصة على أهل بيته ، فقبول الأوس والخزرج أن يكون حكما بينهما شرف عظيم يسعى أن تنبئ به الأسرة وبفخر .

وجلس حسان بن ثابت الفتى الذي لم يتجاوز اسابعة يصعق إلى أبيه وهو يقول :

— قتل رجل في السوق كان حاراً مالمك بن العجلان ، ففيل لمالك قد قتله سُمَيْر ، فأرسل إلى بني عوف بن عمرو بن مالك بن الأوسى ، إنكم قتلتم ما قتيلاً فأرسلوا إليها بقاتنه ، فلما جاءهم رسول مالك تراموا به فقالت بنو زيد : إنما قتلته بنو جحجى ، وقالت بنو جحجى : إنما قتلته بنو زيد . ثم أرسلوا إلى مالك :

— إنه كان في السوق التي قتل فيها صاحبكم أناس كثير ولا يدري أيهم قتله . وأمر مالك أهل تلك السوق أن يترفوا فلم يبق فيها غير سُمَيْر ولقتيل . فأرسل مالك إلى بني عمرو بن عوف باندى بلعه من ذلك وقال : إنما قتله سُمَيْر فأرسلوا به إلى قتلته . فأرسلوا إليه ، إنه ليس لك أن تقتل سُمَيْر بغير بيعة . وكثرت لرسول بينهم في ذلك يسألهم مالك أن يعطوه سميّاً ويأبوا أن يعطوه إياه . ثم إن بني عمرو بن عوف كرهوا أن يُشسوا بينهم وبين مالك حرباً ، فأرسلوا إليه يعرضون عليه الدية فقبلها ، فأرسلوا إليه أن صاحبكم حليف وليس لكم فيه إلا نصف الدية .

فعصب مالك وأبى أن يأخذ به إلا الدية كاملة أو يقتل سُميراً ، فأبى بنو عمرو بن عوف أن يعطوه إلا دية الحليف وهي نصف الدية ، ثم دعوهُ أن يحكم بينهم وبينه عمرو بن امرئ القيس أحد بني الحارث بن الخزرج ففعل ،

فانطلقوا حتى جاعوه في بني الحارث بن الخزرج ، فقضى مالك بن العجلان أنه ليس له في حيفه إلا دية الخليف ، وأبى مالك أن يرصى بذلك وآد بن عيمر عمرو بن عوف بالحرب واستنصر قبائل الخزرج ، فأبى بنو الحارث بن الخزرج أن تنصره عضبا حين رد قضاء عمرو بن امرئ القيس ، فقال مالك بن العجلان يذكر حدلان بنى الحارث بن الخزرج له وحذب بنى عمرو بن عوف على سُمَيْرٍ ويحرص بنى الحجار على نصرته :

إِنْ سُمَيْرٌ أَرَى عَشِيرَتَهُ

قَدْ حَذَّبُوا دُونَهُ وَقَدْ أَلَمُوا

إِنْ يَكْسُ الظَّنَّ صَادِقًا يَبْئِي النَجْدُ

سَارَ لَا يَطْعَمُو الدِّيَ غُيْفُوا^(١)

لَا يَسْلُمُونَا لِمُسْكِرٍ أَبَدًا

مَا دَامَ مَسَا يَمُطُّهَا شَرْفُ

لَكِنْ مَوَالِيٍّ قَدْ بَدَا لَهُمْ

رَأَى سَوَى مَسَا لَدَيْيَ أَوْ ضَعُفُوا

وأرهب الفتى حسنا أذنيه فهو على الرعم من حدانة سه يحب لشعر ويسر به ، وراح أبوه ثابت بن المُر يقول :

يَبْنِي بِسِيٍّ جَحْجَجِيٍّ وَيَبْنِي بِسِيٍّ

زَيْبِدٍ فَأَتَّى جَارِي التَّلَفِّفِ

يَمْشُونَ فِي الْبَيْضِ وَالْأَبْرُوعِ كَمَا

تَمْشَى جَهْلُ مِصَاعِبِ قَطِيفِ

(١) أقرؤا بالصيم .

كما تمشي الأسود في وهج الـ
 موت إليه وكههم كهـ
 وقال درهم بن يزيد بن ضبيعة أخو سمر :

يا قوم لا تقتلوا سـمـرا فـلـ
 ن القتل فيه ابـوار والأسف
 إن تقتلوه تـرـنـنـنـكم^(١)

على كـرـيم وبـفـزع السـنـف
 إني لعمـر الـذى يحـجـ له النـسا
 نك ومن دون يـثـه سـرف
 بـين بـسـر بـالله مـتـهد

يحلف إن كان ينـمـع الحـلـف
 لا ترفـسـع العـبـد فـوق سـتـه
 ما دام منـا بـطـنها شـرف
 إنك لاق غـبـدا عـوـاة بـنـي

عمـى فـانـظـر مـسا أنت مزـدـهـف
 فأبـد سـمـاك يـعـرـفـوك كـما

يـدـون سـمـاهـم فـتـعـتـرـف

وراح ثابت بن المنذر يروى الأشعار التي قالتها الأوس والخزرج في الرأع
 الذي نشب بينهما بسبب قتل سمر حليف مالك ، وحسان يصعـى وقد أعجب
 بالشعر ونمى لو يصيح شاعرا كهؤلاء الفحول الذي يسعد بشعرهم .

(١) يرفس أصواتهن بالبكاء .

وقال ثابت لابنه :

— ثم أرسل مالك بن العجلان إلى بني عمرو بن عوف يؤدبهم بالحرب ويعدهم يوماً ينتقون فيه ، وأمر قومه فتهيؤوا للحرب ، ونحاشد الحياء وجمع بعضهم لبعض ، وكانت يهود قد خالفت قبائل الأوس والخزرج إلا سي قريظة وبني النضير فإيهم لم يخالفوا أحدا منهم حتى كان هذا الجمع فأرسلت إليهم الأوس والخزرج كل يدعوهم لِمِصْبِهِ ، فأجابوا الأوس وحالفوهم وإنسي خالفت قريظة والنضير من الأوس أوس الله وهي حطمة وواقف وأمّية ووائل ، فهذه قبائل أوس الله .

ثم رجع مالك بن معه من الخزرج ، وزحفت الأوس بمن معها من حلقاتها من قريظة والنضير ، فالتقوا بفضاء كان بين يثر سالم وقُباء وكان أول يوم التقوا فيه فاقتتلوا قتالا شديداً ، ثم انصرفوا وهم متصفون جميعاً ، ثم التقوا مرة أخرى عند أطعم بني قيس فالتقوا حتى حفر الليل بينهم ، وكان الظمر يومئذ بالأوس على الخزرج ، فقال أبو قيس بن الأسلت في ذلك :

لقد رأيت بني عمرو وما وهوا

عند اللقاء وما هموا بتكذيب

ألا فدى لهم أمسى وما ولدت

غداة يمشون إرقال المصاعيب

بكل سلهبة^(١) كالأيم ماصية

وكل أبيص مساضى الحد محسوب

فليت الأوس والخزرج متحاربين عشرين سنة في أمر سُمير يتعاودون

(١) السلهبة من الخيل : الطويلة على وجه الأرض .

القتال في تلك السنين ، فلما رأَت الأوس طول الشر وأن مالكا لا ينزع قال لهم سويد بن صامت الأوسي وكان يقال له الكامل ، فقد كان شاعرا شجاعا كاتباً ساحرا ميا : يا قوم ارضوا هذا الرجل من حليفه ، ولا تقيموا على حرب إخوانكم فيقتل بعضكم بعضا ويطمع فيكم غيركم ، وإن حملتم على أنفسكم بعض الحمل .

فأرسلت الأوس إلى مالك بن العجلان يدعوه إلى أن يحكم بينه وبينهم ثابت بن المنذر بن خزام .

وصمت ثابت برهة وتهللت أسارير حسان بالفرح ، ثم قال ثابت :
— فاحرخوا حتى أتوني فقالوا : إنا قد حكمناك بيسا ، فقلت : لا حاجة لي في ذلك .

فقال الفتى حسان :

— ولم ؟

فابتسم ثابت وقال :

— قلت لهم : أخاف أن تردوا حكمي كما رددتكم حكم عمرو بن امرئ القيس . قالوا : فإنا لا نرد حكمك فاحكم بيسا . قلت لأحكم بينكم حتى تعطوني موثقا وعهد لترضون بحكمي وما قصيت به ولتسلمن له . فأعطوني على ذلك عهدوهم ومواثيقهم .
— وبمآدا حكمت يا أبتاه ؟

— حكمت بأن يؤدي حليف مالك دية الصريح ، ثم تكون النسبة فيهم بعده على ما كانت عليه : الصريح على ديتة والحليف على ديتة ، وأن تعد القتل الدين أصاب بعضهم من بعض في حرهم ثم يكون بعض ببعض ثم يعطوا الدية

لمن كان له فضل في القتلى من الفريقين . فرصى بذلك مالك وسلّمت الأوس
وتعرفوا على أن على بنى السجار نصف دية جار مالك معونة لإخوتهم ، وعلى
بني عمرو بن عوف نصفها ، فرأت بنو عمرو بن عوف أنهم لم يُخرجوا إلا
الدى كان عليهم ، ورأى مالك أنه قد أدرك ما كان يطلب وودى جاره دية
الصرح .

واقصى النهار وحسان بن ثابت يردد الأشعار التي سمعها من أبيه ، وجاء
الليل وتلألأت نجوم السماء وإذا بصوت جهورى ينادى فيتردد نداؤه في
جنبات يثرب :

— يا معشر يهود .. يا معشر يهود .

وفتحت الدور وخرج اليهود والعرب إلى حيث الصوت ، وخرج ثابت
ابن اسنذر وفي يده اسه حسان وراحوا يهرولون مع المهرولين ، فإذا بيهودى
يصرخ بأعلى صوته على أظمة :

— يا معشر يهود !

واجتمعوا إليه وقالوا له :

— ويك ! مالك ؟

— طلع الليلة نجم أحمد الذى ولد به .

ونظر حسان بن ثابت ولم يفقه شيئا ، وما دار بخلده في تلك اللحظة أنه
سيصبح شاعر ذلك الدى طلع الليلة نجمه . وعاد إلى الدار وصوت اليهودى
يرن في وحدانه :

— طلع الليلة نجم أحمد .

دار عبد الله بن عبد المطلب عبد الصفا ، الدنيا ليل والقمر يوشك أن يكون بدرا ، واليوم لاثين من ربيع الأول وقد مضى على يوم الفيل خمسون يوما ، فقد صار أهل مكة يؤر حون بعام الفيل بعد أن كانوا يؤر حون بموت كعب بن لؤى حكيم قريش وسيدها .

ثم يكس في الدار غير آمة بنت وهب وجارية عبد الله الحشوية ، فقد شغبت هالة بنت وهيب بولدها حمرة بن عبد المطلب ، وإن ثوية جارية أنى لب كانت تمضى بعض الليالى في دار عبد الله لتؤس آمة ويكنها في هذه الليلة المباركة كانت تمام وفي حصنها حمرة ترصعه وتسهر عليه وتعى به .

كانت الليلة هادئة خاشعة ، وكان نور القمر يسكب في عرفة آمة راعيا لكأما كان يدا حانية نمس الكون مسارقا فتحرك مشاعر الرقة والحنان ، وملأت روح آمة روائح أطيب من المسك لم تدر أكانت مبعثة من نخور حرقته حاريتها أم أنها آتية من فوق السموات ، وسرت في العرفة سمات من الرحمة كان لها رفيف كأنه تسبيح الملائكة ، وبد أن السماء توشك أن تتحلل على الأرض .

ورأت الجارية أن آمة هادئة ساكنة وإن كانت تهم أن تصع ما في بطنها فاستشعرت رهبة . إنها تخاف أن تتلقى وحدها ذلك الذى عما قريب يستنقش الدنيا بصراحه ، فاستب من الدار وسرعان ما عادت ومعها الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف ليستقبلا معا ذلك اليتيم الذى ستصعبه آمة .

وددت الشفاء من الشاك ونظرت إلى السماء فحيل إليها أن القمر في سبت الليلة كان أكثر إشراقا ورقة ولكأما كان يتدلى يكون معها في الغرفة ، وأن النجوم كانت أكثر تألقا ولمعان ، وألقت بصرها على دور بني هاشم فألفتها حاشعة لا يدري من فيها أن ابن عبد الله الحبيب قد حان وأن إقباله على الدنيا وحانت منها التفاتة إلى الكعبة فحيل إليها أن القمر قد ألسها حلة من محمل أسود وأسلاك من فضة .

وطاف بأمة عباس فسمعت هاتفا يهتف بها أن تسميه محمدا ، وأفافت من نعسها فأحسست كأما ذلك الاسم قد حفر في قوادها ، وعجبت من نعسها فعا كان اسم محمد من أسماء آباء عبد الله ، إنه اسم لم يعرف من قبل في بني هررة ولا في بني هاشم بن عبد مناف بل ولا في مكة كلها .

وفصل الوليد من أمه واستقبلته الشفاء على يديها ، وراحت جارية عبد الله الحبيشية تعاومها على عسسه وإلباسه ثيابه وقد أشرق قلباهما بالنور والرحمة وراحا يرموان إلى الوليد في حب شديد ، فقد كان هادئا ساكنا لم يملأ الدنيا عويلا ، وقد تألق في وجهه الصغير نور تنفؤ إليه الأفئدة وتفتح له النفس . وحمل الوليد ووضع إلى حوار آمة فطرت إليه بقلب خافق يتدفق منه الحنان فحيل إليها أن الوجود كله قد أشرق بالنور ، وفاصت مشاعر الحب فضمته إليها في رقة ومالت عليه وقبته قبله فأحسست كأما قد قبلت الدنيا وأنها قد احتوتها بين ذراعيها ، وترقرقت في ماقيها الدموع وطاف بذهنها طائف حرك الأسى في وجدانها : إن ابنها الحبيب قد ولد بيتيما . ليت عبد الله كان هنا الساعة ليسعد بابنه الحبيب ، وقبل أن تسترسل في حزها حانت منها التفاتة إلى محمد فإذا به إشراقة وجهه تبدد كل ما هم بأن يتلبد في جوفها من حزن ، وإذا بها تذكر ذلك الهاتف الذي هتف بها قائلا يوم أن حمت به : حملت بسيد

هذه الأمة ، وإذا بالبور يعود ليحمر قلب آمة ووجه الأرض .

وتنفس الصبح ولم تستطع جارية عبد الله صبرا فانسلت من الدار لتطوف على دور بنى هاشم تحمل نبأ ولادة آمة لوليد كأه القمر ، لم تر مثله في مواليد بنى عبد مناف وإن اشتهروا بالحسن والجمال .

وانتهت إلى دار عبد المطلب وطرقت الباب ، وبعد لحظة انفرج عن ثوية جارية أوى هب كانت هناك لترضع حمزة ، وما إن وقعت عيننا جارية عبد الله الحبشية عليها حتى قالت :

— ولد لعبد الله ولد . كأنه الور .

ودهبت الجارية إلى حيث كان عبد المطلب ، وراحت ثوية تهزول إلى دار أوى هب ، فقد أرادت أن تكون أول من يحمل البشرى السعيدة إلى سيدها فهي تعلم كم كان أبو هب يحب عبد الله فتى فريش وديحها .

ودخلت جارية عبد الله على عبد المطلب وقالت في برات تسض بالفرح :

— قد ولد لك غلام فانظر إليه .

وخرج عبد المطلب يسعى إلى دار آمة ، ودخلت ثوية على أوى هب وقالت :

— ولد لعبد الله غلام لم ير في قريش مثله .

وفرح أبو هب فإن كان أخوه قد ذهب ولن يعوب فقد جاء له ابن سيحفظ اسمه ويبقى عقبه ، وربما فرح أوى هب حتى قال لثوية :

— اذهبي فأنت حرة .

وتحلت أول بركة للوليد ولما يمض على مولده غير ساعات . دخلت ثوية دار أوى هب وهي جارية وحررت منه وقد أصبحت حرة لكأما كان ذلك إذنا بيد تحرير الإنسان من استبعاد أحياء الإنسان .

ودخل عبد المطلب على آمنة والفرح يبدو في وجهه ، وما أن ألقى عليها نحية الصباح وهنأها بالمولود حتى حملته وقدمته إلى جده ، فلما نظر إليه حمق قلبه في رقة وحنان ، وسرعان ما احتلت صفحة ذهبه صورة عبد الله فراحته كنور عواطفه تتدفق إلى صدره ، وفي لمح البصر طافت برأسه ذكريات حبيبة لا تنسى ، رأى عبد الله وهو يصرب عليه بالقداح عند هبل ورآه وهو يسير معه إلى دار بى رهرة ليزوجه من آمنة ، ورآه يوم أن خرج إلى الشام بمطارق ، ورأى الزبير يعود من يثرب ليعمى إليه ابنه الحبيب ، وفطن إلى أن الله قد أبقي عبد الله يوم أن هم بأن يذبحه ليأتى بذلك المولود ثم يذهب دون أن يحوب

إن الميلاد يذكر بالموت فهما طرفا حياة : بداية ونهاية ، فلما عاد عبد المطلب يطير إلى حميدة تذكر ابنه فثم ، به مات في التاسعة من عمره فلماذا لا يطلق سمه على ابن عبد الله تخليدا لذكراه ؟ واستراح للفكرة فالتفت إلى آمنة وقال :

— نسمة قنما !

فقالت آمنة وقد تألقت عينها بالفرح :

— إني عندما حملت به سمعت هاتفا يهتف بى : إنك حملت بسيد هذه الأمة . وبينا كنت أصعه سمعت هاتفا يهتف بى : فإذا وقع إلى الأرض سمى به محمدا .

لم تكن آمنة أول من سمعت هاتفا يهتف بها يبشرها بسؤدد ابنها وسلطانته فقد أتى « عتبة بن عفيف » هاتفا حين حملت بابنها « حاتم الطائي » فقال لها : « أعلام سمح يقال له حاتم أحب إليّ أم عشرة علمة كالناس ؟ » فأجابته : « بل حاتم » . وإن عبد المطلب قد سمع عن المواعظ التي تأتي

لنسوة وهن في أشهر حملهن يشترهن بائعاً المنتظر للأجمة في أرحامهن ،
فقبل ما قالت أمة عن رصى ولم يجد شيئاً عريياً في أن يسود محمد بن عبد الله
قومه ، فلو لم يحطف الموت عبد الله لساد قومه كما سادهم أبوه عبد المطلب
وحده هاشم من قبل . ترى أيبغ محمد في قومه ما يلع كعب بن لؤى في
قريش ؟

وتذكر عبد المطلب ما بشره به كاهن اليمن . وما قالت سودة بنت زهرة
كاهنة قريش لآمنة ، فأحس إحساساً عامضاً أن سيكون لحفده الذي بين
يديه شأن لم يبلغه حتى كعب بن لؤى .

وأحده أبوه عبد المطلب وانطبق إلى الكعبة فأدخله عن هبل ، فقام عبد
المطلب يدعو ويشكر الله ويقول :

الحمد لله الذي أعطاني	هذا العلام الطيب الأردان
قد ساد في انهد عني الغلمان	أعیده بالبيت ذى الأركان
حتى يكون بلعة الفتيان	حتى أراه بالسف السيان
أعیده من كل دى شأن	من حامد مضطرب العان

وسمع عبد المطلب متادياً ينادى :

— يا معشر قريش .. يا معشر قريش .

فخرج من جوف الكعبة ينظر فإذا يوسف يهودى ينادى

— يا معشر قريش .. قد ولد لى هذه الأمة هذه الليلة محرنكم

(ناحيتكم) .

وعاد عبد المطلب إلى دار أمة وهو يضم الويد إلى صدره كأنما يمنع عنه

أذى الناس ورضعه في حصن أمه ، وسرعان ما منبت الدار بساء بى زهرة

وسى هاشم للاحتفال بالمولود . وجاء الربير وأبو طالب وإحوة عبد الله تهليل
أفدتهم بالفرح لمولد ابن أحبيهم الراحل الحبيب .

وحلس عبد المطلب على فراشه في ظل الكعبة ، وجاء يوسف اليهودي
يسعى وجعل يطوف في أندية قريش يسأل عن مولود ولد ليلة فلا يجد
حبرا ، حتى انتهى إلى مجلس عبد المطلب فسأل :

— هل ولد فيكم مولود الليلة ؟

— ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام .

— هو نبي والتوراة .

وفي مجلس من مجالس قريش قال يهودي ممن كانوا يتجرون في مكة . -

— يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود ؟

— والله ما نعلمه .

— أما إذا أخطأكم فلا بأس فاططروا واحفظوا ما أقول لكم : ولد في هذه

الديرة نبي هذه الأمة الأخيرة ، بين كتفيه علامة فيها شعيرات متواترات كأهبن
عرف فرس ، لا يرضع ليتين .

فتصدع القوم من محسهم وهم يتعجبون من قوله ، فلما صاروا إلى

سارلهم أحر كل إنسان منهم أهله فقالوا :

— قد والله ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام .

فالتقى القوم فقالوا :

— هل سمعتم حديث اليهودي وهل ببعكم مولد هذا العلام ؟

فاطلقوا حتى جاءوا لليهودي وقالوا : ولد لعبد الله بن المطلب غلام

فقال اليهودي :

— فاذهبوا معي حتى أنظر إليه .

فخرجوا به حتى أدخلوه على آمنة فقالوا :

— أخرجني إلينا اهلك .

فأخرجته وكشفوا له ظهره فرأى تلك الشامة فوقع اليهودي مغشيا عليه ،

فلما أفاق قالوا له :

— مالك وبيك ؟

— قد ذهبت والله البيوة من بني إسرائيل مرحمها يا معشر قريش ، والله

ليسطون بكم سطوة يخرج حبرها من المشرق والمغرب .

دعا ررادشت إلى عبادة إله واحد لا شريك له ، إله النور أهورا مزدا ، وقد تمكن الفرس بفضل ذلك الدين أن يسيطروا سلطتهم على الممالك من حوهم ، حتى كان عهد كسرى أنوشروان أعظم ملوك الساسانيين ، فقد بدا في ذلك العصر أن الفرس بلغت مجدها بينما كانت الحقيقة أن عوامل الهدم راحت تعمل عملها في البيان الشامخ وأن دولة الفرس قد شهرت الخنجر لتطعن به قلبها ، فالدول تنتحر عادة بيدها قبل أن يعتالها قاتل يعزوها : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

وظل الفرس يعبدون الله ، فلما طال عليهم الأمد قست قلوبهم وراحوا يقبون عن دياناتهم الوثنية القديمة ويمرجوها بما جاءهم به ررادشت ، فوجدوا أنهم كانوا يعبدون مثرا ذلك الإله الذي عرفه البابليون بشمس ، فقالوا كيف ترفض عبادة الشمس التي تضيء بورها الكون كله ، والتي تنصج بجرارتها غذاء الناس والحيوان ؟ فجعلوا مثرا ابن الإله أهورا مزدا وراحوا يؤكّدون تلك الصورة في نفوسهم فجعلوا ملوكهم ينسلمون ولاية الملك من يد أهورا مزدا ، ويقف مثرا بأكليته الذي يشع منه انور حلف الملك .

وأصبح مثرا ابن أهورا مزدا وصار يقش على أعمدة المعابد ومن حوله التاج النوراني وعربة الشمس يجرها جوادان محسحان ، وفتح باب الأساطير على مصراعيه فراح رحان الدين والكهان وأصحاب المصالح يدوتون في

« الأوستا » كتاب رردادشت المقدس ما يشاءون . فطراً على الأوستا ما طراً على التوراة يوم أن أعاد أحماز اليهود كتابة التوراة في أرض اسسى بعد أن حمدهم يختصر إلى بابل و حرق التوراة وقوص الهيكل .

كان رردادشت يحاطب إلهه ويدعوه باسم أهورا مردا إله النور ، فلما أراد عماد أهورا مردا أن يحسموا إلههم ويجمعوا إله رمزا لم يحدوا غير النار يرمزون بها إليه ، فجعلوا للبيت نارا وللقبيلة نارا ولقرية نارا (آدران) ولكن كور أو إقيم نارا (وهران) ، ورتب لتلك النيران حذام فكان رب البيت هو حادم نار البيت ، وكان يخدم نار القرية اشان من الهرايدة عبي الأقل ، وكانت نار (وهران) تتطلب هيئة من الهرايدة أكثر عددا يرأسها موبد .

وبعد أن كانت النار رمزا لأهورا مردا أصبحت مقدسة لذاتها ، وكان لا بد من فلسفة فكرة عبادتها وتقسيمها إلى نيران تسرى في كل شيء ، ف قيل إن « هورباية » هي النار التي توحد في جسم الإنسان والحيوان ، و « أورواربسته » هي النار التي توجد في الساتاب ، و « ريبستا » هي النار الكائنة في السحاب أي الصاعقة ، و « اسبيشته » هي النار التي تشعل أهورا مزدا في الجنة ، وجعل المجد (حورانة) الذي يصاحب الملوك انشريعين الآريين تجلها لهذه النار الأخيرة النارية السماوية .

وروت الأساطير أن أصل هذه النيران كان نيرانا ثلاثا : نار رجال الدين ونار رجال الحرب ونار الرراع . وقد كانت هذه النيران على ظهر ثور ركه جماعة من الرجال ليصلوا إلى ستة أقاليم لم يكن في طاقة البشر بدوعها ، وفي ذات ليلة هبت الرياح فأسقطت النيران الثلاث عن ظهر الثور في وسط المحيط ، ولكن النيران بنيت من حديد على ظهر الثور فأصابت الدنيا .

وقد بنى هذه النيران ثلاثة معابد : نار مربع ومعبداهوق جبل حور همد

في حوارزم ؛ وآرر كشتب ومعه ها في آرريجان وهي النار الملكية ، وكان الملوك الساسانيون يحجون إلى هذا البيت العظيم حين الأرمت ، وكانوا سبهه هبات سخية من الذهب والأموال والأراضي والعبيد ، وكان امك إذا ملك راره ماشيا تعطيما له ؛ وكان معه آخر برين مهر معه نار الرراع قائم في شرق الدولة في حال ريوند شمال شرق بيسابور .

وما دام دين ررادشت قد بدل وقاض بالأساطير فكان لابد من حق أسطورة توصح بدء الخليفة ، وكان الأمر ميسورا بعد أن عرفت الفلسفة الهندية طريقها إلى فارس فقيل : إن دوره الدنيا تستمر انسي عشر ألف سنة ، فهي أثناء ثلاثة الآلاف سنة الأولى يبقى العالمان : عالم أهورا مردا عالم النور . وعالم أرهيمن عالم الظلمات متحاورين في هدوء ، والعالمان لا متاهيان من جواب ثلاثة ، ولكن كلاهما يجد الآخر في الحجاب الرابع ، فعالم النور في الحجاب الأعلى ، وعالم الظلمات في الحجاب الأسفل ، وبينهما فراغ مملوء بالهواء .

وفي مدة ثلاثة آلاف سنة يعيش خلق أهورا مردا بالقوة ، وبعد ذلك يرى أهرمن النور ويصمر إباده ، فيأدر أهورا مردا الذي يعلم العيب بأن يعرض عليه حقة من الحرب طوها تسعة آلاف سنة فيقبل أهرمن وهو لا يعرف غير الماضي ، وبعد ذلك يسه أهورا مردا بأن المعركة تنتهي بهزيمة عالم الظلمات ، ويعرع أهرمن هذا فيسقط في الظلمات ويبقى فيها مشلولاً مدة ثلاثة آلاف سنة ، فيبدأ أهورا مردا بخلق الدنيا ، فلما أتمها خلق الثور المعروف بالثور الأول ، ثم خلق الإنسان الأول كيومرد (أي الحياة الفانية) الذي هو أول المشر . وحينئذ ألقى أهرمن بقوته ضد خلق أهورا مردا فحسب العناصر وخلق طوائف من الرواحف والحشرات ، فأقام أهورا مردا حديقاً أمام

السماء ولكن أهرم يكرر هجماته ويصحح أحياء في فنن الشور وكيومرد . وكانت بذور كيومرد محبأة في الأرض فتتج منها بعد انقضاء أربعين سنة شجرة حرج منها أول روجين من البشر هما « مشيج » و « مشياخ » ، وهكذا بدأت فترة اختلاط الخير بالشر ، وأخذ البشر يلعبون دورا في الحرب بين مملكتي النور والظلمة وذلك بانضمامهم حسب أعمالهم إلى جانب الخير أو إلى جانب الشر ، فمن اتبع الصراط المستقيم منهم كان يمر سالما بعد الموت على الصراط المسمى « جينوت » ثم يدخل الجنة ، ولكن حينما يمر على ذلك الصراط أحد الأشرار ثم يذوق حتى يصير كالسيف الفاطح فيهبى المجرم إلى جهنم حيث يلقي من العذاب ما يعادل سيئاته ، أما من تعادلت موارينه فكانت حسناته مساوية لذنوبه فإنه يقيم في « الهمشتكان » أي المكان المتوسط حيث لا عقاب ولا ثواب .

وبعد ثلاثة آلاف سنة من خلق العالم يظهر رزادشت فيهدى الناس إلى الدين الحق . وحينئذ لا يبقى للعالم في الوجود غير ثلاثة آلاف سنة . ففي نهاية كل ألف يظهر مخلص يولد بطبيعة الحال من بذور رزادشت المحبأة في إحدى البحيرات ، وفي اللحظة التي يولد فيها آخر المخلصين الثلاثة المخلص الحقيقي تبدأ المعركة الأخيرة ، فيبعث الأبطال والتنانين الشيطانية التي ذكرها التاريخ الخرافي لكي يتقاتلوا ، وأحياء يبعث الموتى جميعا ، ويقع النجم المسنن على الأرض فتشتعل وتذوب جميع المعادن فتنتشر على الأرض كأشياء سائلة ملتهبة .

وعلى الناس جميعا الأحياء والأموات المبعوثين أن يعبروا ذلك السيل الذي يكون للأتقياء كاللبن الساخن فيطهرهم المرور به ويمضون منه إلى الجنة ، وبعد المعركة الأخيرة بين الآلهة والشياطين تلك المعركة التي تنتهي هزيمة

الشیطین وهلاكهم بسقط الشر إلى الأبد فی الظلمات ، وتمتد الأرض وتبسط ، وتبقى الدنیا المطهرة إلى الأبد فی سكون لا یعكر صفوه .
 وكان ذلك یعرف فی « الأوستا » بالتصفية والتحدید ، وقد سر آو شروان فی أعماقه بذلك الدین فراح یبحث عن الراحة النفسیة فی الفلسفة وین أظهر تدبینه لسواد شعبه ، فقد قام طبیبه بررویه بترجمة كتاب « کدیه ودمه » وهو نص بهلوی لمجموعة من القصص وكان قد أتى بالأصل الهندی أثناء رحلته له إلى بلاد الهند .

وكتب بررویه مقدمة للكتاب ینس فیها احیاء الإسانیة والأوضاع الاجتماعیة فی عصره ، وكشف عن روح قلق یبحث عن الحقیقة فلا یجدها لكأما كان بررویه یعكس قلق أهل عصره ، قال :

وقد وجدت آراء الناس مختلفة وآراءهم متباينة ، وكل على كل عاد ویه عدو مغتاب ویه واقع ، فلما رأیت ذلك لم أجد فی متابعة أحد منهم سیلا ، وعرفت أنى إن صدقت أحدا منهم لا علم لى بحاله كست فی ذلك كالمصدق المخدوع ... فلما تحررت من تصدیق ما لا یكون ولم آمن إن صدقته أن یوقعنى فی تبهكة عدت إلى البحث عن الأدیان والتماس العدل منها ، فسم أحد عبد أحد من كلمته جوابا فیما سألته عه فیها ، ولم أر فیما كلمونى به شیئا یحق لى فی عقلى أن أصدق به ولأن أتبعه ، فقدت لما لم أجد ثقة آخذ منه فالرأى أن أألم دین آبائى وأجدادى الذى وجدتهم علیه ومممت بذلك .

ثم التمس لنفسى مخرجا فقلت : إن كان ما یفعل هذا معذور . . فلما ذهبت أتمس لنفسى فی لزوم دین الآباء والأجداد ، ولم أجد لها على الثبوت على دین الآباء طاقة ، بل وجدتها ترید أن تنصرع للبحث عن الأدیان والمساءلة عنها والطر فیها ، هجس فی قلبى وحطر على بالى قرب الأجل وسرعة انقطاع

الدنيا واعتباط أهلها وتحرم الدهر حياتهم . فلما حُف من التردد رأيت أن لا أتعرض له ولا لما أتخوف منه المكروه وانتصرت على كل شيء تشهده به العقول ويتفق عليه أهل الأديان ويُرى أنه صواب وحق ..

كان السكك يابى دين زرادشت ولكن العلوى انتقلت إلى برزويه من النصراني والمناوية والمزدكية ، فالترم السكك وحل كسرى أبو شروان في قفقه وشكه ونحته عن الحقيقة عن طريق القسمة . يبا كان رجال الدين في معبد النار يرتلون الأدعية المقررة للأوقات الخمسة المحددة في النهار ، ويقومون بكل أعمال المذهب .

ووقف المهرابدة في المعبد وقد أحضروا أفراسهم بأربطة لكيلا تلوث أنفاسهم النار ، يعدون النار يقطع من الخشب طهرت تطهيرا ديبا ، وهم يرتلون الأدعية الدينية ، ثم أخذ المهرابدة في نثر الأفراس التي سقى أن دقوها في أهوان وهم يتلون عليها بعض آى الأوستا ، وارتفعت أصوات المؤمنين بدعاء محمد النار ، وسار الموبدان حادى النار الأكر في قاعات المعبد المظلمة والنار مشتعلة فوق المذابح والأهوان تتألق والمهرابدة يتلون الأوراد التي لا تنقطع بصوت مرتفع ولحن جميل حيا وبصوت منخفض إلى حد التمتمة حيا آخر ، فأحس الموبدان راحة وتهدئت نفسه بالفرح .

وحاء النساء وذهب الموبدان لينام وهو هادئ النفس مستريح الضمير وما مس الكرى عيبه حتى رأى فيما يرى النائم فرسا عربية هجمت على حمل شرس ، وثار النقع ودارت بين الفرس والحمل معركة رهيبه انتهت بأن صرعت الفرس الجمل .

وقام الموبدان من يومه مفروغا وطلب من يفسر له حلمه ، فعاد رجل ممن يقرعون الطالع ويفسر الأحلام فقص عليه الموبدان حلمه ، فراح الرجل ينظر إلى النار

المقدسة ثم قال :

— إن صدقت رؤياك فإن العرب يغزون فارس .

وساد القاعة وجوم ، ترى أأوشكت ببوءة ساسان أن تتحقق ؟ أن يتزع العرب الملك من الساسانيين ؟ هل أطلّ العالم ذلك السى العربى الذى أوصاهم زرادشت بأن يستمسكوا بما جاءهم به حتى يبعث صاحب الجمل الأحمر ؟ فى تلك الليلة كان يهودى فى يثرب يقف على أطعمة ويصيح : « طلع نجم أحمد ! » وكان يوسف ليهودى ينادى فى مكة : يا معشر قريش . قد ولد نبي هذه الأمة هذه الليلة فى بھرتكم .

نشبت العيرة بين روما عاصمة الدولة الرومانية القديمة ، والقسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، هروما في أيام الرسل كانت أفضل الأماكن لتكون العاصمة الدينية للدولة ، بطرس أمير الرسل ختم حياته أسقفا لروما ، فلما فقدت روما مركزها السياسى ولم تعد عاصمة العالم بعد أن بسى قسطنطين القسطنطينية واتخذها قصة إمبراطوريته الجديدة ، تششت روما بمركزها الدينى وعصت كنيستها بالواجد على اتساب إلى بطرس الرسول وتمسكت بمقامها السامى .

وكانت كيسة روما تعص كيسة القسطنطينية كل البعض ، وكان التماس بينها وبين عريمتها أشبه بالتماس بين الرومان والفرس ، لكأنما أصبحت الخدمة الدينية تماسا على معام ديوية حتى إن كنيسة روما كرهت كل الكراهية أن تصح كنيسة القسطنطينية في المقام الثانى بعدها !.

كانت القسطنطينية تقول إنها روما الجديدة ومن حق كنيستها أن تكون الكنيسة التالية لكنيسة روما ، ولكن كيسة روما قالت إن كنيسة الإسكندرية هي الكنيسة الثانية بعدها لأن مؤسسها مرقص الرسول ، وروما لا تعترف إلا بالكنائس التى أسسها الرسل .

وزاد مرارة الموقف وانقسام العام المسيحى الخلاف الذى شجر بين الإسكندرية والقسطنطينية حو طبيعة المسيح والتجاء كل منهما إلى روما لالتماس التأيد ، وأحست روما خطرهما فظلت مستمسكة بأن رأيها ووجهة نظرها يبقى أن يسود دون ماقشة ، على حين أن القسطنطينية كانت تقبل ما تدعيه روما ، ب أقره مجلس

مكوى ، بينما كانت الإسكندرية تؤثر أن تفصل عن كنيسة روما وأن تعارض بعض ما يتقرر في المجالس المسكونية عن أن تتحلل عن لاهوتها لم يعيش الإسلام الذي جاء به السيد المسيح على الأرض طويلا فقد كان من سوء حظ الدين الجديد أن احتل بولس مقعد السيد المسيح فغمر الدين بالفلسفة الرواقية وأساطير الوثنيين ، وكان من سوء حظه أن اعتنق قسطنطين الوثني دين بولس فابتدع بدعة المجالس المسكونية التي كان لها حق التشريع الديني ، وقد كانت تلك المجالس تخضع لهوى الأباطرة فكانت تحرم في بعضها بعض ما كانت قد أحلته من قبل وتحلل ما كانت قد حرمته . وكانت المجالس المسكونية السبعة تعد هي والكتب المقدسة التي سلمت من يد قسطنطين أساسا للعقيدة الأرثوذكسية .

اجتمع كل مجلس من تلك المجالس للبت في نقطة خاصة من نقاط اللاهوت وإصدار حكمه ضد رندقة معينة ، وقد انتصرت البصرانية على الوثنية وهي تخص إحدى حروبها الأهلية يوم كان أتباع آريوس يحاولون بإبكارهم الألوهية التامة للمسيح أن يؤسسوا فكرة عن الربوبية تصوى على قدر أكبر من التوحيد .

وأصدر أول مجمع مسكوى وهو مجمع بيقية قرارا باستئصال اللغة عليهم ، ولكن الذي حدث هو أن مذهب آريوس ظل طول القرن الرابع بأكمله يستمتع بمحة الدوائر الراقية بالقسطنطينية ، ولم يقض على ذلك المذهب ببلاد الشرق إلا بعد انعقاد المجمع المسكوى الثاني في سنة ٣٨١ ، أما في العرب فإن هذا المذهب عاش قرونا عقيدة يؤمن به القوط .

وطلت الإسكندرية طويلا القرن الخامس وهي تحاول أن تتابع نصرها بإرغام المسيحية على الأخذ باللون الخاص الذي اتخذته للاهوتها ، وقد سحقت

فرصتها المواتية عندما ذهب نسطوريوس بطريرك القسطنطينية إلى تقسيم طبيعة المسيح إلى شقين : لاهوتى وناسوتى .

وكره الناس هذه الحركة لأنها تهاجم مكانة مريم البتول نصيرة انقسطنطينية وراعيها المحبوبة التي كانت مهددة بسبب ذلك إلى حرمانها من لقبها : أم الرب ، فاتحدت روما والإسكندرية لمهاجمة هذا المذهب الجديد . واجتمع المجلس المسكونى الثالث فى أفسس وأصدر قراره ضد ذلك المذهب بفصل قوة شخصية بطريرك الإسكندرية كيرلس ، وعقب ذلك التجمع انسحبت بعض كنائس شمال سورية وأسست هيئات مستقلة تحت حماية الفرس .

وقضت الإسكندرية على نفسها بعرط مبالعتها ، فقد راح بطريقتها ديوسقوروس يعرض وراء نظرية (بوتيخوس) عن المسيح ، وهى النظرية الداعية إلى وحدة طبيعة المسيح ، ولم توافق روما على الفكرة وأثر البلاط الإمبراطورى أن يتمشى مع مرج روما . ونعى المجلس المسكونى بحلقيدونية على ديوسقوروس آراءه ، وعندئذ أصبح أصحاب مذهب وحدة طبيعة المسيح هراطقة وصاروا موضع اضطهاد الأباطرة ورجال الدين فى روما والقسطنطينية .

وكانت المسائل اللاهوتية تختلف عليها فى الخصومات المتعقبة بوحدة طبيعة المسيح صغيرة سبياً ، فقد كانت تدور حول الفرق بين طبيعة واحدة وطبعتين لا يمكن الفصل بينهما . ولكن النتائج السياسية كانت هائلة ذلك أن مذهب وحدة طبيعة المسيح ظل مشكلة متسطة على تاريخ الإمبراطورية رهاء قرين من الزمان . وفى التجمع المسكونى الخامس المعقد فى القسطنطينية فى سنة ٥٥٣ اعترف يوسطيانوس بإخفاقه فى نشر ميثاق يوفق بين الطرفين

المتنازعين

وكان بيد أي قانون يصدر عن المجالس العامة للكنيسة يعتبر رذقة ومروفا من الدين ، ذلك أن القوم كانوا يرون أن أي مجلس مسكوني هو الهيئة الملهمه التي تعد قراراتها ملزمة لعالم المسيحية . وقد كان كل مذهب يعرض على المجالس المسكونية يحد له مؤيدين وأنصارا ، وقد كان هؤلاء يظنون على مذهبهم حتى بعد رفض المجالس لذلك المذهب ، وكانت النتيجة الطبيعية اشتقاق العلم المسيحي إلى فرق متنافرة يكفر بعضها بعضا

فتح بولس أبواب الخلاف على مصاريحها مند أن ادعى أنه رسول السيد المسيح إلى أتباعه المؤمنين . ولم تعرف لمسيحية الاستقرار لحطة واحدة بعد أن تطورت من دين سمح بسيط ، دين سماوي يدعو إلى الإسلام وعبادة الله وحده ككل الديانات السماوية من قبله إلى دين مرج بالفلسفة وأحيا الوثنيات وأصبح ميدانا لأهواء البشر يقررون في محامهم ما يشاء الأباطرة وأصحاب المعوذ ، ويصاهنون قول الدين من قبلهم فصارت تعاليم لسماء تسخ وتحرف وتبدل ، وأصبح الإله الواحد انقهار هو المسيح ابن مريم مرة « لقد كفر الدين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » وأصبح الأب والمسيح الأس مرة أخرى « وقالوا اتحد الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدا . تكاد السموات يتفطرن منه وتشق الأرض وتحر الحبال هذا . أن دعوا للرحمن ولد . وما يسعى للرحمن أن يتحد ولدا . إن كل من في السموات والأرض إلا آق الرحمن عبدا » . وأصبح مرة ثالثة ثالث ثلاثة « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمس الدين كفرهم عذب أليم أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم . ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد حلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ، انظر

كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون .

وكان المسيحيون يرقبون ظهور الفراقليط الذى بشر به المسيح ، وقد زعم بعضهم أنهم ذلك السى الذى بشر به عيسى ابن مريم ، ولم يجد هؤلاء أذنا واعية فلم يكونوا من أبناء أعمام موسى كما بشرت التوراة ، وزعم ماى فى فارس أنه « الفراقليط » ولكن الزرادشتيين المؤمنين كذبوه وقالوا إن زرادشت قد بشر بنبى يأتى من بلاد العرب .

وراح بعض الرهبان يعتزلون العالم فى صوامعهم انتظارا لحنى « الفراقليط » ، وكانوا إذا ما خرجوا من صوامعهم يحدثون الناس عن النبى المنتظر الذى بشر به موسى وعيسى والأنبياء جميعا .

إنه لا يتكلم من نفسه بل يتكلم بما يسمع « لا ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى . » وسيمكث مع الناس إلى الأبد . « يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . »

كان الأساقفة والقديسون يقومون بالشعائر الدينية ، وفى نفس الوقت يرفعون النجوم ويفسرون الأحلام ويعقدون الحلقات التى يتحدثون فيها من الراهبات وسيطات ، وكانت النيازك والكسوف تدلهم على الكوارث والملمات ، وكان رجال مهم يقومون بالتعجيم وقراءة المستقبل .

وكانت قاعة العرش فى القصر القيصرى بالقسطنطينية تستقبل المسجمين وقراء المستقبل والناظرين فى النجوم . وفى ذات يوم جاء العرافون وقد أطرقوا برءوسهم ولاح فى وجوههم الهم الشديد ، فقال لهم الإمبراطور .

— ما وراءكم ؟

فلموا الصمت فقال القيصر :

— قولوا .

— ولنا الأمان ؟

— ولكم الأمان .

فقال قائل منهم :

— إن لإمبراطورية سيدمرها شعب محتون^(١) .

وساد القاعة وجوم ، ولم يدر بخلد أحد أن نهاية لإمبراطورية الرومانية ستكون على يد العرب ، فقد كان العرب في ذلك اليوم الذي ولد فيه الهدى أهول من أن يفكر الأباطرة فيهم . فذهبت الأفكار إلى اليهود فراح فياصرة الروم يصطهدوهم ويسومونهم من العذاب ألوانا . يينا كان محمد بن عبد الله « المراقليط » الذي بشر به عيسى بين أحضان آمة يست وهب في دور بني هاشم التي تطل من فوق الصفا على الكعبة .

(١) انظر فريد جريوس في M.P.L. مج ٧١ ص ٦٤٦ .

وحزرت آمة على عبد الله حزنا كاد يودى بها إلى الوار ، فقد أحست فتى
ببى هاشم وراحت تحلم بمستقبل يسام يجمع بينها وبينه ، وما كادت تسهل
حياة الزوجية السعيدة ، حتى احتطفه الموت وهبك في أرض غريبة دون أن
تراه .

إنها استسلمت للأسى والدموع ولولا ذلك الذى كان يتحرك في بطنها
لرفضت الحياة ، فقد كانت ترى رحلة الحياة طويلة ممة ممصة دون رجلها
الذى شغفت به حبا .

كانت ياليتها مرعا وسهارها آلاما ، ولولا الرؤى العذاب التى كانت تطوف
بها مخف من لوعتها ولولا الهوائف التى كانت تفتف بها تشرها بمستقبل عظيم
لابن عبد الله لانفطرت كبدها وتصدع فؤادها وقتت بها حرما وطويت أيامها
القصيرة في الأرض .

لم تحس آمة مشقة طوال شهور الحمل ، ولم تحس مشقة حين وضعته .
ترى أكانت داهلة بآلام النفس التى كانت تفوق آلام الحسد ؟ إنها لم تغب عن
وعبها لحظة واحدة . كان أمها يشم روائح أطيب من الطيب ، وكانت عيها
تريان نورا لكأنه كان آتيا من فوق السموات ، ولما وضعته رأت نورا يخرج منها
قد فاض حتى نجيل إليها أنه عمر كل الأرض .

لم تكن تحلم بل كانت مرهفة الحس صاحبة الخواس وإن كان واقعها أقرب
إلى الرؤى والتحيلات ، حتى إنها كادت تعتقد أن ما هي فيه إن هو إلا سحرة

من سيحات الخيال ، وكانت الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف وبركة جارية عبد الله الحبشية تحدثانها في دهشة عما تريان وعما تحسان ، إيهما تريان نفس ما ترى ، وتحسان نفس ما تحس .

ونظرت آمنة إلى وليدها في حب شديد وهي تحاول أن تلقمه ثديها ، ولكن الوليد أقفل فمه فانتابها خوف على حبيبها ، ودار يخلدها أنه لم يرضع لجفاف لبنها فقد أثر حزنها على عبد الله على كل كيائها . وبعثت بركة تستدعي ثوية موضوعة حمرة بن عبد المطلب ، فلما جاءت ثوية التمسست منها أن ترضع محمدا فأخذته لترصعه ، ولكنه لم يلتقم ثديها فاشتد جرع آمنة وربما حومها .

ومضى أول يوم من مولده دون أن يرضع ، وانقضت ليلته الأولى وهو شاحص ببصره إلى القمر كأنه يباحيه دون أن يدخل جوفه شيء ، وباتت آمنة إلى جواره وهي تذلل كل ما وسعها الجهد لترصعه دون جدوى . وغصت آمنة عموة وبركة إلى جواره وتربو إلى وجهه الحميل فتستشعر كأن كوزا من الحب تفجرت في وجدانها .

وداع في دور بني هاشم أن ابن عبد الله مريض وأنه لم يرضع مد وقع على الأرض ، فجاء بعض سودة بنى هاشم إلى آمنة وراحت كل مهم نصف دواء ، وانقضى اليوم الثاني كما انقضى اليوم الأول : إغراض من محمد عن الرضاعة وشحوص بصره إلى السماء ، وقلق وخوف وهلع يستولى على الأم التي كانت تشفق على ابها اليتيم فباتت تخاف عليه أن ينحجمه البوار .

وتصرمت الليلة الثانية وآمنة ساهرة إلى جور ابها لم نعض ما عين . إنه ينظر إلى القمر كأنه يباحيه . كان مفتوح العينين لم يبد في وجهه الذبول بل تترقق الحياة في محياه وإن لم يعرف العداء طريقه إلى جوفه ، لكأنما كان مذ مولده يفضل عداء الروح على عداء الجسد ويقدم ضرورة النفس على ضرورة

البدن .

وترقرقت الدموع شفقة في عيني آمة . أيعيش ابنها يومين دون أن يطعم ؟ دون أن يدخل جوفه شيء ؟ وحاولت أن تلقمه ثديها إلا أنه زم شفثيه . ولى انصباح جاءت ثوية وما إن أعطته ثديها حتى أحذه وراح يرضع ، فتهللت أسارير آمة بالسرور وانشرح صدرها وطفرت إلى مآقيها العبرات . وداع في دور بني هاشم أن بن عبد الله قد برأ مما ألم به فجاءت هالة بست وهيب وهي تحمل ابها حمرة ، وجاء بعض نسوة بني هاشم لزيارة آمة ، وما كاد يستقر بهن المقام حتى أقبل عبد المطلب وفي يده ابنه العباس وكان ابن ثلاثة أعوام ليرى حفيده .

وحملت بركة محمدا وجاءت به إلى لعباس لينظر إليه فجعل النسوة يقلن لعباس :

— قبل أخاك .. قبل أخاك .

فمال العباس على ابن أخيه وقبله ، وعبد المطلب ينظر وقد اسعشت فيه عواصف رقيقة حابية . وأعادت بركة محمدا إلى فراشه ، وبعد قليل أنامت هالة ابنها حمرة بن عبد المطلب إلى جواره ، واسل العباس لينظر إلى أخيه وابن أخيه وما حطر على قلب أحد من الذين أحضوا بأطراف الحديث أن في فراش الوليد وعلى حواشيه اجتمع مجد الأرض ومجد السماء .

وجاء اليوم السابع من مولده فذبح عبد المطلب عه وأقام وليمة دعا إليها قریشا ودبت الحياة في شعب بني هاشم ، كان الخارث والزبير وأبو طالب وأبناء المطلب فرحين مستبشرين . وكان العباس يغدو ويروح بين إخوانه ثم استقر في حجر أبيه ، وانتهى الناس من الطعام والشراب والتفت أحدهم إلى عبد المطلب وقال :

— يا عبد المطلب أرأيت ابك هذا الذي أكرمنا على وجهه ما سمينه ؟
— سمينه محمدا .

— فما رعبت به عن أسماء أهل بيته ؟

— أردت أن يحمد الله في السماء وحلقه في الأرض .

ولم تخطر السماء في هوارن فكانت سعة جذب وشدة ، ففكرت بعض أسرات من بنى سعد أن تخرج إلى مكة التماسا للرصعاء فقد كان أشراف مكة يدفعون بأسيانهم إلى البادية ليعيدوهم عن قيظ بلادهم وليلتقطوا الفصاحة من أهل الصحراء . وكانت الأسرات البدوية تنافس على أساء الأثرياء دفعا لعائلة الخويع التي تهددهم في السنين الشبهاء .

قدمت مكة في اليوم الثامن لمولد محمد عشر نسوة من بنى سعد بن بكر يلتمس من الرصعاء ، وكانت فيهن حبيمة بنت أبي دؤيب ، وهو عبد الله بن الحارث بن شحمة بن حابر بن رزام بن ناصرة بن سعد بن بكر بن هوارن بن منصور بن عكرمة بن خفصة بن قيس عيلان بن مضر .

كانت حبيمة على أتان عحفاء كانت من شدة ضعفها تعطل سير الركب ، وكان معها صبي وناقاة ما تبص بفطرة لبس ، وكان يسير إلى جوارها زوجها الحارث بن عبد العزى . وقد تقضت ليلة وهم في الطريق لم يدوقوا فيها طعم النوم من صبيهما من بكائه من الخويع لا تحذ في ثديها ما يعديه ولا في ناقها ما يغديه ، ولكمها كانت ترجو العيث والفرح .

وبلغ ركب بنى سعد البيت المقدس فكان أول ما فعلوه أن طافوا بالحرم ثم حسوا ينتظرون مواليد أشراف مكة وساداتها ، وداع في الدور أن نسوة من بنى سعد قدمن يلتمس الرصعاء فصرح الجوارى والعبيد يحملون الأعرعة على سواعدهم ، وجاء عبد المطلب ومن حمله بركة وعلى يديها محمد بن عبد الله

ولم يمض على مولده غير ثمانية أيام .

وعرض عبد المطلب حميده على إحداهن فالتفتت إليه وقالت :

— أنت أبوه ؟

— لا . أبوه قد مات .

— يتيم ؟

فأوما عبد المطلب برأسه في أسي .

فالت المرأة :

— ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه ؟

كان عبد المطلب سيد قومه وكان يطعم حتى لطيور والحوارح والوحوش
في رعوس اجبال ، وعلى الرعم من صيته وعاه عُرِصَت المرأة عن حفيده ،
فبعد المطلب يوم في مكة ويوم في اليمن ويوم في الشام ، ومن يدرى فقد ينصرم
أجله ويصبح عبثا على من يأخذه .

ودهب عبد المطلب بمحمد إلى امرأة أخرى ، وأتت المرأة أن تأخذه لما
علمت أنه يتيم وقالت :

— إنما رحو المعروف من ألى الولد . فأما أمه فماداعسى أن تصنع إلينا ؟
ووقفت آمة على البعد تظر وعبد المطلب يدور بابها الحبيب على امراضع
والنسوة يحملن منه لأنه يتيم ، كأن اليتيم عندهن بلاء يستوجب الإعراض
والفرار .

ودهب عبد المطلب إلى حليلة وقد كانت دابة عجفاء وقد وصل إليها نأ
حميد عبد المطلب اليتيم ، وتقدمت آمة خطوات وأرهمت سمعها لتلتقط ما
تقول السعدية ، وإذا بصوت المرأة يفرع أدها ويحرك أشعها فتمتلئ بالعبرات
مآقيا ، قالت حليلة :

— يتيم؟ ماذا عسى أن تصنع لنا أمه؟ إنما برجو المعروف من أبيه .
عرض عبد المطلب حفضه على النسوة العشر فأبين جميعاً أن يأخذه ،
فأطرفت آمة وسارت في حطى وثيدة حريية والأسى بهصرها هصرًا . ولو
أصغت إلى الوجود لالتقطت أدناها صوت السيد المسيح وهو يقول .
« الحجر الذى رفضه الباعون صار حجر الزاوية » ، ولتهللت نفسها بالفرح
ولانقشعت تلك الدموع التى بدلت روحها .

ودارت بركة حارية عند الله الحشوية على عقيها وهى تطير إلى ابن عبد الله
فى إشفاق وقد حرك عواطفها أن النسوة جميعاً تركه لموت أبيه ، ورادى
أساها أن أصوات النساء راحت ترن فى أعماقها : يتيم؟ يتيم؟ يتيم؟ فتمرق
نياط قلبها .

وراحت حليلة السعدية تتلفت فرأت أنه لم يبق من صواحبها امرأة إلا
أحدث رصيعة غيرها ، فمن دى يدفع ناسه إلى امرأة لا تحب فى ثديها ما
يسكت بكاء أبها ؟

وأجمع لسنوه على الانطلاق ، فذهبت حليلة إلى روحها وقالت .
— والله إني لأكره أن أجمع من بين صواحبى ليس معى رصيعة . لأنطلق
إلى ذلك اليتيم فلا حذنه .

— لا عليك أن تفعل ، فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة .
لم تتحرك شفقة حليلة السعدية لذلك اليتيم بل كرهت أن تعود دون
رصيعة ، فذهبت وأخذته وما أخذته إلا أنها لم تجد غيره .

وعادت حليلة محمد إلى رحبها وألقمته ثديها فإذا به يحود باللبن .
وانثقت حليلة إلى روحها الحارث وفى عيبيها دهشة وفرح . وشرب محمد

حتى روى وأعطت ثديها ابها فشرب حتى روى .

وجاء الليل ونام الصبي وعرف الوسن إلى عيسى حبيمة وعيسى الحارث
فباتوا محير ليلة ، فلما أصبح الصباح قام الحارث مشرّح الصدر وألقى نظرة
على محمد فألماه يهادئا ساكنا ، وأحس أن قلبه قد تفتح لذلك الصبي فالتفت
إلى حليمة وقال :

— والله إنى لأراك قد أخذت نسمة مباركة .

جاء زيد بن عمرو بن نفيل إلى الكعبة وهو راكب حمله ، وألقى نظرة على الأصنام التي وصعت في داخل أول بيت وضع للناس وحوله فأحس أعماق الأمي ، وسرح به الخيال فرأى نفسه في نفر من قريش : ورقة بن نوفل وعثمان ابن الحويرث وعد الله بن جحش بن أميمة بنت عبد المطلب ، وقد حصروا عدوئهم كانوا يذبجون عنده لعيد من أعيادهم وقد خلا بعضهم إلى بعض وقالوا :

— تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض .

فقال قائل منهم .

— تعلمن والله ما قومكم على شيء ، لقد أخطئوا دين إبراهيم وحالفوه

وش يعد لا يصبر ولا يرفع ؟ فابتعوا لأنفسكم .

ورأى ربه نفسه وقد عزم على الخروج من مكة ليطلب الدين القيم ، ورأى زوجه صفية بنت الحضر مى وهى تنسل إلى أخيه الخطاب بن نفيل وتوسوس له برغبة ريد ، فيقبل الخطاب يرعى ويزيد ويتوعد ويدل كل ما في جهده ليحول بين أخيه والخروج لائقاس دين غير دين آبائه .

وفي غمة من الخطاب وصيفه انقلت إلى الشام وراح يطلب في أهل الكتاب الأول دين إبراهيم ، ثم انطلق إلى الموصل وجاب الجزيرة كلها ، ثم أقبل حتى أتى الشام فجاء فيها حتى أتى راهبا بيعة من أرض اليبقاء فسأله عن

الحنيفية دين إبراهيم ، فقال له الراهب :

— إنك لتسأل عن دين ما أنت بواحد من يحملك عليه اليوم ، فقد درس من علمه وذهب من كل يعرفه .

— على أى دين كان ؟

— كان حينما لم يكن يهوديا ولا نصرانيا . كان يصلى ويسجد إلى هذا البيت الذى ببلادك ، فالحق ببلدك فإن الله يبعث من قومك فى بلدك من يأتى بدين إبراهيم الحنيفية

ورأى ورقة بن نوفل وقد تنصر ، وعثمان بن الحويرث وقد اعتنق المسيحية ومال إلى الروم وقد راحت تراوده فكرة الانطلاق إلى القسطنطينية ، ثم رأى نفسه وقد كره الدحور فى المسيحية أو اعتناق اليهودية وآثر أن يحاول أن يعد الله على ملة إبراهيم .

وظل ريد على ظهر حممه ينظر إلى الكعبة وهو شارد ، فرأى نفسه وقد عاد إلى مكة ليدعو قومه إلى دين أبيهم إبراهيم ، فإذا بأخيه الخطاب يعلط له فى القول ويحرض الناس عليه وآداه أدى كثيرا حتى خرج منه إلى أعلى مكة . ولم يقتنع الخطاب بذلك بل وكل به شياها من قريش وسفهاء من سفاتهم وقال لهم : « لا تتركوه يدخل » . ورأى ريد نفسه وهو يدخل مكة سرا يتلفت خشية بطش أخيه به .

وسرح حياله فإذا به يتذكر ذلك اليوم الذى جاء فيه إلى مكة والناس يدبحون الديابح لآلهم ويدكرون عليها أسماء تلك الآلهة ، فقال لهم :

— الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأبست لها من الأرض ، ولم

تذبحوها على غير اسم الله ؟

كان يوما قاسيا شديدا فقد قام إليه الرجال وأوسعوه ضربا حتى كادت ترهق روحه ، إنه لا يسي ذلك اليوم وإنه ليعجب لقومه بصطهدونه لأنه يدعوهم إلى دين أبيهم إبراهيم ، يناسب ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبد الله بن جحش آمين وقد خرجوا عن دين القوم واعتصموا النصرانية .

ورفع زيد يديه إلى السماء وقال :

— اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم . اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إلتي عبدتك ولكنني لا أعلم .

ثم سجد على رحلته وانصرف راصيا وكل حبة من حبات عسقه تقول :

— إلهي إله إبراهيم ، وديني دين إبراهيم .

وجاء أوان الحج فأقبل العرب من كل فج عميق يطوفون بالبيت العتيق ويدعون عدا ساف ويتمسحون بالأصنام ، وأقبل زيد بن هبل ودخل الكعبة ثم قال :

— ليبت حقا حقا ! تعبدوا رقا ! عذت عما عاده إبراهيم وهو قائم ، إذ قال إلهي أنمي لك عان راعم ، مهما تجشمي فإني حاسم ، البرأعي لا أشمال ، ليس مهجر (في شدة الحر) كمن قال .

ووقع بصره على هبل وقد حف الناس إلى كاهنه ليستقسموا بالأزلام عنده ، فقال :

— هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل . لا أعبد حجرا ولا أصلي له ولا آكل ما دبح له ولا أستقسم الأزلام ، وإنما أصلي لهذا البيت حتى أموت .

ووقف الخمس يقدمون ثياب الطوف للناس إعاراة أو كراء فقد أذاعوا بين

الحجيج أنه لا يجوز الطواف في ثياب اقترفت عليها الخطايا ، وراح الفقراء يطوفون عرايا ، أما الدين طافوا في ثيابهم فقد حللوا ثيابهم بعد الطواف وطرحوها لقي لثبي من وطأة الأقدام ولعش الشمس وهبوب الرياح .

وراح الحجيج يسعى بين الصفا والمروة لإحياء لذكرى هرولة هاجر لما كانت تبحث عن ماء لابها إسماعيل الذي كان يموت عطشا وأقبل الناس على ماء زمزم الذي وضعه عبد المطلب في أحواض من آدم وبث فيه التمر والزبيب .

وراح الناس يمارسون شعائر الحج التي بقيت من أيام إبراهيم الخليل وقد اعتورها ما اعتور الدين القيم من تبديل ، فقد وضعت الأصنام في الأماكن المقدسة على الصفا والمروة وعلى جبل ثبير ، بل تكدست الأصنام في جوف منارة التوحيد تكديسا .

كان إبراهيم يلبى في الحج . « لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك ! » . فلما عرف العرب عبدة الأوثان تبدلت التلبية لتتفق مع معتقدهم الجديد ، فأضافوا إلى تلبية التوحيد تنبيه الشرك فتحاولت في عرفات بداءات المشركين كانوا يحسبون أنهم يحيون شعائر إبراهيم الخليل :

— لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك .

وصاق زيد بدلك الشرك وهو واقف معهم على عرفات وقد التصق كفه بأكتاف سادات قريش وأشراف العرب ، ولكنه ما كان قادرا على أن يفعل شيئا . أليستطيع أن يكلم هذه الأمواه التي تضج بتلبية إبراهيم الخليل وقد دنس توحيدها الرائع شرك مبین ؟ إنه أعجز من أن يقف في وجه ذلك الطوفان من

البشر الذى احتلط في وجدانه الكفر بالإيمان . وتذكر قريشا وهى تطوف بالكعبة وتقول : « واللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، هاهن العرائق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى » . فامتلاً فؤاده أسى وحسرة على قومه الذين يتشفعون إلى الله بأصنام لا تنفع ولا تنصر .

وراحت تلبية الشرك ترن في أذنيه وتوَلَّم روحه ، وأراد أن يصم أذنيه عن تلك التلبيات التى ظاهرها وباطنها عذاب فارفع صوته يردد :

— ليك لا شريك لك ولا يد لك ! .. ليك لا شريك لك ولا يد لك !
ولكن صوته ضاع بين الأصوات المشتركة التى كانت تتصاعد مدوية تريد أن تبلغ السماء .

كان على عرفات عرب من الحيرة والشام ويثرب وحمود وتيماء ومن كل قبائل الحجاز واليمن قد جاءوا كلهم ليؤدوا فريضة أبيهم إبراهيم الخليل . وكان منهم حفاء يؤمنون بالله وحده وإن كانوا لا يعرفون على أى وجه يعبدونه . وصابئة يعبدون الله وصابئة يعبدون الملائكة وصابئة يعبدون الكواكب والنجوم . وكان فيهم من يعبد الأصنام وهو يعتقد أنها رمز لقوى فوق قوى البشر ، ويؤمن بأنها تدير وتدبر سير الطبيعة وسير حياة الإنسان ، ومن يعدها وهو يعرف أنها رمز للشمس والقمر فقد كانت عداة الشمس والقمر في العرب قبل أن يهديهم إبراهيم الخليل إلى الله ، وقد ارتدوا إليها لما طال عنهم العهد وطمرت أساطير الأولين جوهر دين الإسلام . ملة أبيهم إبراهيم .

كان العرب الذين جاءوا من كل فج عميق ليقفوا حسا إلى حسب في عرفات يؤمنون جميعا برب البيت . وما تحملوا مساعب السفر إلى الحرم إلا لاستئمانه واسترضائه لعله يرضى عنهم ولكنهم صلو الطريق إليه ، تقربوا إليه بالملائكة

والكواكب والنجوم ، وبالأصنام وبالأوثان ، وجعلوا له أصدادا وشركاء
وبنات يشفعون لهم ويقربون إليه رلمى .

وعلى عرفات نسي عرب الحيرة أهم عرب الفرس ، ونسي عرب
العساسنة أهم عرب الروم ، ونسي عرب الفياثل ما بينهم من عداوات وإحس ،
وتوجهوا جميعا بقنوبهم إلى السماء وإن كانت ألستهم تلبى تلبيات تصلهم عن
سبيل الله .

وراح عبد المطلب وبوه يسهرون على راحة حجاج بيت الله يقدمون
الطعام لمن يحتاج إلى طعام ، ويسقون الناس وهم يلبون تلبية قريش وإن
احتلمت فكرة كل منهم عن إلهة ، كان عبد المطلب يؤمن ببعض ما سمعه من
يهود يثرب أيام كان صبا ، وكان يعتقد مثلهم أن ليس بعد هذه الحياة حياة ،
وأن المرء يجزى بأعماله في هذه الدنيا ؛ ولكن تحارب الأيام علمته أن بعد هذه
الحياة حياة أخرى يحاسب فيها المرء على أعماله إن حيرا فحير وإن شرا فشر .
وكان بعض قومه يؤمنون بالآخرة فكانوا يربطون ناقة الميت عندما يموت إلى
قرنه حتى تموت معه لكي يتمتعها يوم الحساب ويسير بها إلى الصراط .

وكان أبو طالب وأبو لهب والحارث والزبير يعتقدون أن ليس بعد هذه
الحياة حياة ، كانوا من شباب قريش الدين أنكروا البعث ، وقد كان كثير من
شباب مكة مثلهم يعكفون على شرب الخمر وعلى اللهو ولا يتصورون أن تلك
الأصنام التي يعبدونها قادرة على أن تحييم مرة أخرى بعد أن يكونوا عظاما
ورفاتا ، وكانوا يتقربون إلى آلهتهم بالقراين والدعوات لتحريهم على أعمالهم
في الحياة الدنيا .

وكان العباس في كنف أمه ينتظر أوبة أبيه عبد المطلب من الحج ، وكان

حمزة بن عبد المطلب بين ذرعى هالة بنت وهيب لا يدري ما الحبح وما بيت وما الآلهة ، وكان محمد بن عبد الله في بى سعد ترصعه حليلة ويتصع إلى وحوه إخوانه من الرصاعة عند الله بين الحارث وأنيسة بنت الحارث والشيماء ، وكانت تحضنه مع أمها وقد تعلق قلبها بحب الوليد الذى جاءهم من حرم الله .

وراحت قبائل العرب تصبح بالتبسة والشمس تميل للغروب وقد أطالوا النظر إلى أصنام آلهتهم التى جلبوها معهم . ولو أصحابهم سمعهم إلى دعاء أبيهم إبراهيم الخليل يوم أن جاء إلى الوادى المقدس : « وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البنداما واجسى وبى أن تعبد الأصنام . رب إسن أضلل كثيرا من اناس فمن تعنى بانه مى ومن عصانى فيك عمور رحيم . » لحطموها آلهتهم ، ولكن طال عليهم الأمد وفست قلوبهم فجعلوا لله أندادا

وراحت الشمس تعيب في الأفق البعيد فاطلقت من الحاحر ابتلالات وحفقت القلوب بين الصدور واهمرت الدموع من العيون وترقب اناس أن تنجلي عليهم السماء . وما إن عاصت الشمس في رمال الصحراء وعابت عن العيون حتى نعر الحجاج إلى مى وهم يلجون تنبئة الشرك ، واطلق ريد بن نفيل من عرفة ماشيا وهو يقول :

— لبيك متعبدا مرقوقا . لبيك متعبدا مرقوقا .

وصاعت تلييته بين تلييات الشرك والصلالة .

كانا يطوفان حول الكعبة وفي قلبيهما أسى على الأصنام التي تكدست في خوفها ومن حولها ، وعلى قومهما الذين تركوا دين أبيهم إبراهيم وجلسوا الأصنام من كل بقاع الأرض لتقريبهم إلى الله رلفى ، كانا ورقة بن نوفل وعثمان ابن حويرث .

رأى ورقة وعثمان وزيد بن نفييل أن آلهتهم إن هي إلا أحجار لا تصر ولا تنفع . فخرجوا إلى يثرب وإلى الشام وإلى الحيرة وألقوا السمع إلى أحبار اليهود ورهان الصارى ، فتصر ورقة وعثمان ، وأنى ريد أن يدخل في النصرانية بعد أن قسدت وجعل الله ثالث ثلاثة ، فراح يبحث عن دين إبراهيم ، الحنيفية الحققة ، فقبل له إن ما تبحث عنه يوشك أن يظهر في قومك ، فعاد إلى مكة وقد أعلن أنه على دين إبراهيم ، وإن كان لا يدري على أى وجه يعبد ربه ، وراح يرقب الأيام يتطرق ذلك لدى سيعته الله ليعيد ملة أبيهم إبراهيم ببصاء ناصعة .

دخل ورقة وعثمان وغيرهما من سادات قريش في دين النصرانية ولكهم لم يؤمنوا بوحدة طبيعة المسيح ولم يؤمنوا بلاهوت المسيح وناسوته ، لم يكونوا بساطرة ولا بعاقبة ، بل آمنوا بأن المسيح رسول من عند الله كان يأتيه الخبر من السماء ، وأنه عيد من عباده وأمه صديقة .

وقد حاول ورقة وعثمان ومن اتبع النصرانية من قريش ، وزيد بن نفييل الذى أراد أن يعود إلى دين إبراهيم إلى الوحدانية الخالصة ، أن يهدوا قومهم إلى

الدين القيم ، ولكن قومهم آذوهم شديدا ، ووصعوا أصابعهم في آذانهم وأعرضوا عنهم ، فسكت الدين تنصروا والدين كفروا بعبادة الأوثان عن هداية قومهم ، فقد عجزوا عن احتمال الاضطهاد والعذاب فلم يكونوا من أولى العزم ولم يكونوا من أصحاب الرسالات

وكان ورقة وعثمان ومن اتبع دين السيد المسيح من العرب يطوفون بالبيت ويقفون الموقف في الحج ، فقد كانوا يؤمنون بأن البيت العتيق هو أول بيت وضع للناس وأن إبراهيم خليل الرحمن وإسماعيل قد أقاما قواعده ، وأن الحج شريعة الخليل وأنه ركن من أركان الإسلام الذي جاء به أبو الأنبياء ، وإن كان العرب قد دسوا عليه ألوانا من الشرك بعد أن راغت عقائدهم لما طال عليهم الأمد .

وعكف ورقة بن نوفل على دراسة التوراة والإنجيل ، وراح يتردد على بيع الرهبان وأخبار اليهود يناقشهم في أمر الدين ويتلقى منهم ما عندهم من علم وقد لفت انتباهه أن موسى بشر يسى يوحا إليه ليس من بنى إسرائيل بل من أبناء أعمامهم من نسل إسماعيل أتى العرب ، وراح ورقة يدرس في إمعان نبوءات السيد المسيح « بالعراقيلط » حاتم المرسلين الذي سيكث مع الناس إلى الأبد ، وقد سمع ورقة ولا شك لما ذهب إلى الحيرة بذلك الذي بشر به ررادشت « صاحب الحمل الأحمر » الذي سيبعث في العرب .

واستولت فكرة أن يبعث الله نبيا أميا — من الأمم لا من بنى إسرائيل — على كل تفكيره . فراح ينقب في كتب الأولين عن ذلك السى وراح يطوف على الأحبار وصوامع الرهبان وعلى رعاة السحوم ، فأكد له أخبار اليهود ورهبان البصري والناظرون في السحوم أن يحم ذلك السى قد طلع وقد أطل العالم

رمانه ، فبات ورقة يتنظر مبعث ذلك النسي ليكون أول من يؤمن به ويصره نصرا مؤزرا .

ونتهى طواف ورقة وعثمان فانطلقا إلى حيث كان عبد انطلب جالسا على فراشه في ظل الكعبة ومن حوله بوه ، وخويلد بن أسد وأمية بن حرب وعتيق ابن عابد زوج حديجة بنت خويلد ، فألقيا على الجميع التحية . ثم ذهب ورقة ليحلس إلى حوار خويلد ابن عمه وذهب عثمان ليحلس إلى حوار أمية .

كان كل الحاصرين ينتهي بسهم إلى قصي مجمع قريش ، وكانوا سادات قومهم وأشرفهم ، وكان الحديث يدور بينهم عن الوفد الذي سينطلق إلى اليمن لتهنئته سيف بن ذي يزن على انتصاره على الأحباش وعودة ملك حمير إلى العرب . وتشعب الحديث فراح قائل يقول : إن الأحباش قد هزموا قبل أن يأتي سيف بجود فارس ومراكب كسرى أبو شروان ، هزموا هنا يوم أرادوا أن يهدموا بيت الله فباعوا بالخزى والعار . وقال قائل إن أبرهة قد هزم مد ذلك اليوم لدى اعتصم فيه روضة ذي جدد وقبل أن يرزق منها مسروقا ، فلا يبى ملك على العصب والظلم وانقهر والاستبداد . وقال قائل إن هريرة أبرهة كانت ببركة دعاء عبد المطيب ، ولم يقل أحد منهم بها كانت ببركة ذلك الذي كان لا يزال في بطن أمه بنت وهب . حتى ورقة بن نوفل الذي كان يتعجل ظهور نبي بني إسماعيل لم يدر بخلده أن محمد بن عبد الله الصقل الرضيع الذي ذهب إلى مضارب حيام بنى سعد على يدي حليلة السعدية ، هو نبي هذه الأمة ، وأن الله قد قيض له فرصة حروجه مد مولده إلى البيداء لتتكون الأسباب بينه وبين السماء ولتشتد أوامرها على مر الأيام .

واستمر الحديث بينهم وعثمان بن الحويرث في شروده لا يسمع شيئا مما

يدور حوله ، فقد كان يفكر في الذهاب إلى القسطنطينية إلى مصر فيصر ، لعائيل
يوسطيوس الثاني ويعرض عليه أن يكون ملكا من قبله على مكة يؤيده بقوته
على أن يحمل إليه حراح بلاده . ولم يجد فيما يدور في خاطره معرفة ولا حياة
هسيب بن دى يرن يحكم اليوم اليمن بسطان كسرى ، والعمان بن المنذر
يحكم الحيرة بسطان أنو شروان ، وملك العساسة يحكمون الشام بسطان
القياصرة ، حتى مشايخ القبائل كانوا مؤيدين بكسرى أو قيصر .

وراح عثمان يستعيد كل ما سمعه عن استقبال القصر القيصري للحارث بن
جليلة ملك العساسة لما انطلق إلى القسطنطينية ، ويجرى حياله حلف كل ما
وعته ذاكرته عن دهاب امرئ القيس إلى القيصر يوسطيانوس يستعين به على
استعادة عرشه ، وما كان من صداقة بينهما ومادمة حتى إنهما كانا يدحلا
الحمام معا ترى كيف يكون استقبال الإمبراطور يوسطيوس له إذا ما شد
الرحال إلى القسطنطينية ومادا سيقول بقيصر ومادا سيقول قيصر له ، واستمر
عثمان يخلق وراء أحلامه المحسنة ولم يفتق من شروده إلا على صوت عند المطلب
وهو يسأله :

— وأنت يا عثمان هل ستذهب في وفدنا المسافر إلى اليمن لتهنئة ابن دى
يزن ؟

وقال عثمان في اقتصاب :

— لا .

وكان مطلقا مع نفسه فكيف يذهب إلى تهنئة حبيب فارس إذا كان يفكر
في الانطلاق إلى قيصر يعرض عليه أن يوليه أمر الحجر ، وأن يكون له مثل
سيف بن دى يرن لكسرى ؟ . وعدد عثمان يسرح وراء حياله فراح يؤكد

لنفسه أن قيصر سيرحب بما سيعرضه عليه ، فأباطرة الروم يتمسكون أن تكون
كعبة العرب حليلة لهم ، فلو أنهم اطمأنوا إلى أنها قد صارت في معسكرهم
فذلك يريد من مكانة الروم في أعين العرب .

وهض خويلد بن أسد وروح ابنته عتيق بن عابد ، وقبل أن يبصرها قل
خويلد لورقة :

— ألا تأتي معنا ؟

— أين ؟

— إلى دار عتيق .

— إلى لم أر الطاهرة بعد أن وضعت طفلها .

كانت حديجة تعرف بالطاهرة وما تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها ، ولم
تكن تشارك فتيات مكة في مجوسهن ، وكانت على الرغم من حداثة سنها تسأى
عن محاليس اللهو وتهتم بقوافل فريش وبتحارة أبيها . وكانت تستريح إلى مجلس
ورقة فقد كان يحدثها حديثا طليبا عن لأديان وعن الرسل الذين يعظمهم الله
لهداية البشر .

وانطلق خويلد وعتيق وورقة إلى دار حديجة ، ولحمت جاريتها من الشبك
إقبال سيدها وصحبه فحفت إلى سيدتها تقول :

— سيدي الصغير وسيدي الكبير وسيدي ورقة.

وأسرعت الحارية تفتح الباب ، وقامت حديجة لتستقبل القادمين . وإن هي
إلا لحطات حتى كان الجميع جالسين في عرفة أثنت برياش فاحر جلب من
الشام ومن الحيرة ومن اليمن ، ولا غرو فقد كانت حديجة بت سيد من سادات
فريش وتاجر من أكبر تجارها .

وجاءت هالة بست حويد أحبت خديجة ، وما كادت تستقر حتى قالت
خديجة لأختها :

— هاتي هند فاس العم ورقة لم يرها بعد .

وقامت هالة وما لشت أن عادت وهي تحمل ابنة أختها هدى بين يديها وقد
أشرق وجهها بابتسامة عذبة . ولاح في وجه عتيق السرور وهو يربو إلى
ابنته ، وأخذ خويلد الطفلة وقبلها ثم قدمها إلى ورقة ، وما كادت الطفلة
تستقر بين يديه حتى قالت هالة :

— إني غاضبة .

فقال ورقة مداعبا :

— لأنها أجمل منك أ

— بل لأن خديجة لم تسمها باسمي .

فقالت خديجة وقد رفعت على شفيتها بسملة رقيقة :

— لا تعصبي فسأسمي وليدي الثاني هالة ، سواء أكان ذكرا أم أنثى

وقال خويلد مداعبا :

— وأنا ؟

فقالت هالة في مرح :

— ألا يكفيك يا أبتاه أنا بحمل اسمك ؟

وأراد خويلد إغاطتها فقال :

— ومتى خلدت البت اسم أبيها ؟

فقال ورقة في هدوء :

— إذا ما تزوجت عظيما أو أنجبت سيذا من سادات قومه .

وقالت هالة .

— أو سادت قومها .

ضحك الجميع حتى هالة ضحكت من قولها ، وما لبث ورقة أن كف عن الضحك وقال :

— وفيم ضحكنا ؟ إن ملكة سبأ سادت قومها

وقال حويد :

— والرباء منك تدمر .

وراحت لروايات تروى عن ملكة سبأ وعن الزباء التي وقعت في وجه الرومان حتى وقعت أسيرة في أيديهم وحملت إلى روما ، فقد كان سادات قريش وعقائهم وبناتهم على علم بالأحداث الحصرية في العالم من حولهم . وذهبت هالة مهدت حديجة وشعنت مداعبتها عن كل ما حولها ، وقدم حويد وعتيق بن عابد إلى الشرب ، واعتدروا ورقة بن نوفل لأن الحمر حرم فقد كانت تشرب في الكنائس وفي كل مكان من العالم المسيحي على رغم أن المسيح كان شرب حمر ، بل لأنه كان يحدث حديجة حديث الأسياء وهو حديث حبيب إلى قلبه وروحه .

كان ورقة يحدث أخته رقيقة عن السبي العربي الذي يجده مكتوباً في التوراة والإنجيل حتى جعلها تسمى أن تكون أم ذلك الذير ، فراحت تنعرس في وجوه شباب قريش فرأت في وجه عبد الله شيئاً مشيراً جديداً إليه وجعلها تعرض نفسها غيبه لتحقيق لها الآمال ، ولكن عبد الله دخل على آمنة بنت وهب وذهب عنه ذلك السحر الذي هفت إليه ، فعافته نفسها وأعرضت عنه لما جاء إليها بعد أن سبى بآمنة يسأها ، لم لا تعرض عليه اليوم ما كانت تعرضه

بالأمس .

كان حديث ورقة عن اسي الأمي ، الذي سيعث في الأمم لا في بني إسرائيل مثيرا ، وكان يستولى على أفئدة سامعيه ، وكان يريد ذلك الحديث روعة العموص الذي يكتنفه ، فقد كان ورقة يضع نصب عنه مآثر موسى والسيد المسيح وهو يئثر باقتراب ظهور « العراقلط » .

وراحت حديثه تصعى إلى ورهه وهي مأخوذة بعذب حديثه ، إنه يحدثها عن أصنام قومها ويسحر من أها كلها إياها . اللات والعري وماة « إن يدعون من دونه إلا إياها » ويحبرها أن قومها قد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ، ويقص عليها قصة رحته في الأرض ليأخذ علمه عن أهل العلم ، وما كان يبه وبين زيد بن عمرو بن نفيل لما قال لهم لعلماء ، إن أحب الدين إلى الله دين هذا المشر به ، فقد قال لزيد ، أنا أستمع على نصرانيتي إلى أن يأتي هذا السي أما زيد فقد أتى أن يتنصر واحتد في أن يتبع مة إبراهيم ، وعاد إلى مكة ينتظر ظهور ذلك المشر به .

كانت حديثه لم تتجاوز الخامسة عشرة ، وكانت مقبلة على دينا مشرفه كنها مبهجة وهو ومرح ، إلا أنها كانت تحذ نفسها تنفتح للأحاديث الحادة ، أحاديث التجارة وأحاديث الدين ، وقد ألقت إلى ورقة سمعها فتشوقت إلى ذلك العصر الذي يتحدث عنه ورقة حديث الواصل ، ونمت أن يمتد بها العمر لترى ذلك الذي بشرت به الأنبياء ، وما دار تحذها في تلك اللحظة أن الله يدحرها لتكون نعم السند لذلك السي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل .

انطلق سادات قريش وشعراؤها إلى اليمن لتهنئة سيف بن ذي يزن ومدحه وذكر ما كان من بلائه وطلبه بنأر قومه ، وبلغ وفد العرب صنعاء وسار إلى قصر عیدان واستأذن عبد المطلب رئيس الوفد في الدخول على الملك ، فأذن له ، فراحوا يسعون في طرقات القصر مشدوهين فقد كان القصر آية في الروعة والجمال .

كان عبد المطلب عن يمين رئيس تشريعات الملك ، وكان من خفيهم أمية ابن عبد شمس وعبد الله بن جدعان وأسد بن خويلد بن عبد العزى وأشرف قريش وشعراؤها وقد رتدوا أبى حلهم . وقد كان عبد المطلب فخما كأنه القمر تحف به السجوم .

وفتح باب قاعة العرش فإذا الملك مضمخ بالعنبر يرى لمعان اطيب من معرقه ، عليه بردان مؤنزر بأحدهما مرتد بالآخر ، سيفه بين يديه وعن يمينه ويساره الملوك وأباء الملوك والرؤساء ، فانطلق عبد المطلب حتى دنا من سيف بن ذي يزن وقال :

— أياؤذن لي مولاي في الكلام ؟

فقال سيف :

— إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك فتكلم فقد أذن لك .

فقال عبد المطلب :

— إن الله أحبك أيها الملك محلاً رفيعاً ، صعباً مبيعاً شامخاً بادحاً . وأنتك مستطابت أرومته ، وعزت جرثومته ، وثبت أصله ، ويسق فرعه ، في أكرم موطن ، وأطيب معدن . وأنت أبيت اللعن ملك العرب وربيها اندى يخص ، وأنت أيها الملك رأس العرب الذى إليه تقاد ، وعمودها الذى عليه العمد ، ومقلها الذى تنجأ عليه العباد . سلمك خير سلف ، وأنت لما مهم خير حلف ، فلن يجعل ذكر من أنت سلفه ، ولن يهلك من أنت حلفه . ونحن أيها الملك أهل حرم الله وسدنة بيته ، أشحصا إليك الذى أهجنا لكشف الكرب الذى فدحنا ، فنحن وفد التهئة لا وفد المرزئة .

فقال ابن دى يرن :

— فأيم أنت المتكلم ؟

— أنا عبد المطلب بن هاشم .

وتذكر سيف بن ذى يزن أن هاشماً تزوج سلمى الخرجية وأن الخرج من

اليمن ، فقال :

— ابن أحتا ؟

— نعم . ابن أحتكم .

— ادن .

فأدناه على القوم وعليه فقال :

— مرحبا وأهلاً ، وناقة ورحلاً ، ومستاخاً سهلاً . قد سمع الملك

مقاتلكم ، وعرف فراحتكم ، وقبل وسيلتكم ، فأنتم أهل الليل وأهل النهار ، لكم الكرامة ما أقمتم ، والحجاء إذا ظعنتم .

وانطلق وفد قريش إلى دار الضيافة والوفود فأقاموا شهراً لا يصلون إلى

الملث ولا يأذن هم بالانصراف ، ثم اتبه انتباهه فأرسل إلى عبد المطلب فأخلاه وأذن مجلسه وقال :

— يا عبد المطلب إلى مفضل إليك من سر علمي ما لو كان غيرك لم أبح له ، ولكن رأيتك معديته وأطلعتك عليه ، فليكن عندك مطويا حتى يأذن الله فيه ، فإن الله بالغ فيه أمره .

إلى أجد في الكتب المكنون ، والعلم المخزون ، الذي احترباه لأنفسا واحتجاه دون غيرنا ، خيرا عظيما ، وخطرا جسيما ، فه شرف الحياة ، وفصيلة الوفاة ، للناس عامة ، ولرهطك كافة .

— أيها الملك فمثلك من سرُّ وبر ، فما هو ؟

— إذا ولد بتهامة ، علام بين كتفيه شامة ، كانت له الإمامة ، ولكم به الزعامة .

وشرد عبد المطلب يفكر ويجمع حيوط ما سمع من نبوءات بعضها إلى بعض ، إنه ها في اليمن قال له الكاهن : إب في إحدى يديه ملكا وفي الأخرى نوء . وقالت كاهنة قريش لأمته : إنها البديرة وستلد نديرا . وهتف بآمة هاتف يوم أن حملت بابن عبد الله إنها حملت بسيد هذه الأمة . وقد أمرت آمة عندما ولدته أن تسميه محمدا . إنه محمد ولا ريب ذلك الذي بشر به الكهان والرهبان وأحلام اليقظة ورؤى المنام ، إنه محمد ولا ريب سيد هذه الأمة . وهتف روح عبد المطلب إلى حميدة لدى حملته مرضعة بني سعد لتفتح عيناه أول ما تفتح على الحرية الطليقة والطبيعة الآسرة ، والكون المريض بما ينض من سحر وأسرار .

وأذن الملث لوفد قريش بالرحيل بعد أن أمر لكل من القوم بعشرة أعد

وعشر إماء سود ، وحتيتين من حلل البرود ، وخمسة أرطال ذهب وعشرة أرطال فضة وكرشا مملوءا عبرا ، ولعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك .
وعاد الوفد إلى مكة ، وذاع بين الناس عطاء الملك فحسد الناس عبد المطلب ، فقام في الناس وقال :

— يا معشر قريش لا يعطى رجل منكم مجزىل عطاء الملك وإن كان كثيرا فإنه إلى نفاق . ولكن ليعطى ثمانى ولعقبى ذكره ومحره وشره .
وقال قائل :

— وما ذاك ؟

فقال عبد المطلب في هدوء :

— ستعلمون ما أقول لكم ولو بعد حين .

وسمع عثمان بن الحويرث عما كان بين قريش والملك سيف بن دى زن ، فعادت فكرة انطلاقه إلى القسطنطينية تستولى على كل تفكيره . فسبأ أصبح منكبا على اليمن من قبل كسرى أبو شروان إمبراطور فارس ، وما كان سيف على دين الخوس ، فما الذى يحول بين عثمان وبين الذهاب إلى يوستيوس الثانى إمبراطور الروم ليعرض عليه أن يكون ملكا على الحجاز من قبله ، وكلاهما على دين المسيح ؟

وتجهز عثمان لرحلته وقال إنه عازم على زيارة القسطنطينية ولم يفض إلى أحد مما يدور في رأسه . ولم يثر رحيه عجب القوم فقد كان سادات قريش في رحلة دائمة بين الشام والإسكندرية والقسطنطينية والحيرة وفارس واليمن ، وقد قبر رجال منهم في كل أرجاء دنيا ذلك العصر .

وراح عثمان بن الحويرث يسعى إلى القسطنطينية يعبر القفار ويترك

الواحات ويرحل إلى مدد الشام حتى انتهى به السعى إلى مشارف القسطنطينية ، فإذا بقباب القصر الكبير وممراته المسقوفة والمجذلة بالقراميد الملونة تصرّب في السماء ، ومن ورائه كنيسة أياصوفيا شائعة في الفضاء . إنها درة في فن العمارة فاقت هيكل سليمان .

وراح دهن عثمان يعمل ؛ إنه ليدكر أن يوسطنيانوس فيصر الروم بى أياصوفيا كنيسة الحكمة المقدسة لتنافس كنائس الإسكندرية وروما وكل معابد الأرض ، وقد بدل كل سعى لتكون القسطنطينية المدينة المسيحية الأولى في العالم المسيحي . وقد تحقق له ما أراد فالإسكندرية كانت مكعب الكراهية للإمبراطورية ، وكانت كنيستها تؤجج بوارع البعضاء للحكومة الرومانية ، هراحت تناصر الفتن والأمانى الوطنية التي كانت تذلل كل جهد لتتخلص من استعباد الرومان .

كانت كنيسة الإسكندرية مسيحية وكانت كنيسة القسطنطينية مسيحية ، ولكن شتاد بين مسيحية ومسيحية ، هراح أباطرة الروم يدلون كل جهد لإضعاف نفوذ كنيسة الإسكندرية ، وقد قبل ذلك من قيمة الإسكندرية العالمية وإن كانت الإسكندرية قد بدأت ترلزل الأرض تحت أقدام أباطرة الرومان .

وتقدم عثمان من إحدى بوابات المدينة وكانت لها اثنا عشرة بوابة فلمع تلال القسطنطينية السبعة تنهض قائمة كالحدار على اليوسفور والقرن الذهبي ، يسا كان الحدارها من ناحية بحر مرمرة ألطف وأسهل والامتداد فيها أرحب وأوسع

ودخل عثمان من البوابة المواجهة لقصر الإمبراطورية ونظر ففغر فاه من

لدهشة . كانت الحدائق تمتد من القصر حتى البسمور ، وفي الحبوب ميدان مسيح للسباق يظل على مرفأ القصر المرخرف بقوش وتهاويل تبده العقل ، وكنيسة فحمة للقديس سرجيوس وأخرى للقديس باكوس قامتا في حي محفض ملء بقصور أقل فخامة من قصر الإمبراطور . ولكنها تنطق بالغنى واليدخ

والتفت عثمان يسارا فرأى السور البحرى عما يعلوه بين حين وآخر من أبراج ، وقد شقت فيه فتحات تسمح بوجود مرفأ صناعية ترسو فيها السفن التى لا ترعب أن تدور حتى تدخل الموانى .

وسار عثمان فى الشارع الأوسط ، وهو شارع يبدأ من مدخل القصر وحلبة السباق ويمتد ميلين تحف به من جانبيه العقود ويمر من خلال سوق قسطنطين وسوق أخرى ، وكانت السوقان مزدانتيں بتمائيل الأباطرة والقديسين . وعلى جانبي الشارع أهم حوانيت المدينة مرتبة فى محاميع حسب ما يتبع من سلع ، فراح عثمان يرقب صياغة الذهب ثم الفضة والبرنز ، ويشاهد ما يعرض تجار الأثاث والملابس والحلود .

كانت أعنى تلك الدكاكين قرب القصر عند حمامات زيو كسيبتوس ، فقد كانت سوقا ضخمة للحرير ، وقد عرفت تلك السوق باسم دار الأنوار ، لأن بوافذ غرفها كانت تصاء ليلا ، وكان ذلك جديدا على عثمان بن الحويرث ، فراح يطوف بالقسطنطينية قبل أن يتوجه إلى القصر الإمبراطورى ليعمل على تحقيق حسمه الذى صار يسرى فى كياهه مسرى الدم .

كانت المناظرات تقوم فى ضميره بينه وبين قيصر الروم وكانت جميعها تنهى بموافقة يوسطينوس الثانى على أن يكون عثمان ابن الحويرث ملكا على

مكة من قبل الإمبراطور العظيم ، وقد هدأت مصه حيا من الدهر وهو يطوف
بأنحاء عاصمة الدولة الرومانية اشرقية وهو مشدوه ، فقد كانت الشوارع
والأسواق وحيات المساق متاحف تعرض فيها أدع ما صورته بد الأقدمين
من التماثيل .

وانتهى عثمان من طوافه فيمم صوب القصر وهو يرجو أن ترتبط بينه وبين
قيصر الأسباب ، وأن يتحدده يوسطيسوس بديما كما اتحد يوسطيسيانوس امراً
القيس الشاعر العربي بدي له من قبل ، وطلب المثول بين يدي الإمبراطور
لتقديم ما جاء به من هدايا من بلاد الشرق .

ونحدد موعد المقابلة فحاج عثمان في ربه العربي احلاب وسار في ردهات
القصر وهو مذهول لا يصدق عينيه ، مما دار في حلدته أن هناك على وحه
الأرض مثل ذلك الترف وتلك الروعة .

وما كان دخول القصور شتاً جديداً على عثمان فقد رار اخورنق من قبل
ورأى قصور الشام ، إلا أن ما كانت تقع عليه عياه يهوق كل وصف
وفتح باب قاعة العرش وفي لمح حاطفه رأى عثمان الإمبراطور يوسطيسوس
الثاني إلى جواره الإمبراطورة صوفيا وقد ارتديا أفخر الثياب ، وكانت
الإمبراطورة تتألق في الخواهر التي تنزيرها وقد أكتثرت من وضع الأصابع
على وجهها .

وحر عثمان ساجداً ولم يرفع رأسه إلا لما سمع أن الإمبراطور قد سمح له بأن
يهص . وقام عثمان ووقف خاشعاً برهة ، ثم قدم إلى الإمبراطور والإمبراطورة
طرفاً من فارس واليمن فهبت أسارير الإمبراطورة . وسمح الإمبراطور لعثمان
بالجنوس فراحت الشوة تعربد بين حبيه ، وراح عثمان يذكر للإمبراطور

والإمبراطورة مكانة مكة بين العرب وكيف أن البيت هو قبلة العرب جميعا في الحيرة والشام وفي الحجاز وفي اليمن . وكيف أن من يملك مكة تدبر له بالولاء كل قبائل العرب ، وظل يوسطيسوس يصعد إلى عثمان وهو على عدم مكانة البلدة المقدسة عند كل العرب ، فقد كانت أعر أسمية للروم أن يتصل بصارى الحشة واليمن بصارى الشام والقسطنطينية ، وقد قام أبرهة بحملة لتحقيق ذلك الحلم ولكن الحمله تكسرت أمام بيت العرب المقدس ، وإن إمبراطور الروم وساستها يعحبون من أمر تلك الكيسة التي أصابت أصحاب العين . وقال عثمان فيما قال :

— تكون ريادة في ملكك كما أن اليمن قد أصبحت ريادة في ملك كسرى أبو شروان .

كانت أسمية أباطرة الروم وساستها أن تكون الأرض التي بين الحشة والقسطنطينية أرض في حوزة الروم أو حلقة للروم يعرف عنها السر الرومانى ، ويأخذوا ووضع إلى جوار الراية الرومانية صليب المسيح أما وقد أخفقت حملة أبرهة فلا أقل من أن تكون مكة ريادة في ملك يوسطيسوس ويحمل عثمان بن الحويرث إليه حراح تلك البلاد . ولم يظهر الإمبراطور هفة على الاستجابة إلى رجاء عثمان بل حدثه حديثا لبا ووعدده أن يطر في الأمر ودعا الإمبراطور والإمبراطورة عثمان بن الحويرث لمشاهدة السباق معهما ، وقد اعتبط عثمان هذه اللقطة الكريمة وعددها مكربة واششرح لها صدره ، فقد كانت دليلا على أن ما عرصه على الإمبراطور قد لقي قبولا في نفسه .

واطلق الإمبراطور والإمبراطورة وصيهما العربى الذى بظمع في أن

يكون منك على مكة من القصر إلى المقصورة الإمبراطورية مباشرة ، فلما رأى الشعب قيصر ضح لمكان بالهتافات ، وراح عثمان يقلب نظره في ميدان السباق وهو في ذهول ، فقد كان يرى مدرجات ضخمة تتسع لما يقرب من أربعين ألف مشاهد .

وراحت العربات الرومانية تتطلق في سباق رهيب وعثمان يرقب ما يجري وهو مشدوه ، وانتهى السباق وقد بلغ حماس النظارة غايته ، والأنفاس مكروية في الصدور وقد اتسعت العيوب وأرهفت الحواس .

وخرل المصارعون إلى أرض الملعب وضج المكان بالهتافات ، وفتحت أقفاص الوحوش الكاسرة وبدأ الصراع بين البشر والوحوش لصارية ، وتأججت حماسة الناس لما سالت الدماء . وانتهت المعركة الرهيبة والهتافات ترتفع إلى السماء ، ولم يخفق قلب واحد إخفاقة شفقة أو رحمة فقد أماتت الحصار الزائفة الشعور الطيب في الناس .

ونزل إلى أرض الملعب حزبا السرك وهما الزرق والخصر فاشتعلت حماسة الناس وبدأ الصراع . وراح الناس يرقبون ما يجري بين المريقين وقد انفعلت المشاعر انفعالا كادت تفلت بسببه سيطرة الناس على عواطفهم وتحدث اضطرابات . وكثيرا ما وقعت الفتنة السياسية أثناء ذلك الصراع فقد كان كل حزب سياسى يؤيد فريقا من المريقين ، وكان لكل فريق لونه السياسى والدينى .

وهبط إلى أرض الملعب العبيد للصراع حتى الموت فتجاوبت أرجاء الملعب بالتهليل والهتاف ، وفتحت العيون ولاحت القسوة في الوجوه . وأذن مصارعين من العبيد ببدء القتال فاستل كل منهما خنجره وراح يدور حول

عريه في حرص شديد يلتمس منه غنلة ليطعنه طعنة قانية . دون دس حاء .
إرضاء لشهوة الأسباد في سفلك الدماء ، وهجم أحدهما على الآخر وطعه
طعة أفلت منها ، وفي مثل ملح البصر رد على الطعة الطائشة طعنة لم تصب
القلب بل جاءت في الصدر . وما إن سالت الدماء حتى اسعث من الجماهير
هتاف ورئير لكانه مسعث من وحوش كاسرة في العاب .

وتهللت أسارىر الإمبراطور وانفرجت شفتا الإمبراطورة عن بسمه تم عن
الفرحة المنتشرة في وجدانها ، وراح عثمان يطهر السرور والعبطة إرضاء
ليوسطيسوس العظيم وصوفيا لمبجدة ، واستمر صراع الوحوش البشرية حتى
جللت الأرض بالدماء وغطتها حثث الصحايا .

وعاد الإمبراطور ممثل أعظم حصارة في الأرض إلى القصر شامحا دُفنه
مزهوا بما بلغت إمبراطوريته من رقي ، وعن يمينه وشماله صوفيا الحميلة وصيفه
العربي الكريم الذي جاء ليمد طل الحصارة الرومانية على مكة .

واجتمع قيصر وروحه عثمان بن الحويرث وأحبره أهما قبلما جاء يعرصه
عليهما ، وقد تفصل الإمبراطور يوسطيسوس بأن كتب له كتابا يوليه من قبله
على مكة وختم في أسفله بالذهب ، وخلع على عثمان حلعة وحمله الهدايا ، حتى
بعله عثمان أهدى إليها سرح موشاة بالذهب

وتأهب عثمان ليعود إلى مكة وهو يكاد يطير من الفرح ، فقد صار حاكم
مكة من قبل قيصر ، إنه ممثل أعظم حصارة عرفتها الدنيا ، وما يحسب أن
الأرض ستشهد مثل تلك الحصارة التي شاهدها بعينه في القسطنطينية .

وطافت بدهه فارس وراح يقارن بينها وبين حصارة الرومان ، فإذا سواه
يؤكد له أن الرومان أكثر حضارة من الفرس ، فإن كانت الفرس قد طهرت

في الحروب على الروم فإن ذلك إلى حين وستعلب الروم الفرس وتصبح أعظم
قوة في الأرض وتزحف حصارها إلى الأبد على العالمين .
وسخرت السماء بأحلام عثمان بن الحويرث فقد كانت العاية الإلهية
ترعى صبيبا من نسل قصي مثل عثمان ، مستؤتيه حكمة وتوحي إليه بكتاب
منير ، تقوم على شرائعه حضارة تنهر كل الحضارات

كانت الشمس ترتفع من حلف الحمال كأنها قرص من انفضة بتوهج ، وقد
 شعت منه أشعة واهية صریت حولها دائرة من شفق أحمر مرجت به أضواء من
 جين . وراح قرص الفضة يرتفع ويتألق وتداح أشعته حتى احتلت ما بين
 الجبلين وغمرت وادی هوار بنور خافت ما لبث أن اشتد وازداد تألقا .

وجلست حليلة السعدية أمام دارها ترصع عمدا وهي ترنو إليه في حب
 شديد ، وشرد حياها وإذا بها تسترجع ذلك اليوم المبارك الذي جاءت فيه إلى
 مكة مع نسوة من قبيلتها يلتمس أطفال سادات قريش . إنها ترى عبد المطلب
 سيد قريش يقبل بحوها ويرى في جوفها ذلك الحوار الذي دار بينهما في ذلك
 اليوم :

— من أنت ؟

— أنا امرأة من بني سعد .

— ما اسمك ؟

— حليلة .

— يخ بح سعد وحلم حصلتان فيهما خير الدهر وعر الأبد . يا حليلة إن
 عمدي علاما يتيما وقد عرضته على نساء بني سعد فأبين أن يقبله وقلن : ما
 عند اليتيم من الخير ، إنما يلتمس الكرامة من الآباء . فهل لك أن ترصعيه فعسى
 أن تسعدى به ؟

— ألا تفرنى حتى أشاور صاحبي ؟

وعادت حليمة تنظر إلى محمد ، مشرقة الوجه متفتحة النفس فتستشعر غنى وعواطفها التي تفيض بالرصاص والحب كلما رنت إلى وجه الطفل الجميل الأسر الذي سعدت به .

ورأت نفسها وهي تذهب إلى آمنة لتأخذ منها الطفل فإذا هو مدرج في ثوب صوف أبيض وقد راح في سبات ، فراحت تتأوله في رفق شفقة بها أن توقظه من نومه ، ولكنه فتح عييه فراعها حبه فمالته عليه وقبلته بين عييه فاستشعرت مشاعر غامضة مثيرة لم تحس مثبها من قبل ، في طالما قبلت ابها الرضيع ولكنها لم تتفتح له ذاتها مثل ذلك التفتح الذي طرأ على وجدانها . وطلت حليمة في دهشة من أمرها فما حطرها على بال أن الله أنقى في قلبها محته .

ووضعت حليمة محمدا وجاءت بابها عند الله لترضعه فإذا بمحمد يحبوها وهماك ويحبي إلى كل جانب . وشعلت حليمة عن ابها عراقتة فهو يشب شباب لا يشبه العلمان ، فإذا كان ابها عبد الله أسن منه فهو لم يجب بعد . وجاء الحارث بن عبد العرى روح حليمة ، فلما رأى محمد انطلق إليه وحمه وراح يقلبه ويضمه إلى صدره وحليمة تنظر إليهما وقد رقت على شفيتها بسمة سعيدة ، فقد راح الحب يحقق بحاجيه على الوادى كله يوم عادت من مكة بذلك الطفل المبارك .

وأقبلت أيسة والشيما وهرعت كل منهما إلى أبيها تريد أن تأخذ منه محمدا ، ومدت الشيما يديها لتناول الطفل فقد كانت أكبر من أيسة ، فلم تجد أيسة مهرا من أن تصيح لعلها تصل بصوتها إلى ما عجزت يداها أن تبليه

فابتسم الحارث هما وراح يحاول أن يقنع أليسة أنها أصغر من أن تحمله ، فرأت أن تطل حخته فجذست على الأرض وطلبت من أبيها أن يضعه في حجرها ، فأشرق الحارس بالرصاصا ومال محمد حتى وضعه في حجر الصعيرة .

وظهر في وجه الشيماء الأسياء ، وفطنت حبيمة إلى ذلك فدعتها لتحمل أخاها عبد الله ، ولكن الشيماء أعرضت عنها وذهبت إلى حيث ترعى غنم أبيها .

ودخلت واحدة من عييمات حبيمة إلى حيث كان محمد ، فلما رآها راح يحول إليها ويمد إليها يده ، فإذا بما تمد رأسها إليه وتلمسه في حنان ، وبدأ تعاطف مشير بينهما . وسرت في المكان براءة ناصعة وطهارة حافقة ورحمة دافقة ، وأفعم بحب ما بعده حب ؛ حب حائل مرأى عن أهوى ، أبقى من الصفاء وأرق من كل ما في الوجود من رقة ، وأسمى من كل ما في الدنيا من سمورفة . وجاء الليل وبام عبد الله وبكى محمد ، فحملته حليلة وخرجت به من دارها إلى الخلاء . كانت السماء صافية والسحوم تتلألأ في قبتها الرقراء . وما أن رأى محمد جلال ما حوله حتى كف عن البكاء ، وراح يربو إلى مصاييح السماء وقد ران على وجهه هدوء عجب ، وسرعان ما غمرته سعادة لكأئما كانت روحه تمتص رحيق كه الوجود ، ولكأئما قد ارتبطت الأسباب بيه وبين السماء .

عرفت حليلة فيه حبه لتقليب وجهه في الكون فكادت تتركه الساعات في النهار يعمس النظر في شروق الشمس من خلف جبال هوارن ، وفي واديها الحديب ، وفي أرضها إذا ما أحيتها الأمطار بعد موات ومستها بعصاها

السحرية فكستها حلة سدسية زيت باليوافيت والمرجان والزبرجد وكل ألوان الثمار وكانت تخرج به في الليل إلى العشاء ليرقب القمر ويرى إلى الكواكب والشمس ، ويصيح السمع إلى رفرات سيم الصبا ورثير هبوب الرياح ، فقد كان على الرعم من صعر سه يتعاطف مع الكون ويتأسق مع ما حوله ويتهلل بالفرح كلما مد عينيه إلى الأرض الخرداء والأرض لخصراء ، وإلى السماء الصافية والسماء الملبدة بالغيوم ، وإلى ظلام الليل ، وإلى الشمس الراهرة والكواكب الثابتة والكواكب السيارة ، وكان احتفاله بالليل عجباً لكأنما قد حقق رعى السماء ، عذاء لروحه لتقوى وتشد وتسمو حتى تقدر على أن تتصل بما وراء الطبيعة ، بروح الوجود ، بدات النوات .

وبلع محمد من العمر سنتين فإذا به يعدو ويروح في قبيلة هوارد وقد تفتحت له القلوب وبشت له الرحوه وألقى إليه الناس أسماءهم وهم في عجب من أمره ، فقد كان يتحدث حديثاً فصيحاً يأخذ بمجامع الألب ، ويشب شباباً لا يشبه العلمان .

ودات ليلة ران على دار حليلة حرد ثقيل فقد فصلت حليلة محمد وى انعد سسطلق به مع زوجها إلى مكة لتعيده إلى أمه آمة بب وهب ، وساد الجميع وجوم فقد نزل محمد في سويداء قلوبهم ، صار بصعة مبهم وقد أحبوه حبا حماً ملك عليهم كل حواسهم . وقطع السكون قول الشيماء لأمها :

— لماذا لا يمكث محمد فينا يا أمه ؟

ولرمت حليلة الصمت وقال الحارث :

— فصل محمد ولم يعد في حاجه إلى من ترصعه .

كانت أنيسة قد سعدت بسؤال أختها وكانت ترجو أن يمكث محمد فيهم ،

فما سمعت قول أبيها أحست أن هذه آخر ليلة تجمع بينهم وبين الطفل الحبيب ، فقامت إلى حيث كان محمد وقبته وفي الخلق عصاة وفي العين دموع .

وآن أوان الرحيل فركب حيمة أتابها وحملته عليها معا ، فإذا بالشيماء تأتي وتعاود ثقيله وعبراتها تجري على خديها ، وإذا بأبيسة تقف حزينة تستشعر إحساس من فقد عزيزا وأن الوجود صار فقرا فقد سلت منه روحه التي كانت تخفق بين جنبيه

وسارت حيمة على أتابها ومحمد معها وانطبق الحارث إلى جوارهما وهو مطرق يتمنى لو يعود بالطفل الذي أحبه وتعلق به كل أهل بيته . وراح يسأل نفسه ، ترى أتعلم أمه أن تدعه هيا سنتين آخرين ؟

وبنح الركب مكة ، فذهبت حيمة ومحمد في يدها والحارث إلى جوارهما لتطوف بالبيت العتيق وتتمسح بجدران الكعبة . وراح محمد يطوف بالحرم وهو مشدوه يترس في الأصنام الكثيرة التي أقيمت حول الكعبة ، فقد كانت أول مرة يرى فيها آهة قومه وما يجري عندها من مراسيم وعبادات .

ودخل الحارث وحيمة ومحمد إلى جوف الكعبة ، حيث كان نثال هبل ، ورأى الناس وهم يستقسمون بالأرلام ويصربون بالقديح ولم يمه مما يدور حوله شيئا ، ولكنه ضاق بالرحام فجذب يد حيمة وخرج والحارث في أثرهما .

وسار الركب الصغير إلى الصفا حيث دور بني هاشم ، ووقف الجميع أمام دار عبد الله بن عبد المطلب ، ونزلت حليمة عن أتابها ثم حملت محمدا وتقدم الحارث بطرق باب الدار ، وما لبث أن انفرج عن بركة الحيشية حارية

عبد الله ، فبما رأت محمدا أشرق وجهها بالفرح وحطفته من حليمة في لحظة وراحت تمطره بقبلاتها وهي تستشعر كأنما صمت الوجود كله إلى صدرها . وراحت بركة تمهول إلى حيث كانت سيدتها وهي تحمل بن عبد الله الغالي وتمتف في فرح وفعال :

— محمد جاء .. محمد جاء .

ومس صوت بركة أدنى آمنة فانتفضت من الرأس إلى القدم ، وسرت البشرى فيها تملؤها بالشوة والفرح . ولم تستطع أن تكبح عواطفها فراحت تستيق إلى حيث كانت بركة ومحمد الحبيب قادمين .

ورأته بقلبها قبل أن تراه بعينيها ، وراح فؤادها يقفر بين حسيها يهوى إليه . وما إن مدت نصرها إليه حتى أحست أنها قد ملكت ربة الدنيا وسهحتها وأن أهazيج النشوة قد ملأت كل الكون .

وأحدثته من بركة في رفق وصمته إلى صدرها في حمان وراحت تنفخ في كل مكان وقد نهلت بالفرح ، و سنتشعرت كأن عبد الله الحبيب قد بعث من جديد وآب إليها بعد طول غياب .

ولف محمد دراعه حول عنق أمه وهو سعيد ، واستراح للعواطف المياصرة التي غمرت ما آمنة . لقد كانت حليمة تحبها طالما صمته إلى صدرها وقبلته وفاصت عليه تحاسها ، ولكن ما يحسه في تلك اللحظة أحر من كل حب فاص عليه في أرض هوار ، فقد كانت مشاعر آمنة تندفق من قلب عامر بالحب على ابها الوحيد الذي احتطط المسون أباه قبل أن تكتحل برؤيته عيناها .

كانت آمنة سعيدة غاية السعادة راضية كل الرضا بأن محمدا قد عاد من البداء ليؤنس وحدتها ويملا الدار الموحشة بهجة وأملا . وقد ربت سعادتها ما

حظر على بالها أن عمه حمزة بن عبد المطلب قد آتب من الصحراء ، واستقر في حجر أمه هالة ، وأن محمداً سيوجد رفيقاً في مثل سبه بشاركه لعبه ولن يصح ابنها الحبيب وحيداً .

وحاء العباس بن عبد المطلب وكان ابن خمس سنين يرور دار آمة ، فقد كان العباس يدور على دور بني هاشم يلعب مع صبيان الحي ويملاً فراغ يرمه . فلما وقعت عيباه على محمد بش له وإن كان يرو إليه في إنكار ، فابتسمت آمة فرحاً وقالت له :

— قبل أخاك .

لقد قالت له نسوة بني هاشم يوم أن وصعت آمة محمداً مثل ذلك نقول ولكنه سى مقاتلتهن ، وراح يدنو من الطفل الحميل وهو في حيرة من أمره ، حتى قالت له آمة أن محمداً هو ابن أخيه عبد الله وكان يستصرع في بني سعد وقد عاد ليحكث فيهم ولن يعيب عنهم بعد اليوم .

ودهت آمة إلى حيث كانت حليمة وروحها الحارث وراحت تحدثهما حديثاً لهما يفيض رقة ، وشكرت لهما عنايتهما بابنها الحبيب ، وقدمت إلى حليمة ثم الرعاية فاعرورت عيناها بالدموع لأنها كانت أحرص شيء على أن يعود محمد معها إلى دارها ، فقد ملأ فؤادها واستولى على مشاعرها . ورأت حليمة أن تختال لتعود بمحمد فقالت :

— لو تركت بُنيّ عندي حتى يعُلُظ .

واتسعت عينا آمة دهشاً وسرى فيها حرف فقد فاجأتها حليمة بذلك القول الذي لم يحظر لها على بال ، أتريد أن تعود به حليمة ولم يحكث معها إلا يوماً أو بعض يوم ؟ وفيهم كانت أوثقه إذا كانت حليمة تريد أن تعود به إلى

هوارن ؟ إنها سترقص ذلك العرص في رفق وكفى ما فات ، فهو سيثب هـ
في مكة ، بين أهله وعشيرته ليأخذ مكان أبيه الذي ذهب في عمر الورود ،
وقبل أن تفتح آمنة فاهها لتعتذر قلت حيمة :
— فإني أخشى عليه وباء مكة .

وباء مكة ؟ أجل وباء مكة . وخافت آمنة على ابنها الحبيب من ذلك
الوباء . الخبر لها أن تحتمل فراهه سنتين آخرين من أن يصاب محمد بالمرض وأن
يهلك كما هلك أبوه من قبل ، واندكت كل مقاومة في نفس آمنة وسرورها
خوف على ابنها الوحيد فقالت في صوت حافت مستسلم :
— حديه .

وم يكن أمرا سهلا أن يترع محمد من أحضان أمه . إنه التصق بها لا يريد
أن يفصل بينه وبينها أحد ولو كانت أمه حيمة أو كان أبوه الحارث . فلم ترل
حيمة تحدّثه عن أحبه عبد الله وعن أخته أنسة وأخته الشيماء وعن العبيات
التي يحبها وجبال هوارن وسمائها حتى قبل أن يعود معها ، ليتعلم الصبر على
فراق الأحبة .

وسار الحارث ومحمد وحيمة حتى خرجوا من دار آمنة وآمنة تروى إليهم
خافقة القلب دامعة العين ، فقد حاء محمد ليبيح الدكريات ويحرك العواصف
ثم يذهب محلما في الدار التي بدأت تنص بالحب والحياة فراعها وجفافا
ووحشة .

وكان ذلك الفراق أول حزن أحسه الطفل الصغير ، وما أكثر الأحرار
التي سيتحملها صابرا صاحب القلب الكبير .

تأهب عثمان بن الحويرث ليعود إلى مكة ليضع التاج على رأسه ويصبح ملكا على تهامة بعد أن ولاه يوسطيوس الثانى إمبراطور الروم حاكما من نفسه ، ورأى أن يصلى فى كنيسة أيا صوهيا قبل مغادرة القسطنطينية تملقا لقيصر وليبارك الله له فى خطواته المقلدة .

ودخل عثمان وهو يرتدى ثيابه العربية الكنيسة الفحمة وقد أظرق برأسه تواصعا لله وإن كان الرهو يملأ قلبه ، فقد بدأ يحس حطر نفسه بعد أن صار أول ملك فى قومه ، فما عرفت تهامة الملكية يوما ، وقد كان من يلى البيت منذ مصاض بن عمرو الجرهمى يحكم الأرض المقدسة بحكم منصبه الدينى . كانت كنيسة أيا صوفيا اية من ايات الفن البيزنطى الذى امترح فيه الفن الأعرىقى الرومانى والفن الآرامى والإيرانى امتزاجا كاملا فخلق شيئا هريدا فى بابه ، أصيلا فى نوعه ، بمجد الدولة ومجد فى ثايا ذلك إله المسيحية .

كانت تماثيل المسيح كما تصور الفساد البيزنطى متشرة فى أرجاء الكنيسة ، تماثيل تستثير حدة الاعمال ، تختلف عن تماثيل اليونان التى تحب راحة النفس واشراح الصدر للجمال ، تعكس قسوة العذاب الذى تحمله الإله تارة ، وتنم عن الخير الإلهى تارة أخرى . وقد انتشرت فى ساحة الكنيسة القباب التى أقيمت فوق مربعات وزيت الحدران بالنفيسساء ، واستعمل الذهب فى المخطوطات المحلاة بانصور ، وحتت التماثيل من الرحام والبرونز الملون أو الممره بالذهب ، ولا عرو فقد كانت الكنيسة تحارى الأباطرة فى الفخمة

والعظمة . فمن كان للأباطرة أنصاف الآلهة قصور وعروش وماعات لثياب وجناح للحريم ، فلا أقل من أن يكون بيت الإله في مثل روعة قصور أنصاف الآلهة وفخامتها .

وشعل عثمان عن إلهه بتأمل التماثيل والرخارف والنهاويل وثياب رجال الدين ، ولم يحس ربه في صميمه بل كان بعيدا عنه بعد الصحراء التي جاء منها وبساطتها عن ذلك التعقيد في العقود والقباب والتماثيل ، وراح يصلى ويتوسل دعاءه وهو شارد لا يفقه ما تتمم به شفته ، فقد كان قلبه مشغولا بالحياة الدنيا التي أقبلت عليه ، والمجد العظيم الذي ينتصره .

وغادر عثمان كنيسة أيا صوفيا وركب بعلته وسار في الشارع الأوسط وعن يمينه وشماله الحوانيت وقد عصت بالناس ، فلم يحدث انتباهه ما يجري في أعظم شوارع بيرنطة ، ولم يحمل بالتماثيل الرائعة القائمة في كل مكان . فقد كان يغد السير ليصل إلى بوابة المدينة التي تقوده إلى طريق الشرق ، إلى مكة عاصمة ملكه المرتقب .

وراح عثمان يقطع الفياق والقفار ، وكان في كل خطوة يحضوها عربيا تغذى بمعتقدات العرب وإن اعتنق الدين المسيحي ، كان إذا مر مكان موحش يعتقد أنه مأهول بالجن والأرواح فكان يحس سكناه بقوله : « عمو اطلما » خوفا ورهبة من الجن واستجلابا لعطفها عليه حتى لا تمس جلالته بسوء . وإذا هبت عاصفة أو رحمت روية كان يقصر ذلك بقتال طوائف الحس ، وكان إذا رأى حية يعتقد أنه رأى بيت الحان ، فقد كان عربيا جاهليا حتى . سحاح وما كان الدين الذي اعتنقه قد سرى في وجدانه مسرى معتقدات الآباء والأجداد .

ومرت الليالي والأيام وعثمان يطوى الأرض في طرق قوافل التجارة ويمر

معدن الشام والحجاز ، وهو حريص على كتاب يوسطيوس إلى أهل مكة ، حتى إذا ما لاحت لعينيه جبال الوادى خفق قلبه رهبة ، وقفز إلى رأسه سؤال : ترى كيف يقابل أهل الحرم أمر توليته مبكا عليهم ؟ وانتابه قلق وسرعان ما راح يقتل ذلك الاضطراب الذى لفه بأن يؤكد لنفسه أن ليس هناك بين المكين من يجرؤ على رفض قرار أصدره إمبراطور الروم المبجل العظيم .

كانت مكة تمارس نشاطها التجارى ، يغدو ويروح فيها تجار من الشام والروم والفرس واليمن ومن كل مكان ، شاركوا المكين فى سكاهم وتحالفوا مع أثريائهم ، وكان تجار الشام خاصة يجلبون القمح والريت والخمور الحيدة إلى تجار مكة . وكان عبد الله بن جدعان والويد بن المغيرة المخزومي وأثرياء مكة يقرضون الناس بالربا الفاحش ويمولون قوافل التجارة ويجيئون الأرباح الطائلة .

وكانت مكة تمارس نشاطها الدينى يطوف أهلها بالبيت العتيق ويتمسحون بالأصنام ، وكان بعضها منحوتا من الحجارة وبعضها معمولا من النحاس وبعضها قوارير ، وكان صمم خزاعة من قوارير صفر ، ولم يتقرب المكين إلى تلك الاصنام على أنها حجارة لا تضر ولا تنفع بل كانوا يعتقدون حلول أرواح بتلك الأصنام ذات قوة معالة خفية ، تطرد الخبائث عن عبادها وتحلب لهم الخير والبركات .

وكانت مكة تمارس حرياتها حتى أقلت الرمام وانقلبت الحرية إلى فوضى مدمرة تهدد الكيان المكى وتشنت الجماعات وتضعف الروابط بين الناس ، تلك الروابط التى تمكن من قيام مجتمع مدنى قادر على أن يهض بأهله ليكون لهم حصارة بين الحصارات .

وتقدم عثمان بن الحويرث وقد لس لحلة التي حللها عليه إمبراطور الروم وركب بغلته وقد وضع عليها السرح المموه بالذهب وفي يده رسالة قيصر إلى أهل مكة وقد حتمها بالذهب . وما إن وقعت عيابه على الكعبة حتى تقاصرت نفسه وطافت به موجة من الرهبة وراغت نظراته واستشعر جماعاً في حلقه واضطراباً يسرى فيه من الرأس إلى القدم .

ونزل عثمان عن بعلته وراح وهو المسيحي يطوف بالبيت لعتيق مع المشركين والصابئين والخفء ، فقد كان الجميع يؤمنون أن البيت أول بيت وضع للناس ، وأن إبراهيم وإسماعيل قد أقاما القواعد من البيت كما أمرهما بذلك رب الناس أجمعين .

وانتهى عثمان من طوافه ولم يستطع أن يصر على ما حاء به ، فقام في الحرم وقال :

— يا قوم . يا قوم .

فذهب الناس إليه وأعاروه معهم فقال :

— يا قوم ، إن قيصر من قد علمتم أموالكم ببلادهم وما تصيبون من التجارة في كنفه ، وقد ملكني عليكم . وإما أنا ابن عمكم وأحدكم ، وإما أحد منكم أحراب من القرط والعكة من السمن والأوهاب ، فأجمع ذلك ثم أبعث به إليه ، وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يجمع منكم انشام فلا تتحروا به ويقطع مرفقكم منه .

وساد القوم وجوم ، وقدم عثمان كتاب قيصر وقد حتم بالذهب ، وما إن قرئ الكتاب على الناس حتى نزل بقلوبهم هم ثقيل ، فقد كتب عليهم أن يؤدوا الحرية إلى قيصر عن يد وهم صاعرون .

واجتمع سادات قريش في دار الندوة ، عقد أشرف القوم اجتماعات في

الكعبة وفي الدور ، ودارت المناقشات حول ما جاءهم به عثمان بن الحويرث وخاف أهل مكة قبصر وأخذ بقومهم ما ذكر عثمان من متحرهم ، فاجتمعوا على أن يعقدوا على رأس عثمان بن الحويرث التاج .
وبينا كانت قريش على أحفل ما تكون من الطواف ، جاء أبو رمعة الأسود ابن المطلب بن أسد ابن عم عثمان وقدم في الكعبة وقال :
— يا قوم .. يا قوم .

وهرع الناس إلى أبي زمعة فإذا الغضب في وجهه قد روى ما بين حاجبيه وقد لاح عليه قوة وعزم ، وألقوا إليه أسماعهم فقال في إنكار :
— عباد الله ، ملك بتهامة ١٩

وفهمها الناس مما كان في تهامة ملك من قبل ، وما جاء به عثمان إن هو إلا بدعة ابتدئها يريد أن يدهمها ليصبح ملكا عليهم ، فاحشاش الناس الحباش حمر الوحش ، وماج بعضهم في بعض وثاروا لكرامتهم وحريرتهم وقالوا في عصب :

— صدقت . واللات والعزى ما كان بتهامة ملك قط .

فصاح أبو زمعة صيحة تجاوبت في أرجاء مكة :

— إن قريشا لقاح لا تملك .

ونقض الناس ما كانوا عاهدوا الحويرث عليه ، فسار ابن الحويرث إلى داره مطاطئ الرأس وقد ملأ الحنق جوانه ، يرن في أعماقه صوت ابن عمه أبي رمعة الأسود :

— إن قريشا لقاح لا تملك .

رجعت حليلة بمحمد إلى أرض هوازن وقبها يرقص طربا بين حببها فقد كانت حريصة على أن تعود به بعد أن أحبته بكل حوارحها ، وكان الحارث سعيدا بأوبته لما كان يرى من بركته فقد صار التوفيق حليهم مد ذهبوا إلى مكة يلتمسون الرضعاء وعادوا بمحمد .

ورأت الشياء رجوع أبويها في رفقتها أخوها الحبيب فصاحت صيحة فرح تحاوبت لها جبال هوازن ، وهرعت إليهم فحطقت محمدا من أمها وراحت تضمه إلى صدرها الذي كان يحق بالشوة والحب والحان .

عاد محمد إلى البيداء إلى معبد الله الواسع العريض ، يرقب بحوم السماء ويرصد اختلاف الليل والنهار ويشاهد كل صباح ومساء شروق الشمس وغروبها وسريان السيم وهبوب الرياح ليتعاطف مع الكون ويتناسق مع الوجود ، وليومص في قلبه فيص روحى يمكنه من الاتحاد مع الطاقة الروحية التى تسرى في الوجود .

وراح محمد يغدو ويروح في بنى سعد يرحب به الناس ، فقد ألفت محبته في قلوبهم . وكان الصبيان يفرحون به إذا ما شاركهم رمى السهام فهو يتجنبهم في لعبهم ويؤثر أن يقلب وجهه في السماء ، وما كان يسارع إليهم إلا إذا ما شدوا الأقواس ليرموا السهام فقد كانت الرماية لعبته المفضلة .

وذات يوم خرج يقب عن إحوته فلم يجد منهم أحدا . فعاد إلى حليلة وقال :

— يا أمه مالى لا أرى إحقق بالهار ؟

فابتسمت حليلة وقالت له فى حب :

— فذلك نفسى ، إنهم يرعون عما لنا فيروحن من ليل إلى ليل .

فقال فى رجاء :

— ابغينى معهم .

كان منذ نعومة أظفاره بصيق بالفراع ، فما ولى الليل وواى خروج أبناء الحارث لرعى الغنم حتى خرج معهم مسرورا يحنو على الخراف ويمرر يده فى حنان على الماعز فتتحرك مشاعر الحب فى قلبه ، ويمد بصره إلى المراعى الخضراء ، ويصيح سمعه إلى همسات الليل ويقلب وجهه فى السماء ، ويهرع فى فرح إلى عيون الماء والآبار ، فيترى فؤاده بكنوزه من المحبة ، وتتفتح براعم نفسه عن بعض أسرار الكون ، وتقوى روحه وتشتد أجنحتها لتسمو إلى ما وراء الطبيعة وإلى ما فوق السموات .

وظل محمد يرعى الغنم ، يخرج مسرورا ويعود مسرورا ، ينسكب فى صميمه الحب والرحمة والحنان ويتعلم الوفاق بينه وبين الوجود على مر الأيام ، فقد هيا له ربه فرصة رعاية الغنم ليتدرب على رعاية الناس ، فراعى الغنم سيصبح عما قريب راعى الشعوب ورحمة البشر .

وخرج محمد وعبد الله يوما واطلعا إلى الجبل ، ووقف الصبيان يظنران إلى ارتفاعه فى دهش ، ولم يحظر على بال عبد الله أن يرقى فيه بينما عقد محمد العزم على أن يصعد فيه حتى يقعد على دروته ، وما لبث أن تقدم وراح يمشى على سفحه بخطى ثابتة وعبد الله يصيح به فى هلع يتمس منه أن يعود .

واستمر محمد فى صعوده وقد تهمل بالفرح ، حتى إذا ما بلغ مشناه قعد على دروة الجبل وراح يتلفت ، فإذا بالوهاد والوديان مبسطة تحت أقدامه ، وإذا

بكل شيء حاشع كأنما قد سجد في عراب الله ، وإذا بأصوات رياح تتجاوب في المكان كأنما يد ماهرة تعزف على قيثارة الإيمان ، وملأ جلال الكون بصر الصبي فشحص ببصره إلى السماء ، فاستشعر كأن فيصا من النور يعمر فؤاده .

ورأى عبد الله محمدا وقد استقر على ذروة الجبل فسرى الخوف فيه ، ثم راح يعدو إلى حيث كان أبواه وهو يقول في فرع :
— أخى القرشى .. أخى القرشى .

ودهب الحارث وحليمة إلى ابنتهما وقالاه :
— ماذا به ؟

— هناك على ذروة الجبل .

وراح الحارث وحليمة يعدوان حتى إذا ما بلغا الجبل راحا يصعدان فيه وقد اشتد وحيب قسبهما ، كانا يحشيان أن يهوى محمد من فوقه قبل أن يبلغاه ، واستمررا يرقيان في حذر شديد حتى إذا ما وصلا إلى حيث كان وجداه هادئا ساكنا شاحصا ببصره إلى السماء وقد لعه هدوء عجيب ولاح في وجهه أمل وسلام .

والتمت الحارث إلى حليمة في دهش فقد توجت شعنى الصبي بسمة رقيقة عذبة وما عرف الخوف طريقه إلى قلبه ، ومالت حليمة وأحدثت محمدا من يده وراحت تهبط في الجبل والحارث من خلفهما يمد يده ليسد حليمة كلما تأرجحت على سفع الجبل .

وحلا الحارث بحليمة وقال لها :

— رديه على جده واخرجني من أمانته .

كان الحارث يخشى أن يصيب محمدا مكروه بعد أن عرف كيف يشتد في

الجبيل ولم يبلغ الخامسة من عمره ، وكان يرى أن خير ما تفعله حليلة أن تعيده إلى أمه قبل أن تدك عقه ، وكانت حليلة تيل إلى أن يبقى ابنها معها ولكنها خشيت هلاكه فوافقت الحارث على رأيه .

وخرج الحارث وحليمة ومحمد يريدون مكة وقد أشرف موسم الحج وامتلات السبل بالحجاج ، واستمروا في سيرهم حتى بلغوا سوق ذى الحار فزلوا يحوسون خلال السوق ، وإذا يعرف يؤتى إليه بالصبيان ينظر إليه فقدمت حليلة إليه محمدا ، فلما نظر إليه صاح :

— يا معشر العرب ، اقتلوا هذا الصبي ، فليقتل أهل دينكم وليكسروا أصنامكم وليظهروا أمره عليكم .

فزاغت به حليلة عن الطريق في الوقت الذي اجتمع فيه الناس إلى العراف يسألونه :

— ماذا بك ؟

— اقتلوا هذا الصبي ؟

— أى صبي ؟

— هذا الصبي .

فراح الناس يثفتون فلا يرون شيئا وصوت العراف يرن في آذانهم .
— رأيت علما والآلهة ليقتل أهل دينكم وليكسروا آلهتهم وليظهروا أمره عليكم .

وتفرق الناس في السوق يطلبونه ولكنهم لم يجدوه ، فقد كان ينطبق إلى مكة في رفقة حليلة والحارث في رعية الله ، حتى إذا ما بلغوا أعلى مكة تلفت حليلة فلم تجدده تملكها فرع شديد وراحت تحرى هنا وهناك وتدنيه ، والحارث يبحث عنه بين الناس الذين جاؤوا من كل فج عميق ليؤدوا مناسك

الحج . وانبهرت أنفاس حليلة وتعصد العرق من الحارث والتقى الروحاني بعد أن يقاسم العنور عليه ، فاتفقا على أن يطلقا إلى جده عبد المطلب ليعث من يبحث عنه

كان عبد المطلب جالسا على فراشه في ظل الكعبة وقد جلس عنده ورقة بن نوفل وأبو جهل وريد بن عمرو بن نفيل وبعض سادات قريش . وقد وقعت عيناها على حليلة والحارث وهما يتقدما إلى حطى مصطربة دون أن يكون معهما حفيده الحبيب ، وقرأ في وجهها القلق والخيرة فعمشى الخوف إلى صدره وقال حليلة :

— ما وراءك ؟

فقالت حليلة وقد بكست رأسها وعلفت صوتها رنة أسي :
— إني قدمت بمحمد هذه الليلة ، فلما كنت بأعلى مكة أصلى فوالله ما أدري أين هو

أصلته في أعلى مكة ؟ أصلته في ذلك الوقت الذي يأتي فيه الحجاج على كل صامر من كل فتح عميق ؟ وارتسم اطلع على وجه عبد المطلب فإن ضاع محمد ماتت أمة كعدا وتجددت أحزان بني هاشم على عبد الله فتي قريش الدييح ، تلك الأحزان التي دثرها بعلالة من انفرح مولد ابن عبد الله الصال وهب الرجال على رواحهم ليطلقوا إلى أعلى مكة وقد ضجروا لصياح محمد ، وقد سرى في صدورهم خوف وقلق على الصبي وشغقة على عبد المطلب الذي تعبق بأستار الكعبة وراح يتنهل إلى ربه أن يرد ولده وقد بليت الدموع عنيه .

خاف القوم على الصبي الذي جعل الله كيد أصحاب الفيل في تصليل .

وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف
مأكول ، ليحفظه من معركة جيش أبرهة . وحافوا على قريش ونزل بهم هم
ثقيل حشية أن تتحدد أحزان بني هاشم ، وما دار بخلد أحدهم عظم الكسة
التي كانت تصيب البشرية لو أن محمد بن عبد الله قد صاع في تلك الليلة .

التذيل

كانت العرب في الجاهلية على صلة بالفرس والروم واليمن ومصر وكل دول الأرض في ذلك الزمن ، ولم يكن العرب مستقرين في جريرتهم لا صلة بينهم وبين العالم الخارجي كما كان يظن الإخباريون والمؤرخون الإسلاميون الذين دونوا تاريخ العرب في الجاهلية ، وقبل مبعث الرسول عليه الصلاة والسلام . وقد كانوا أهل حصارا وقد عرفوا اليهودية والمصرية والصائفة والمجوسية والحنيفية وكل ديانات الشعوب . وقد هجر بعضهم دين الآباء واعتنقوا اليهودية أو النصرانية ، وراح بعضهم يبحث عن الحنيفية الحققة دين إبراهيم . وطل أعينهم على عبادة ما كان آباؤهم يعبدون .

ويطلق لفظ الجاهلية على حال العرب التي كانوا عليها قبل الإسلام لما كانوا عليه من مريد الجهل في كثير من الأعمال والأحكام ، يقتلون أولادهم سفها بغير علم ، ويحرمون ما رزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين

وقبل إن الجاهلية هي أيام الفترة وهي الزمن بين الرسولين ، وقد تطلق على زمن الكفر مطبقا ، وعلى ما قبل الفتح ، وعلى ما كان بين مولد النبي والمبعث وعن ابن خالوية : إن هذا اللفظ اسم حدث في الإسلام للزمن الذي كان قبل البعثة .

ولفظ الجاهلية قد يكون اسما للحال وهو الغالب في الكتاب والسنة . كقول النبي ﷺ لأبي ذر : إنك أمرؤ فليك جاهلية . وقول عمر رضي الله

تعالى عنه . إني ندرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة . وقول عائشة رضى الله عنها : كان الكناح في الجاهلية على أربعة أنحاء . وقوههم : يا رسول الله كنا في جاهلية وشر . فإن الجاهلية وإن كانت في الأصل صفة ولكن علب على لفظها الاستعمال حتى صار اسما ومعناه قريب من معنى المصدر

وقد يكون لفظ الجاهلية اسما لدى الحال ، فتقول : طائفة جاهلية وشاعر جاهل ، وذلك نسبة إلى الجهل الذي هو عدم العلم أو عدم اتاع العلم ، كقوله تعالى « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » . وكقول ﷺ (إذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل) .

كل من عمل سوءا فهو جاهل وإن علم أنه مخالف للحق ، فالعلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل ، فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه . وكل ما يخالف ما جاء به المرسلون فهو جاهلية ، وتلك كانت الجاهلية العامة ، فأما بعد معث الرسول ﷺ فاجاهلية المطلقة قد تكون في مصر دون مصر ، وقد تكون في شخص دون شخص . كالرجل قبل أن يسلم فإنه في جاهلية ، فأما في زمان مطبقا فلا جاهلية بعد معث محمد ﷺ ، فإنه لا تزال من أمته طائفة طاهرين على الحق إلى قيام الساعة .

وقد تقوم الجاهلية المقيدة في بعض ديار المسلمين وفي كثير من الأشخاص المسلمين ، كما قال ﷺ : أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركوهن : الفخر بالأحساب ، والطعن في الأساب ، والاستسقاء بالحجوم ، والياحة .

وقد اختلف المفسرون في المراد من أهل الجاهلية لأولى في قوله تعالى « وقرن في بيوتكن ولا تخرجن ترح الجاهلية الأولى » . فقيل : كانت في الزمن الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام ، فقد كانت امرأة تلبس الدرع من

المؤنؤ فتمشى في وسط الطريق تعرض بمسها على الرجال وقيل : كانت بين آدم ونوح وحكيث هم سيرة دميمة . وقيل ما بين نوح وإدريس وقيل ما بين نوح وإبراهيم ، قيل إن المرأة كانت تلس الدرع من المؤنؤ غير محيط الجانبين وتلس الثياب الرقاق ولا توارى بدنها . وقالت فرقة . ما بين موسى وعيسى ومحمد ﷺ . وقال أبو العالية هي زمان داود وسليمان عليهما السلام ، كان للمرأة قميص من الدر غير محيط الجانبين ، وكان النساء يطهرن ما يفتح إظهاره حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وحدها فينمرد حياء فوق الإزار ويفرد زوجها بما دون الإزار إلى أسفل ، وربما سأل أحدهما صاحبه البدل .

وقد محاهد : كان النساء يمشين بين الرجال فذلك التبرح . قال ابن عطية : والذي يطهر عدى أنه تعالى أشار للجاهلية التي أدركتها فأمرن بالنقبة عن سترهن فيها ، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفار لأنهم كانوا لا عيرة عندهم فكان أمر النساء دون حجبهم ، وجعلها أولى بالنسبة إلى ما كن عليه ، وليس المعنى أن ثم جاهلية أخرى ، وقد أوقع لفظ الجاهلية على تلك المدة التي قبل الإسلام .

وكان التضارب في الروايات هو سمة الإخباريين المسلمين الذين دونوا تاريخ مولد الرسول ، كما كانت الصفة العالية لرواياتهم على الدوام . فعن ابن إسحاق لم يثبت عبد الله بن عبد المطلب أن توى وأم رسول ﷺ حامل به ، وقيل إن موت والده كان بعد أن تم لها من حملها شهران ، وقيل قبل ولادته بشهرين ، وقيل كان في المهد حين توى أبوه ابن شهرين ، وقيل كان ابن تسعة أشهر ، وقيل ابن ثمانية عشر شهرا ، وقيل ابن ثمانية وعشرين شهرا . ولما كانت عادة العرب أن يدفعوا مواليدهم إلى المراضع في اليوم الثامن من مولدهم ، ولما كانت المراضع قد أبته يثمه ، فقد اعتمدت الرأي القائل بأن

أباه مات قبل ولادته بشهرين .

وقد تصاربت أقوالهم في السنة التي هاجم فيها أصحاب الميل مكة ، فقبل في السنة التي ولد فيها الرسول ﷺ ، وقيل قبل مولده بخمس وعشرين سنة ، وقيل بخمس عشرة سنة ، وقيل بعد مولده بخمس عشرة سنة ، ولما كان الرسول ﷺ قد ولد في سنة ٥٧٠ من مولد المسيح ، ولما كان بُرهة قد عاد إلى اليمن بعد أن أصيب جيشه بالحدري أثناء حصار مكة في نفس السنة ، فقد أحدث بالرأى القائل أن رسول ﷺ قد ولد في عام الميل .

وقد كتب الإخباريون الإسلاميون تاريخ مولد الرسول بعد أن انتشر الإسلام وآمنوا بالدين الذي جاءهم به محمد ﷺ ، فكتبوا تاريخ هذه الحقبة بأقلام مفتونة بعظمة ذلك الوليد الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور ، فأكثرُوا من ذكر البشارات والإرهاصات بمولده ، وبالعوا في بعضها حتى بدا كأن العيب قد أصبح في تلك الفترة من الزمن كتابا مفتوحا ، فقد قيل في رواية عن أمه أنها قالت : لما حرح من بطني نظرت إليه فإذا هو ساجد قد رفع أصبعيه كالمتضرع المتهل ، وروى أنه قبض قبضة من تراب وأهوى ساجدا ، فبلغ ذلك رجلا من بني لُهب فقال لصاحبه : لئن صدق هذا الغال ليعلي هذا المولود أهل الأرض . وروى ابن سعد في طبقاته الكبرى أن رسول الله ﷺ قال : رأيت أُمِّي حين وضعتني سطع منها نور أضاءت له قصور بصرى . وروى السهيلي عن الواهدي . أنه ﷺ لما ولد تكلم فقال : جلال ربي الربيع . وعن كعب الأخبار وكان على دين اليهودية قبل الإسلام . إلى أحد في التوراة « عبيد أحمد المختار مولده بمكة »

وقيل : كان عمر الطهران راهب من أهل الشام يدعى عيص وقد كان آتاه الله علما كثيرا ، وكان يلزم صومعة له ويدخل مكة فيبقى الناس ويقول :

يوشك أن يولد فيكم مولود يا أهل مكة تدين له العرب وتحصع ويملك العجم هذا زمانه ، فمن أدركه واتعه أصاب حاجته ، ومن دُرِكه وحالفه أخطأ حاجته . فكان لا يولد بمكة مولود إلا ويسأل عنه ويقول . ما جاء بعد . فلما كان صبيحة اليوم الذي ولد فيه رسول الله ﷺ خرج عبد المطلب حتى أتى عيصا فوقف على أصل صومعته ، فنادى فقال : من هذا ؟ فقال . أنا عبد المطلب . ما ترى عليه ؟ فقال . كى أباه ، فقد ولد ذلك المولود الذي كنت أحدثكم عنه وأن نحمه طلع النارحة ، وعلامة ذلك أنه الآن وجع فيشتكى ثلاثا ثم يعافى . فاحتفظ بسنك فإنه لم يحسد حسده أحد . ولم يبع على أحد كما يرغب عليه . قال : فما عمره ؟ قال : إن طال عمره لم يبلغ السبعين ، يموت في وتر دوما في إحدى وستين أو ثلاث وستين .

وقال الخلال السيوطي في حصائصه الصغرى : إن من حصائصه ﷺ تكيس الأصنام لمولده . وعن عبد المطلب قال : كنت في الكعبة فرأيت الأصنام سقطت من أماكنها وحررت سجدا ، وسمعت صوتا من جدار الكعبة يقول : ولد المصطفى المختار ، الذي تهلك بيده الكفار ، ويطهر من عبادة الأصنام ، ويأمر بعبادة الملك العلام .

وقال الإمام الماوردي في « أعلام النبوة » بعد أن ذكر وفود عبد المطلب على سيف بن ذي يزن . قال سيف : يا عبد المطلب إلى معض إليك عن سر عيسى ما لو كان غيرك لم أبح له . ولكن رأيتك مغدنه وأطلعنك عليه فليكن عندك مطويا حتى يأذن الله فيه . فإن الله بالغ فيه أمره . إنى أجد في الكتاب المكنون ، والعلم المحرور ، الذي احترناه لأنفسنا واحتجناه دون غيرنا حبرا عظيما وحطرا جسيما ، فيه شرف الحياة ومضيئة الوفاء للناس عامة ، ولرهطك كافة ، ولك خاصا . قال عبد المطلب : أيها الملك فمثلك من سر

وبر ، فما هو فداك أهل الوبر ، مررا بعد مرر ؟ . قال : إذا ولد بتهامة ، علام بين كتفيه شامة ، كانت له لإمامة . ولكم به زعامة ، إلى يوم لقيامة . فقال له عبد المطلب : أبيت اللعن لقد أثبت بخبر ما أتى عنك واحد ، فلولا هبة الملك وإجلاله وإعظامه لسألتك من بشارته إياي ما أرداد به سرورا . قال ابن دى يزن : هذا حميه الذى يولد فيه أو قد يولد ، اسمه أحمد ، يموت أبوه وأمه ، ويكفله جده وعمه ، وقد ولدناه مرارا ، والله باعته جهارا ، وجاعل ماله أنصارا . يعز بهم أولياؤه ويدل بهم أعداؤه . يضرب بهم الناس عن عرض ، ويستفتح بهم كرائم الأرض . تكسر الأوثان ، وتحمد النيران ، ويعبد الرحمن . ويدحر الشيطان . قوله فصل ، وحكمه عدل . يأمر بالمعروف ويفعله ، ويهوى عن المنكر . قال عبد المطلب : أيها الملك عز جدك ، وعلا عقتك ، وطاب منكك . وطال عمرك . فهل الملك سارى بإفصاح ، فقد أوضح بعض الإيضاح ؟ فقال ابن دى يزن : والسيت ذى الحجب ، والعاملات على النصب ، إنك يا عبد المطلب ، لحده غير الكذب . فحر عبد المطلب ساجدا ، فقال ابن دى يزن . ارفع رأسك ، تلج صدرك ، وعلا أمرك ، فهل أحسست شيئا مما ذكرت لك ؟ فقال . نعم أيها الملك كان لي ابن وكنت به معجبا رفيقا ، فزوجته كريمة من كرائم هومي آمة بت وهب من عبد مناف ، فأنت بغلام سميتة محمدا ، مات أبوه وأمه ، وكفته أنا وعمه ، بين كتفيه شامة ، وفيه كما ذكرت من علامة . قال ابن دى يزن : إن الذى قتلت لك لكما قلت لك فاحتفظ بابك ، واحذر عليه اليهود فإيهم له أعداء ، ولن يجعل الله لهم سبيلا فاطو ما ذكرته دون هؤلاء الرهط الذين معك ، فإني لست آمن أن يداخهم العاسة ، من أن تكون لك الرياسة ، فيعيون له الغوائل ، ويصبون له الخبائل . وهم فاعنون وأبناؤهم ، ولولا أنى أعظم أن (مولد الرسول)

الموت يحتاجى قبل مبعثه لسرت بحيل ورجلى حتى أصبح يثرب دار ملكه ،
فإنى أجد فى الكتاب الناطق ، والعلم السابق . أن يثرب استحكام أمره ،
وأهل بصرتة ، وموضع قبره ولولا أنى أقيه الآيات ، وأحدر عليه العاهات ،
لأعلنت على حداثة سنه ذكره ، وأوطيت أسنان العرب عقبه ، ولكسى
صارف ذلك إليك ، بعير تقصير من معك .

وقبل إن ليلة ولادته ﷺ تنزلت الكعبة ولم تسكن ثلاثة أيام بلياليهن ،
وكان ذلك أول علامة رأت قريش من مولد النبي ﷺ ، وارتجس أيوان
كسرى وسمع لشقة صوت هائل ، وسقط من ذلك الإيوان أربع عشرة
شرفة . وأنه صار تلك الليلة كل واحد من بيوت ناز فارس التى كانوا يعدونها
خامدة بيراتة ، وعور ماء عيون الفرس فى الأرض حتى لم يبق منها قطرة .
ورأى كسرى ما هاله وأفرغه . فلما أصبح بصر ، ثم رأى أنه لا يدحر ذلك
عن مرازيته فجمعهم وليس تاجه وجلس على سريرته ، ثم بعث إليهم فلما
اجتمعوا عنده قال . أتدرون فيما بعث إليكم ؟ قالوا لا إلا أن يحبر الملك .
فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب محمود النيران ، وكتاب من صاحب إيبيا
يخبره أن بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة ، وورد عليه كتاب صاحب الشام
يخبره أن وادى السماوة انقطع تلك الليلة ، وورد عليه كتاب صاحب طبرية
يخبره بأن الماء لم يجر فى بحيرة طبرية . فازداد غما إلى غم ، ثم أخبرهم بما رأى
وما هاله ، فقال الموبدان : فأبأ أصلح الله الملك قد رأيت فى هذه الليلة رؤيا ،
رأيت إبلا صعبا ، تقود خيلا عرابا ، قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها .
فقال كسرى : أى شئ يكون هذا يا موبدان ؟ قال : حدث يكون فى ناحية
العرب ، فابحث إلى عاملك بالبحيرة يوجه إليك رجلا من علمائهم فإيهم
أصحاب علم بالحدثان .

فكتب كسرى عبد ذلك : من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن
المندر . أما بعد فوجه إلى برجل عالم بما أريد أن أسأله عنه فوجه إليه بعبد
المسيح الغساني وهو معدود من المعمرين عاش مائة وخمسين سنة. فبما ورد
عليه قال : لك علم بما أريد أن أسألك عنه ؟ قال : ليسألني الملك عما
أحب ، فإن كان عدى علم منه وإلا أخبرته عن يعلمه .

فأخبره بالذي وجه إليه فيه ، قال : علم ذلك عبد حالي يسكن مشارف
الشام يقال له سطيط . قال : فأتته فأسأله عما سألتك عنه ثم انتهى بتفسيره .
فخرج عبد المسيح حتى انتهى إلى سطيط ، وقد أشفى على الصريح ،
وعمره إذا ذاك ثلاثمائة سنة ، وكان جسدا ملقى لا جوارح فيه ، وكان لا
يقدر على الجلوس إلا إذا غضب فإنه يتنفخ فيجلس ، وكان وجهه في صدره
ولم يكن له رأس ولا عنق ، ولم يتحرك منه إلا اللسان ، فقال سطيط : جاء
عبد المسيح ، على حسن مشيخ (سريع) ، إلى سطيط ، وقد وافى على الصريح
(الموت) . بعثك ملك ساسان ، لارتجاس الإيوان . وخمود اليران ورؤيا
الموبدان . رأى إبلا صعبا ، تفود حيلا عرابا ، قد قطعت دجلة وانتشرت في
بلادها . يا عبد المسيح ، إذا كثرت التلاوة ، وطهر صاحب الهراوة ،
وغاضت بحيرة ساوة ، وخمدت نار فارس ، فليس بابل للنهرس مقاما ، ولا
الشام لسطيط شاما ، يملك منهم ملوك ومدكات ، على عدد الشرفات ، وكل
ما هو آت آت . ثم قضى سطيط مكانه .

رأى الكتاب المحدثون ما في هذه الأخبار والأحاديث من وضع طاهر لا
يحتاج إلى تمحيص لتبيان زيفه ، فرفضوا كل ما يتعلق بالبيارات والإرهاصات
بمولد النبي ﷺ ، وأنكروا كل المعجزات ، حتى أحلام الآباء والأمهات
رفضوها ، ولعل ذلك الرفض مرده خشيتهم من هرويد الذي يأتي أن يعترف

بالرؤيا الصادقة ، ويرد كل الأحلام إلى العريضة الحسية ، كأنما قد استحالت
بطرية فرويد انتهى تؤكد أن الحياة كلها جس ومنبثقة من حلال الجنس ، إلى
دين يطرد من حظيرة الإيمان كل من يمس قدسينها .

وعدى أن العريقين قد جابهما التوفيق ، الفريق الذى دفعه حبه لبيه إلى
وضع أخبار وأحاديث تروى الخوارق والمعجزات التى وقعت عند مولد محمد
ﷺ قد أساء إلى سيرة النبى العظيم ، فليس من المعقول ولا من المقبول أن
الأمر كان يمثل ذلك الوصوح ، فالاحتراع ظاهر يدمع أغلب الروايات
بالكذب والتلفيق ، وما كانت تلك الخوارق والمعجزات لتزيد الإنسان
الكامل شرفا على شرف . والفريق الذى دفعه خوفه من دعاة العلم الحديث
إلى إنكار البشارات والأحلام قد أساء إلى نفسه ، فالقرآن الكريم يؤكد أن
أهل الكتاب من يهود وبصارى كانوا على علم تمتع النبى الأمى الذى سيبعثه
الله فى الأميين لآلئى بنى إسرائيل : « الذين آتياهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون
أساءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون . الحق من ربك فلا
تكونن من الممتريين » . « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجذبونه
مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المكر
ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى
كانت عليهم ، فالذين آموا به وعزروه ونصروه واتبعوا لورلى لدى أنزل معه
أولئك هم المفلحون » .

كان أهل الكتاب من يهود وبصارى يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وقد
ادعى بعض لادين جاءوا بعد المسيح من الأنبياء الكذبة أنهم « المراقليط »
اندى بشر به المسيح . وقد بدلت كل جهد فى الأجزاء السابقة أن أوضح
البشارات التى جاءت فى التوراة والإنجيل وبوعات زرادشت وساسان ، وقد

أوردت في هذا الجزء من السيرة بعض سوءات الكهان والرهبان والأحرار ،
وإلى لا أستطيع أن أحزم بصحتها ولا أملك أن أكذبها ، ولكنى سردها تأكيداً
لإيماني بما أشار به القرآن الكريم من أن أهل الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم
وأذكر بعض الكتاب المحدثين رؤى عبد المطلب ورؤيا أمه التي بشرت فيها
بأنها قد حمت بسيد هذه الأمة ، وكل الرؤى للتبئة لأن فرويد قد لفهم الرؤى
الصادقة ، فكيف يرى الإنسان رؤيا صادقة إذا كانت العريضة الجنسية هي
مصدر كل الأحلام ؟

كان هم فرويد تنوير الدين والأخلاق إن التمامي نوع من الشذوذ
(١) ، وإن الأخلاق تنسم بطابع القسوة حتى في درجتها الطبيعية العادية ،
وإن الأساطير المسيحية تصور في حقيقتها رغبة الابن (المسيح) في قتل والده
(الرب إله) وإن كان قد كبت هذه الرغبة فقتل نفسه بدلاً من أبيه ، ولكن
أصبح إلهاً مكان أبيه ! وإن الحصار تعارض مع النمو الحر للطاقة الجنسية !
وإن الدين والأخلاق والحضارة تشأ من الكبت الجنسي ، وانكبت الجنسي
خطر على الكيان النفسى والعصى لأنه يصيب النفس بالعقد
والاضطرابات .

كان فرويد في خدمة صهيون ، وقد جاء في كتاب برتوكولات حكماء
صهيون : « يجب أن نعمل لتهاور الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا ..
إن فرويد ما . وسبطل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا
يبقى في نظر الشباب شيء مقدس ، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه
الجنسية وعقدت تهاور أخلاقه » .

هذا هو فرويد الذى يرتحف منه كتابا المحدثون ويخشون أن يقرؤا بامكان وقوع الرؤيا الصادقة بين البشر ، ما دام فرويد قد لقنهم أن حياة الإنسان حياة حيوانية بحتة ، فغرائره هى التى تحكمه وهى التى تسيطر على كل نشاطه ، والخابب المسمى « الروح » لا وجود له على الإطلاق .

إن القرآن الكريم يؤكد وقوع الرؤيا الصادقة ، وسورة يوسف كنها تأكيد للرؤى وتأويل الأحاديث ، وواقع الناس جميعا يؤكد هذه الحقيقة على الرغم من محاولة فرويد فى كل نظريته إنكار ذلك الخابب فى البشر ، وقد أوردت الرؤى التى رآها الملوك والكهان وعبد المطلب وآمنة ، وأوردت تأويل تلك الرؤى ، فمن حق آمنة أن تحلم وأن ترى ابنها سيدا لقومه فذلك حق كل أنثى ، وما أحسب أن أما على وجه الأرض لم تحلم بمستقبل مشرق لابها الحبيب .

كان من شيم العرب وأحلافهم إذا ولد لهم ولد يلتمسون له مرصعة من غير قيمتهم ليكون أحب للولد وأفصح له ، وقد أخذت حليلة محمدا ﷺ . ويروى رواية السيرة حديث حليلة قالت : فلما أخذته رجعت به إلى رحلى ، فلما وصعته فى حجرى أقبل ندياى بما شاء الله من لبن فشرب حتى روى ، وعرضت عليه الأيسر فأباه وكانت تلك حالته بعد ، وشرب معه أخوه حتى روى ثم نام ، وما كنا سام معه قبل ذلك ، فقام روحى إلى شاربنا فإذا هى لحافل (أى ممتلئة الصرع من اللبن) فحبس منها ما شرب وشربت حتى انتهيا ربا وشبعا فبنا خير ليلة . يقول صاحبى حين أصبحنا : تعلمى والله يا حليلة لقد أحدثت سمة مباركة . قلت : والله إنى لأرجو ذلك . ثم خرجا وركبت أتانى ومحمته ﷺ معى عليها ، فوالله تقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من حجرهن حتى إن صواحبى يقلن لن : يا بست أنى دؤيب ويحك أربعى

(ارفقي) ، أليس هذا أنالك التي كنت حرجت عليها تحمصك طورا وترفعك أخرى . ها قول لي : بلى والله إنها هي ، فيقنن والله إن لها لشيئا . ثم قدما مازل بي سعد ولا أعلم أرضا من أراضي الله أجذب منها ، فكانت عنمي تروح على حين قدما به شياعا لسا فحلب وبشرب ، حتى كان الحاضر في المنازل من قوما يقول لرعاتهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بست أي ذؤيب ، فروح أعمامهم جيا عا ما تبص بقطرة لن وتروح غمي شياعا بيا ، فلم نزل نعرف من الله تعالى زيادة الخير حتى مصت سستان وفصلته .

ولم أسرد هذه الأحداث في السيرة لأنها ليست ذات أثر في حياة الرسول ، فقبيلة هوازن التي رضع فيها لم تؤمن به إلا بعد فتح مكة وبعد أن نشبت بين المسلمين وبين هوزن حرب يوم حنين كادت الدائرة فيها تدور على المسلمين لولا ثبات الرسول ﷺ ، فهو أن القبيلة كانت قد أسلمت بفصل بركته ﷺ أيام كان يستصرع في بني سعد لكان لمثل هذه الأحداث أثر بارز في السيرة ، أما وأن الله تبارك وتعالى قد كتب على نبيه الكفاح والجهاد والصبر ليسغ رسالات ربه ، وليمكن لديه في الأرض ، فم يعد لتلك الروايات مكان في سيرة رجل بشر دعى الله بالعرق واجهد والعمل والقوة المحسنة .

إن الله قادر على أن يحتفل بمولد رسوله الكريم ، وهو قادر على أن يعمر الأرض ببركته وأن يملأها حيرا ، ولكن الله أراد أن يضرب لرسوله ﷺ المثل لئلا يعلمهم أن الأهداف الكبيرة لا يمكن الوصول إليها بالحوارق والمعجزات بل بالعمل الجاد الذي يراد به وجه الله الكريم : « ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ، إنا أنتم منذر ولكل قوم هاد » .

وفي أثناء وجوده ﷺ في مبارل بي سعد روى الرواة حديث شق

الصدر ، قالت حليلة : « فوالله إنه بعد مقبعا به بأشهر مع أخيه في بهم لنا حلف بيوتا ، إذ أتى أخوه يشتد فقال لي ولأبيه : ذاك أخي القرشي قد أحده رحلان عليهما ثياب بيض فأصبحاه فشقا بطيه فهما يسوطانه (أى يدخلان يديهما في بطيه) . فحرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائما منتقعا وجهه (لوب المقع) ، فالتزمته وانترمه أبوك فقلنا : مالت يا بني ؟ فقال عليه السلام : جاءني رحلان عنيهما ثياب بيض ، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو . قال : نعم ، فأقبلا يتدراني فأخذاني فأضجعني فشقا بطي فالتصا فيه شيئا فوجداه ، فأخذاه وطرحاه ولا أدري ما هو .

هذه رواية ، وفي رواية أخرى أن ابن حنيفة أتى يعدو فزعا وجيئة يرشح باكيا يبادى : يا أبت ويا أمه ، الحقا أخي محمد ، فما تلحقاه إلا ميتا ، قلت : وما قصيته ؟ قال : بيما نحن قيام إذ أتاه رجل فاحتصمه من وسطنا وعلا به دروة الحبل ونحس سطر إليه ، حتى شق صدره إلى عاتقه ، ولا أدري ما فعل به . فاطلقت أنا وأبوه تسعى سعيا فإذا نحن به قاعدا على دروة الحبل شاحصا بصره إلى السماء يتنسم ويضحك ، فأقبلت عليه وقتلته بين عيبيه وقتلت له : فذلك نفسي ما لدى دهاك ؟ قال : خيرا يا أمه ، بيما أنا الساعة قائم إذ أتاني ثلاثة بيد أحدهم إبريق فضة وفي الآخر طست من رمردة حصراء ، فأخذوني واطبقواي إلى دروة الحبل فأصجعوني على الحن إصصاعا لطيفا .. » .

وفي رواية ثالثة عنه عليه السلام : « فبيما أنا مع أخ لي خلف بيوتا رعى همالنا ، أتاني رحلان عليهما ثياب بيض بيد أحدهما طست من ذهب مموءة ثلجا ، فأخذاني فشقا بطي ثم استحرجا قلبي فشقا فاستحرجا منه علقة سوداء فطر حاها ، وقيل : هذا حظ الشيطان ملك يا حبيب الله » .

وفي رواية رابعة عن رسول عليه السلام ، « كنت مسترصعا في بني سعد ، فبيما

أحداث يوم متدا من أهلى فى بطن واد مع أتراب من الصبيان ، إذا أتى رهط من ثلاثة معهم طست من ذهب ملآن ثلجا ، فأخذوني من بين أصحابى فخرج أصحابى هربا حتى أتوا على شفير الوادى ، ثم أقبلوا على الرهط فقالوا : ما أرىكم إلى هذا العلام ؟ فإنه ليس منا ، هذا ابن سيد قریش ، وهو مرتضع فيها يتيم ليس له أب ، فما يرد عنكم أن يفيدكم قتله ، وماد تصيرون من ذلك ؟ فإن كنتم لا بد قاتلوه فاحتاروا ما من شئتم فماتكم مكانه فاقبلوه ودعوا هذا العلام فإنه يتيم ، فلما رأى الصبيان أن القوم لا يحسبون حوايا انطلقوا هربا مسرعين إلى الحى يؤدونهم ويستصرحونهم على القوم ، فعمد أحدهم إلى فأصحمى على الأرض إصحاغا لطيفا ، ثم شق بطى ما بين مرق صدرى إلى منتهى عاتى وأنا أنظر إليه ، فلم أجد لذلك مسا ، واستخرج أحشاء بطى ثم غسلها بذلك الشح فأغم غسلها ، ثم أعادها مكانها ، ثم قال الثانى منهم لصاحبه . تسح عنه فحاه على ، ثم أدخل يده فى حوى فأخرج قلبى وأنا أنظر إليه ، فصدعه ثم أخرج منه مضضة سوداء ثمرمى بها .. » .

وفى رواية عن الرسول ﷺ أنه عند ابتداء الوحى : « جاءنى حيريل وميكائيل فأخذنى حيريل وألقانى لحلاوة القفا ، ثم شق عن قلبى فاستخرجه ثم استخرج منه ما شاء الله أن يستخرج ، ثم غسله فى طست من ماء زمزم ، ثم أعاده إلى مكانه ثم لأمه . ثم أكمأى كما يكفى الإباء ثم حتم فى طهرى » .

ولم أشر فى السيرة إلى حادثة شق الصدر أو البظر لا لاضطراب الروايات وحسب بل لأنى أعتقد أن الله ليس فى حاجة إلى إجراء عملية جراحية ليظهر سبه ولعلاه حكمة ، وأعتقد أن كل ما جاء عن شق الصدر قد وضع بعد صدر الإسلام ، عندما أراد الشراح شرح الآية الكريمة : « ألم نشرح لك صدرك » فقد بعد الشراح عن روح القرآن وروحانيته ولحقوا إلى الماديات

المحسوسة لتفسير معاني روحية سامية ، فابعدوا روايات مناصرة لا يقبلها العقل ولا المطلق ولا الذوق السليم ، فمن ذا الذي يستطيع أن يصدق أن ملاكين قد هبطا ليطهرا قلب النبي ﷺ فلا يعرفانه ، ويقول أحدهما : أهو هو ؟ فيقول الآخر . نعم . وكيف يريد ما واصلوه هذه الأحاديث أن نصدق أن الرسول ﷺ كان مرة جاءني رجلان ، وقال مرة أخرى : جاءني سرا . وقال مرة ثالثة : جاءني رجلان رهط من ثلاثة ؟ وكيف يريد واصلوه هذه الأحاديث أن نصدق أن أطفالا صغارا يقولون للملائكة : ... فإن كنتم لا بد قاتلوه فاختاروا منا من شئتم فنيأتكم مكانه فاقتلوه . يا الله ! أهؤلاء صبية يلعبون أم أتباع محمد ﷺ بعد أن آمنوا به وصدقوه ؟!

ومتى وقعت حادثة شق العطر أو الصدر ؟ أو وقعت في أرض هوازن أم وقعت في مكة قبل البعث ؟ وبماذا كان التطهير بأبوالنحل أم بماء زمزم ؟ إن هذه الحادثة لم تقع إلا في محيلة واصلوه هذه الأحاديث .

قررت في تديلات الأجرء السابقة أن آدم كان على علم وأن الأصل في الدين عبادة الله وحده ، وأن الأساطير والشرك بالله وعادة الشمس والقمر والأصنام والأوثان عرفت البشري لما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم ، وأن لله سبحانه وتعالى أرسل الرسل للقضاء على تلك الأساطير وإعادة جوهر التوحيد . ولو تتبعنا أسماء العرب منذ إبراهيم الخليل عليه السلام إلى مبعث محمد ﷺ لوضحنا لنا هذه الحقيقة . فإنه إبراهيم كان يعرف بالإيل وقد نسب إليه إسماعيل وإسرائيل وكانت أسماء العرب الموحدين تنسب إليه وأشهر تلك لأسماء « إلشرح » وأصلها « إيل شرح » وإلرفع « إيل يفع » وإلكر « إيل كرب » وإلسمع « إيل سمع » ، فلما طال على الناس العهد

واتخذوا آلهة غير إله أبيهم إبراهيم سموا آبائهم بأسماء تلك الآلهة : « نيم اللات » و « زيد اللات » و « امرؤ ماة » و « امرؤ القيس » و « زيد ماة » و « عبدعوف » و « عبدود » وإن انجاه هذه الأسماء ليؤكد الحقيقة التي سبق أن قررناها من أن الإنسان كان على علم وأنه كان يعرف الله وحده لا شريك له ، فلما طال على الناس الأمد قست قلوبهم وأشركوا برهم ، وأن الإنسان لا يترقى في الديانات كما يترقى في العلوم ، كما قال كتاب من المسلمين تأثروا بآراء غريبة وثنية .

والجاهليون ^(١) كانوا يعتقدون بوجود إله واحد أعلى ، خلق هذا الكون ، لذلك توجهوا إليه وأقسموا به . ومحمد لهذا الرأي سدا في القرآن الكريم فيه أن قريشا كانت تعترف بأن الله هو رب السموات والأرض : « قل من رب السموات والأرض ؟ قل : الله ، قل : أأنا اتخذ من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً . قل : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم : قل : الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار » .

ومحمد إقرار قريش بوجود إله واحد خالق السموات والأرض في مواضع أخرى من القرآن الكريم . ففي سورة العنكبوت « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسحر الشمس والقمر ليقولن الله . فأنى يؤفكون » . وفي هذه السورة نفسها سؤال آخر موجه إلى المشركين « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ؟ ليقولن الله . قل : الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعقلون » وفي سورة لقمان سؤال آخر موجه إلى

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام . الجزء الخامس صفحة ٢٤١ وما بعدها .

أولئك المشركين وجواب صادر منهم هو هذا الخواب نفسه . إقرار بوجود خالق واحد خلق السماوات والأرض . « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن الله ، قل . الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون » وهناك آيات أخرى على هذا النحو فيها أمثلة موجهة إلى مشركين عن خالق السموات والأرض ، وأجوبة على ألسنتهم فيها اعتراف بأن خالقها وصانعها هو الله .

وفي القرآن الكريم أن قريشا كانت تعتقد أن الله هو الذي يرسل المطر ويحيي الأرض بعد موتها . « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ؟ ليقولن : الله . قل : الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعقلون » وفيه أنهم كانوا يقسمون به وأهم كانوا قد جعلوا له نصيبا مما درأ من الحرث والأنعام ، وأهم كانوا يقولون إن الله هو الذي شاء فجعلهم وآباءهم مشركين ، وأنه لو لم يشأ لما أشركوا بعبادته أحدا : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباءنا ، ولا حرما من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى داقوا أسفا . قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تنبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » ، وأهم كانوا يتصرعون إليه ويستعيثون به في الكوارث والملمات ، وأهم جعلوا له بئانا وبين وشركاء لدجن .

فلم يكن أهل مكة إدد كما يتبين القرآن الكريم قوما وشيئا على النحو المفهوم من الوثنية ، وحماة جاهلية مشركة لا تفهم شيئا عن وجود خلق وخالق ، اعتقدت بأهة عديدة ، وبأن الأصنام هي أرباب حقا تنفع وتضر . لا ، لم يكن الجاهليون على هذا النحو من الدين بل كانوا يعتقدون بوجود إله واحد خلق السموات والأرض ، فهم إدد في عقيدتهم بالله موحدون . ولكن إذا كان أهل مكة على هذا النحو من العبادة فم خاصمو الرسول وحاربوه ؟

ولم آذوه وتآمروا فيما بينهم على قتله وعبادتهم هي عبادته وتوحيدهم توحيد إسلامي أو توحيد قريب من التوحيد الإسلامي ؟

أما الجواب : لم نخاصم قريش الرسول لعقيدته في الله . ولم يخاصمهم الرسول ويسفه أحلامهم لعقيدتهم تلك في الله ، إنما سفه أحلامهم وخصاصهم لإضافتهم أمور إلى هذا التوحيد أبعدته عن التوحيد الخالص ، بأن جعلته شركاً أو نوعاً من التوحيد المشرك ، فجعلوا مع الله شركاء وتقربوا إلى الأصنام وذبحوا لها الأوثان ، وجعلوا له بنين وبنات ، وآمنوا بالجن إيماناً عطل كل سلطان وأمر الله واعتقدوا بالقربات وبالشفاعات لتقربهم إليه زلفى . فعقيدتهم في التوحيد نوع من عقائد النصرانية في الملائكة والقديسين الشفعاء بين الله والناس . وهذا ما حاربه ورفع الإسلام بأن اجتث الوساطة وجبها وجعل الدين خالصاً لله وعبادة بينه وبين عبده ، وطهر التوحيد من زوائد الشرك وهدم ما لم يتفق مع هذا التوحيد ، ولهذا غضبت صناديد قريش وأظهروا للرسول ما أظهروه من كفر وعناد .

وقد كان أصعب شيء على صناديد مكة تغيير ما توارثوه عن آبائهم وأجدادهم من سنن وعادات ، فقد كان الخروج عليها عاراً ومنقصة لا تليق بالشهم الكريم : « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » . ثم إنهم كانوا يتعيشون من هذه العنونات ومن وصايتهم على الأصنام ومن سدايتهم ، وإسلامهم وإيمانهم برجل لم يرث مالا ولا يملك تجارة ولا عقاراً جاء بدين لم يألفوه ، يساوى بين الغنى والفقر والأسود والأبيض ، شيء لا يتفق مع ما ورثه القوم من سنن وعوائد اجتماعية . ومن هنا كان الإسلام في عرفهم هداماً وتقويضاً لعقيدة راسخة ونظام اجتماعي وسياسي يجب أن يدوم دوام السنين والأيام .

وقد أوردت في هذا الجزء من السيرة الحوار الذى دار بين كسرى أنو
شروان وبين حكماء العرب عن فضل العرب وشرفهم ، وعلى الرغم من
وضوح الوضع والتأليف فقد أثبتته لأين أن العرب لم يكن لهم علم قبل
الإسلام ، فقد اتسمت المحاورات بالسطحية وإيراد حكم استعارها كانت
ذلك الحوار من حكم الأولين ، ولم يكن من أقوال الحكماء غير السجع
والتكلف والفخر الرخيص .

إن القرآن الكريم الذى أنزل على محمد بن عبد الله يتم قريش هو باعث
العرب ، وسيظل المنهل الذى ينهل منه العرب كلما أرادوا الرفعة إلى يوم
الدين .

القاهرة فى ٢٠ / ٦ / ١٩٦٧

المراجع

- القرآن الكريم
تفصيل آيات القرآن الكريم
السيرة النبوية
السيرة الحلبية
تاريخ العرب قبل الإسلام
الأغاني
بلوغ الأرب
نهاية الأرب
الحضارة البيزنطية
- جول لا بوم
لابن هشام
لعلى بن برهان الدين الحلبي
للدكتور جواد علي
لأبي فرج الأصفهاني
للألوسي
للنويري
لستيفن رنسيمان — ترجمة جاويد
- Muslim Institutions, By : M . G . Demombynes
Islam and Theory of Interest, By : Anwar Lkbal Kurashi.
Three Contributions to the sexual Theory .
Islam and Socialism.
- فرويد
ميرزا علي
أم النبي
إيران في عهد الساسانيين
- لدكتور بنت الشاطئ .
لكريستينس — ترجمة يحيى
الحشاش .
لفاسي المكي الماكي
لابن كثير
- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام
البداية والنهاية

الشافا بتعريف حقوق المصطفى	القاضى عياض
الروض الآنف	للسهلى
تاريخ ابن خلدون	
مروج الذهب	للمسعودى
العقد الفريد	لابن عبد ربه
عيون الأخبار	لابن قتية
مختصر دراسة للتاريخ	لأرنولد توينبى — ترجمة شبل
وفاء الوفا بأخبار المصطفى	للمسعودى

مَحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ

وَالَّذِينَ مَعَهُ

فِي عَشْرِينَ جُزْءًا

رقم الإيداع ٢١٨٠

الترقيم الدولى ٥ - ١١٤ - ٣١٦ - ٩٧٧